دار ابن رشد

الحـــــامي

رواية

أحمد صوان

الطبعة الأولى: القاهرة 2018

رقم الإيداع: /2018

الترقيم الدولي: 978-977

الغلاف: هانيبـــال

عمليات الإخراج الداخلي وتنفيذ عمليات الطباعة

بوحدات شركة مدارك الإعلامية

ابن رشد

مراجعة لغوية: عادل العدوي

وكلاء وناشرون

إشراف عام: أحمد إبراهيم

المدير التنفيذي: بيسان عدوان

ibnroshdeg@gmail.com

+2 01003603778 / +2 01000377889

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

© Ibn Roshd Egypt

جميع المواد الواردة والأفكار تخص كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن أفكار أو توجهات الناشر

أحمد صوان

الحامي

THE PROTECTOR

القاهرة ٢٠١٨

«إننا بحاجة إلى الخيال كي نواجه تلك الفظاعات التي تفرضها علينا الأشياء» . .

بورخيس

هكذا نفهم – وبلا داع للإطالة – أن الصفحات القادمة كلها نوع من الخيال ، سواء أعجبك أو كرهته ، فلا داعي لمحاكمة أخرى يكون فيها الخيال مُتهمًا . . لا ذنب للخيال أن طرفًا منه مَسَّ الواقع ، فجعل البعض يشعر بالاحتراق .

المؤلف

مفيش أبطال غير اللي ضحّوا بدمهم . .
والأرض ما بتعرفش غير دم الغلابة . .

إسلام شوقي– قصيدة غير منشورة

الجميع اعتاد أن يَضُم الإهداء أسماء رنانة يوجّه إليهم الشُكر . . شخصية قريبة أثّرت في حياتهم . . صديقًا لا يزال في الجوار . . يستمتع الكاتب دومًا بهذه الأشياء . .

لكن . .

لا أسماء رنانة هنا سوى من صنعوا الأحداث التي أدت بنا إلى الوضع الذي نعيشه، هم يستحقون النقمة لا الشكر . .

كذلك لا يوجد أقرب من الوالدين. لكنهما رحلا حتى قبل أن أعلم أنني سأكمل هذه الأوراق . .

أما الأصدقاء، فقد صاروا إما مقتولاً أو محبوسًا أو في انتظار الفرج . . هكذا لم يبقَ سوى ابنتي الوحيدة . . الرهان على جيلها . . والإهداء إليها .

صوّان

«بنو وطني.. اجتازت مصر فترة عصيبة من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وتسبب الخونة والمرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين.. وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد..

وعليه.. فقد قمنا بتطهير أنفسنا.. وتولى أمرنا داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم ووطنيتهم.. وأثق في أن مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب.. عاشت مصر».

من بيان اللواء محمد نجيب – صباح 23 يوليو 1952

١

«القاهرة. يوليو 1952

عزيزتي الجميلة/ مادلين

كعادتي التي لا تنقطع، أكتب إليك خطابًا أعلم جيدًا أنه لن يصل، ولن أرسله إلا إلى درج الكومود الذي اعتدتِ دومًا وضع ذكرياتك فيه.. فقط أستكمل ممارسة هوايتي في الحديث إليكِ.

ربما كانت روحك، التي أعلم بيقين أنها لم تفارقني منذ غادرت عالمنا، تقرأ سطوري الآن. هكذا املأ فراغ ما بعد الحديث إليك بالانتظار؛ ربما يأتي ردك في صورة حلم جميل اشتقت فيه لرؤيتك.. ذكرى تقفز إلى ذهني -وكل ذكرياتنا لا تُنسى- أو حتى نظرة من صورتك التي لا تزال تُزيّن غرفتنا.

ربما كذلك أستيقظ لأشعر بيدك الحانية فوق كفّي. هل تذكرين؟ كانت تلك الرقيقة هي وسيلة إيقاظي الوحيدة.

يومي قد صار غريبًا منذ رحيلك. أستيقظ مبكرًا كعادتي.. أذهب وحيدًا كل أحد إلى القدّاس الذي أتذكر في ساحته لقاءنا الأول. أحتسي قهوتي مع إسحاق وسمعان، وأحيانًا ينضم إلينا الشيخ مصطفى. أتعامل مع الزبائن وأتحمل سخافاتهم باعتبارهم من علية القوم. ما لا أتأخر عنه قط هو أنني أذهب كل أسبوع لزيارة جسدك النائم في الإسكندرية.

ولكنني بالفعل أفتقدك.. جلوسك في حضني بينما نغمات عبد الوهاب تتصاعد من الجرامافون. حديثك الهادئ الذي يحتويني. رقتك في مواجهة المشاكل التي لم تعد لديّ طاقة لتحملها بعد رحيلك. نظراتك الهادئة التي تصيبني بالاسترخاء مهما كانت مُعاناتي. مخاوفي التي تزداد يومًا بعد الآخر.

بمناسبة المخاوف، هناك الكثير منها هذه الأيام يا مادلين، لا أحتملها وحدي ولا أملك حتى ترف الحديث عنها. صدقيني لست أبالغ كما

تظنين. سأحكي لك أقرب هذه المخاوف.

هل تذكرين يوم فوجئت بجلالة الملك نفسه في الاستديو وقد جاء يطلب صورة له، يومها تعجبت كثيرًا من ذلك الشاب الذي يستطيع إحضاري لقصره في أي وقت يشاء، ولكنه فضَّل الحضور للترويح عن ذاته كما أظن. يومها انفجر ضاحكا عندما انحنيت لأقبّل يده وتعثّرت حتى كاد كلانا يسقط أرضًا. عدت إليك وأخبرتك أن تستعدي لحضور حفل زفاف جلالته على الملكة ناريمان، فقد كانت زيارته ليرى إن كنت حقًّا جديرًا بسمعتي في التصوير، وأنني، حسب قوله، أستحق أن يُرشّحني بوللي باشا لالتقاط صورة زفاف جلالته الجديد.

كانت تلك الصورة هي بداية علاقتي بالقصر؛ منذ ذلك الوقت صرت أتردد عليه كثيرًا، سواء لالتقاط الصور أو الجلوس مع فاروق الذي اعتبرني واحدًا من حاشيته وتبسّط معي دومًا.

اليوم مولانا في موقف عصيب، فقد استيقظت على صوت طرقات سارة ابنة إسحاق الصائغ، لم تشأ أن تستخدم المفتاح الذي أعطيته لها كعادتها، ولم أكد أفتح الباب حتى هرعت إلى الراديو وفتحته، سمعت لأول مرة بيان الجيش بصوت أنور السادات. . هل تذكرينه، ذلك الضابط الذي اغتال أمين باشا عثمان وانتشرت صورته في الصحف آنذاك. كان يُذيع بيانًا باسم اللواء محمد نجيب يُعلن فيه سيطرة الجيش على البلاد.

لم أدرِ حينها لماذا شعرت بانقباضة في قلبي لم تحدث منذ وفاتك. تعلمين أن مولانا سمح لي بالاتصال به في أي وقت. لي الآن خمس ساعات أحاول الاتصال بالقصر دون جدوى. يبدو أنهم سيطروا على القصر كذلك.

لا أعرف، ولا يُمكن أن أتخيل، ما الذي سوف تحمله لنا الأيام القادمة.

لا أخفي عليك أنني منذ سماع بيان الجيش بدأت في الاضطراب. في الحقيقة، بدأت في كتابة الخطاب اليومي قبل موعده كي أسيطر على توتري باستحضار روحك الرقيقة.

لا أرى ملامح الأيام القادمة. صرت أخشى إن نجحت هذه الحركة واستولى الضباط على الحكم بالفعل، أن يعتبروني من حاشية مولانا ويقتلوني أو يجبروني على الرحيل من مصر. القتل أهون عليّ، فأنا لن أطيق الابتعاد، ليس فقط لأنها وطني الحقيقي، ولكنها كذلك الأرض التي شهدت حياتنا سويًّا حتى ذهبت إلى جوار الربّ تاركة جسدك فيها.

لن أطيل حديثي.. ربما تَحمل الأيام القادمة ما يستحق أن أطيل فيه. استمتعي عزيزتي بالملكوت. وأثق أن لقاءنا ليس ببعيد.

كما اعتدت دومًا أن أصف نفسي..

من يُحبك للأبد.

أرماني».

فرغ من كتابة خطابه، وقام ليضعه في مظروف من اللون نفسه الذي كانت مادلين تعشقه ثم تحرك ليُكمل طقوسه اليومية المُعتادة. فَتَح الكومود الخاص بها، ووضع الخطاب فوق الخطابات الأخرى بعد أن قام برشّه بعطرها المُفضّل الذي أهدته له يوم رحيلها. التفت ليحضتن صورتها على الجدار بعينيه، ثم غادر الغرفة كلها إلى موضع جلستهما اليومية في الشرفة المطلة على ميدان سليمان باشا قبل أن يشرع في العمل.

كانت عُدّة القهوة لا تزال في موضعها منذ كانت مادلين تصنعها له كل صباح، بدأ في صنع القهوة محاولاً السيطرة على ارتجافة أصابعه التي لازمته منذ رحيلها وهو يتطلع إلى الميدان الذي صار غريبًا عن ناظريه ذلك الصباح.

كان مندهشًا من وجود آليات عسكرية أثار مظهرها ذكرياته عن الحرب العظمى التي انتهت منذ بضع سنوات. في الوقت نفسه، كان المارة يتحركون حولها بحذر وهم ينظرون إلى الجنود الواقفين في صمت متجاهلين الأسئلة والتعليقات وحتى ابتسامات وعبارات التشجيع من البعض؛ كان يتساءل عما بعد ذلك البيان.

«وهم العساكر مالهم ومال القصر والأحزاب وعيشة الناس! هو حد

كان جه ناحيتهم؟!» .

كان غارقًا فى تساؤلاته حتى إنه لم ينتبه إلى طرقات الباب إلا بعد عدة مرات ، تحرك بخطواته البطيئة الواثقة ليفتحه فوجد أمامه سارة التي يعتبرها وصلته بعالم الشباب وحبيبها صادق ، الطالب والصحفي الذي يراه واعدًا ، ابتسم لقدومهما متوقعًا أخبارًا أكثر لدى صادق الذي بدا مهمومًا على غير عادته «مالك يا حبيبي؟» ، سأله مبتسمًا بلكنته الأجنبية مُقلدًا في الوقت نفسه إسحاق والد سارة محاولاً إزالة توتره .

«محدش فاهم حاجة يا عم أرماني . . رحت الجورنال الصبح لقيت الدنيا فوضى . معالي الباشا بيحاول يتصل باللواء نجيب لأن مفيش أي اتصالات بالسرايا ، والوحيد اللي الضباط اتصلوا بيه هو علي باشا ماهر . ما أنت عارف إن هو اللي مربي مولانا . كل الناس مرتبكة ومحدش عارف الجيش ناوي على إيه . سبت الجورنال ورحت الجامعة ، لقيت هناك كل الناس بتتكلم ومحدش عنده خبر أكيد . رجعت البيت لقيت خالي جه ومعاه عساكر وقال لأمي إنه من الضباط بتوع الحركة وقعد يقول كلام فارغ جملته إن اللي بيحصل ده لمصلحة كل الناس . زهقت وما قدرتش أقعد . نزلت أقابل سارة ، قالت لي نيجي نعدي عليك شوية» .

«تشربوا قهوة؟» ، قالتها سارة وهي تنهض محاولة التغطية على كلماته المليئة بالتوتر ، إلا أن صادق لم يبد أن لديه استعدادًا للخروج من حالته فاكتفى بهز رأسه موافقًا ، بينما داعبها أرماني «تقدري تقولي كده في بيتكم . . كان أبوكي حاسبني عليها . . صحيح يهود آخر زمنٍ يا بنت إسحاق» ، جاءت الدعابة بأثرها فابتسم صادق وهو يُشير إليها قائلاً «ياريت كل اليهود زي سارة يا عم أرماني . . إنما العينة الموجودة كلها ما تشجعش» .

«ولّما كلها ما تشجعش ، زميلك ده اللي اسمه فريد هيموت ويتعرف على مارسيل ليه» ، سألته مصطنعة الغضب وهي تضع يديها في وسطها فأسرع أرماني يُجيبها «ما هو لأجل الورد يا بنت الصايغ» ، ضحك صادق فأسرعت إلى عُدّة القهوة في خجل . دقائق وكانوا يحتسون مشروبهم على أنغام عبد الوهاب المتصاعدة من الجرامافون ، بعد أن رفض أرماني إعادة

تشغيل الراديو .

لاحظ أرماني أن كليهما ينظر للآخر كثيرًا وكأن لديهما حديثًا خاصًا يخجلان منه أمامه، وقد بدأ كلاهما في التململ في جلسته، استعاد حنينه لزوجته الراحلة فابتسم في حنان أبوي «طيب . . هسيبك أنا بقى مع حبيبتك وهروح أقعد مع حبيبتي . . لو نازلين قبل ما أرجع لكم خبّطوا على الباب» ، أومأ كلاهما برأسه متفهمًا، فاتجه أرماني إلى باب غرفته، وقبل أن يدخل التفت إلى سارة متسائلاً «صحيح يا سارة . . أبوكي فين النهارده؟» .

«في البيت يا عم أرماني، خاف النهارده ورفض يفتح المحل، أنت عارف الحاجات دي ممكن يبقى فيها أعمال نهب» .

«ساعتها أبوكي يروح فيها. ربنا يستر يا بنتي» ، قالها وفتح الباب في بطء، ثم عاد ليستدير إليها ثانية «ماتنسيش تقفلي باب الفراندة وأنتي ماشية . يمكن قعدتي جوة تطوّل، وأنت يابني لما ترجع الجورنال لو عرفت حاجة كلمني» .

«حاضر يا عم أرماني»، عاد المصوّر العجوز يُشير إليهما بالتحية وهو يدخل باب حجرته، أغلق الباب والتفت إلى صورة مادلين مُبتسمًا «وحشتيني» .

***

زادت حدّة الاشتباكات بزيادة أعداد المتظاهرين بالمحافظات كافة، واستمرت الاشتباكات بين قوات الأمن والمتظاهرين على مدار اليوم. لجأت الشرطة إلى القنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين، ولم تنجح المحاولات العنيفة للشرطة في إثناء المتظاهرين عن مطالبهم على الرغم من الإصابات وسقوط الشهداء، في حين لجأت الحكومة لمنع موقعي التواصل الاجتماعي «فيس بوك» و«تويتر» للحد من انتشار الدعوة للتظاهرات. وعلى الرغم من أن الجهات الرسمية لم تعترف بسقوط شهداء، حيث وصل عدد الشهداء إلى سبعة شهداء، فإن متظاهري السويس حاصروا ثلاجة حفظ الموتى للمطالبة بشهدائهم. وتجاهل التلفزيون الرسمي أحداث الاشتباكات ولم يذكر عنها أي شيء، كما قامت الجرائد القومية بنشر معلومات مُغايرة لما يحدث على أرض الواقع.

أرشيف جريدة أخبار اليوم

٢

«القوى السياسية تحشد لـ» جمعة الغضب» ردًّا على عنف الداخلية» . .
«وزير الداخلية يؤكد تورط قوى خارجية في إشعال التظاهرات» . .
«مصرع شاب وإصابة العشرات أثناء تفريق قوات الأمن للمظاهرات» . .

مرّت عينا كمال على عناوين الصحف سريعًا أثناء وقوفه في On The Run وهو يشترى مخزونه الشهري من التبغ، مال نحو إحدى الصحف وبدأ كأنه سيبتاعها ثم عدل عن رأيه "مفيش أكتر من اللي بيحصل في الشارع"، قالها لنفسه وهو يدفع الحساب. فجأة شعر بمثانته تُطبق عليه "يحرق أبو الأملاح ع الصبح"، همس بها وهو يتحرك نحو الحمّام المشغول الذي دقّ بابه وهو يتلوى.

"كمال؟! فينك يا . . يابني؟"، سمع الصوت الأنثوي الذي لم ينسَه قط وهو يمسك مقبض الباب، فالتفت إلى صاحبته "جميلة! . . إزيك"، قالها وهو ينظر إليها في دهشة مرتبكة "أخيرًا شفتك . . فين أراضيك؟" سألته وهي تُشير إلى جبهته "وإيه اللي في دماغك ده؟ . . أنت نزلت المظاهرات؟".

"لو أنا مانزلتش أُمال مين اللي هينزل. أنتي ناسية اللي حصل"، ربتت بيدها على كتفه وهي تقول بابتسامة مُحرجة "أنا آسفة مش قصدي"، أشارت إلى ماكينة القهوة الموجودة في المكان "تفطر معايا . . ولّا تشرب كابتشينو زي زمان"، بدا على وجهه شبح ابتسامة وطلّت في عينيه نظرة حنين قديمة "وماله . . أخش الحمّام على ما تطلبي الكابتشينو".

أفرغ مثانته وعاد إليها، ظلّت تتأمله وهو يضع السُكّر، بدا وكأنه تغير كثيرًا منذ خرج من المعتقل الذي قضى فيه ستة أشهر دون جريمة سوى نشر وثائق عملية فساد كُبرى عبر مدونته الإلكترونية. شعرت أن تلك الأيام أضافت إلى عمره أعوامًا لم ترَها فيه من قبل. لاحظ نظراتها التي تتأمل كل تفاصيله فبدا عليه الارتباك. أخرج هاتفه وتظاهر بالانشغال فيه.

"أنت اللي فجأة عملت كده. . مش بس حرمتني منك. . دا أنت كمان حكمت على نفسك تعيش لوحدك بعيد عن كل الناس"، باغتته فأسرع بنظره بعيدًا عنها و كأنه يفرّ من همومه "أنا"؛ قاطعته وهي تضع أناملها الرقيقة على ظهر يده الجاف "هربت كأن مفيش غيرك حصل له ده. سبتني وسبت كل الناس وقررت تعيش في معتقل خاص. الفرق أنك عشت المسجون والسجان في الوقت نفسه".

صمت وهو يُفكر في كلماتها مكتفيًا بنظرة خاوية لا يعلم مغزاها. لم تعد فكرة الوحدة تؤرقه، فقد كرِه سخافات البشر إلى حدّ أنه لم يعُد يطيق رؤية أحد. الهول الذي شاهده دفعه ليقطع علاقته بها فور خروجه حتى لا يُصيبها الضرر أو يتم الضغط عليه من خلالها، ساعدته طبيعة عمله كمهندس تقني في أن يقضي معظم أعماله من منزله الصغير، صار روتين حياته المنتظم أشبه بالمعتقل حقًّا كما وصفته. يخرج في منتصف الليل يومًا كل شهر ليسحب نقوده من الصراف الآلي، ثم يذهب ليشتري احتياجاته التي اقتصرت على طعامه، وتبغه، وزجاجات خمره التي لم يعُد يستغنى عنها بسبب كوابيس فترة الاعتقال؛ حتى الحشيش – هوايته الوحيدة كما كان يُطلق عليه – كان يشتريه بكميات تجعله لا يتعامل مع ذلك الموزع السخيف إلا مرة أو مرتين يأتيه فيهما بابتسامته الصفراء القبيحة، متوهمًا أنه عادة ما يقضي أيامًا وليالي حمراء. اعترف في قرارة نفسه أنه باستثناء جميلة وبعض الأصدقاء كان من هواة الوحدة. قبل ذلك كان كلبه هو الكائن الحي الوحيد الذي سمح له باقتحام حياته، كانا متلازمين حتى جاء اليوم الذي اقتحموا فيه الشقة وأطلقوا عليه الرصاص حتى لا ينبح. كان ذلك اليوم حقًّا هو آخر علاقته بالأحياء كما يعرفونه.

"أنت عارف بقالنا أد إيه ما اتقابلناش؟"؛ انتزعته من أفكاره فأجاب بدون تفكير "سنة. . شهرين. . أربعة أيام"، ارتفع حاجباها في دهشة فنظر إلى ساعته وأضاف "وسبع ساعات وأربعة وخمسين دقيقة". نظرت إليه طويلاً، فوجئ بدمعة تسقط منها فأسرع يلتقط منديلاً ويمسحها "افتكرتي إني نسيت. مش كده؟"؛ ارتجفت شفتاها وهي تسأله "طب ليه؟!".

"مكنش ينفع. لو شفتي ربع اللي شفته كنتي هتفهمي ليه عملت كده. أنا شفت ناس بتصرخ وتطلّق بالتلاتة علشان يحموا بيوتهم من اللي ممكن يحصل. شيوخ بتسب الدين علشان يفلتوا من التُهم اللي بتتلفق لهم. رجالة بشنبات بيحلفوا أنهم نسوان علشان يخلصوا من العذاب اللي هم فيه"، لمعت عيناه بالدموع فأشاح بوجهه "اللي تعرفوه، أو سمعتم عنه، أو حتى متخيلينه أكيد أقل من اللي بيحصل".

"قرأت شهادات كتير على الفيسبوك"؛ قالتها وعادت تحتضن كفّه بأناملها، أثار حديثها عن تلك اللعبة الجديدة ذكرياته في عام العزلة الذي عاشه، في البداية كان الأمر بالنسبة له وسيلة للاطمئنان على أصدقائه دون أن يضطر لمقابلة أحد منهم، تجاهل صندوق الرسائل الذي كانت تنهمر عليه الأسئلة بلا توقف واكتفى بالمتابعة. رويدًا رويدًا تحوّل الأمر لساحة ضخمة للنقاش السياسي وتبادل الآراء حول ما يحدث في البلاد من تحضير واسع النطاق لتوريث نجل مبارك الأكبر، الذي كان بشكل ما طرفًا في وثائق الفساد التي نشرها وتسببت في اعتقاله.

كان يُتابع ما يكتبه رفاقه بحذر، يُشارك بمعلومة مع هذا أو فكرة مع تلك، كتب مع آخرين عن فظاعة تزوير الانتخابات الأخيرة وتفشّي حالات التعذيب في الأقسام، شارك في اتهام الداخلية بتدبير تفجير كنيسة القديسين، ونشر شهادته عن أيام الاعتقال باسم مُستعار حتى لا يعود لذلك الجحيم.

"رحت فين؟"، انتبه من شروده على صوت جميلة التي بدا عليها الضيق "شكلي ضايقتك.. سيبك من اللي قلته"، ربت على كفّها بحنان فابتسمت "هشوفك بُكرة في المسيرات بعد الصلاة"، ظهر التردد على ملامحه، ولكنها تابعت "أهو منها تسلّم على الناس ومنها نبقى جنب بعض في المسيرة.. كلنا هنطلع في مسيرة شبرا"، صمت لحظات ثم رفع رأسه إليها "وماله.. أهي فرصة نتجمع زي زمان"، التقط نفسًا أيّد به قراره وابتسم "رقمك زي ما هو.. مش كده؟".

"ما أنت عارفني، الخط ده معايا بقاله سبع سنين".

"يبقى على تليفون.. معلش مضطر أمشي دلوقتي"، جمع أشياءه واتجه نحو الباب فعادت واستوقفته "كمال.. ما تهربش مني تاني.. لو سمحت"، لم يُجبها واكتفى بهز رأسه، تابعته ببصرها حتى ركب سيارته. أشعلت سيجارة وأخرجت الـTablet من حقيبتها وهي تقول بصوت خافت "وحشتني".

***

«جئت متاخرًا لوداع الملك بسبب ازدحام الطريق، وكانت المحروسة في عرض البحر، فأخذت لنشًا حربيًا دار بنا دورة كاملة كما تقتضي التقاليد البحرية وصعدت للمحروسة وكان الملك ينتظرني، أديت له التحية فرد عليها، ثم سادت لحظة صمت بددتها قائلاً للملك: لعلك تذكر أنني كنت الضابط الوحيد الذي قدم استقالته من الجيش عقب حادث 4 فبراير 1942 احتجاجًا، فرد الملك: نعم أذكر.

قلت له: حينئذ كنت مستعدًّا أن أضحي برزقي وبرقبتي في سبيلك، ولكن ها أنت ترىٰ اليوم أنني نفسي أقف على رأس الجيش ضدك. فرد فاروق: إن الجيش ليس ملكي وإنما هو ملك مصر، ومصر وطني، وإذا كان الجيش قد رأى أن في نزولي عن العرش ما يحقق لمصر الخير، فإنني أتمنى لها هذا؛ وقال: أنتم سبقتموني بما فعلتموه فيما كنت أريد أن أفعله. إن مهمتك صعبة جدًّا، فليس من السهل حكم مصر.

وكانت هذه آخر كلماته».

مذكرات الرئيس محمد نجيب

«بعدما أبحرت بعيدًا أنا وعائلتي، ساد الصمت فجأة في مصر. بدا أن نجيب ورجاله وقفوا صامتين ومندهشين كالأطفال الذين كسرت ألعابهم النارية زجاج جواهرجي. لم يأت أحد ليطاردهم. جواهر وطن بأكمله افترشت على طول الطريق تحت أقدامهم، رحل المالك.

وقفوا فاتحين أفواههم، وأعتقد أن الأمر أخذ منهم حوالي أسبوعًا ليدركوا حجم الأهمية التاريخية لما فعلوه. لا أحد في مصر الآن يستطيع أن يرفض أي شيء يطلبونه. بالأمس، كان نجيب مواطنًا عاديًّا، واليوم، أصبح فوق القانون، لا يستطيع شرطي في مصر أن يمسه».

مذكرات الملك فاروق الأول

٣

«كانت عجلة الأحداث تدور سريعًا، فبينما وافق فاروق على التنازل عن العرش لوليّ عهده أحمد فؤاد الثاني مُغادرًا أرض مصر على متن المحروسة، وهو اليخت ذاته الذي غادر فيه جدّه إسماعيل عند نفيه، لم يمضِ الكثير حتى كان ضباط الحركة قد أعلنوا عن تشكيل ما أسموه «مجلسَ قيادة الثورة».

سُرعان ما تمت الإطاحة بعرش الملك الطفل وإعلان قيام الجمهورية برئاسة اللواء محمد نجيب، وتعيين البكباشي جمال عبد الناصر رئيسًا لوزرائه، لتبدأ مصر عهدًا استبشر به الفقراء خيرًا، في حين انتاب الجميع الحذر حول ما ستقوم به السُلطة الجديدة بشأن السياسة التي وصفوها في بيانهم الأول بالفساد.

لم يرُق لي كل ما يحدث يا عزيزتي. شعرت في تصرفات هؤلاء بنوع من الجوع إلى السيطرة، هناك كم من الاعتقالات التي قد تُفضي إلى اتهامات خطيرة بلا دلائل حقيقية. فعلها الرعاع في فرنسا حينما أسقطوا سجن الباستيل، أذكر أننا قرأنا عن تلك الفترة سويًّا واندهشنا أن كل من شاركوا في الأمر انتهت رؤوسهم على المقصلة واحدًا تلو الآخر. ربما هذا ما يجعلني متوجسًا، خاصة بعد محاولات إقصاء السياسيين التي يُنفّذها الضباط على قدم وساق.

أصبح الاستديو قبلة للطبقة الحاكمة الجديدة من الضباط وأسرهم، الذين اعتبروا أنفسهم حَلّوا بدلًا من أمراءِ أسرة محمد علي التي أصبح الجميع يشيرون إليها باعتبارها «العهد البائد»، وكان المجتمع هو الآخر يتغير بسرعة شديدة نتيجة للأحداث السياسية، فمع اختفاء الأمراء والباشاوات جاء آخرون من صغار الضباط يُطلقون على أنفسهم هذه الألقاب سرًّا خوفًا من الكبار الذين كانوا يكرهون هذه الألقاب، وبدأوا يصّنفون الناس حسب أهوائهم.

صدقيني، أشعر بالحسرة عندما أشاهد اختفاء الرُقي والبروتوكول لتحل المعاملات الفظة، وجدت من الطبقة الجديدة تعاليًا لم أجده لدى فاروق نفسه والحاشية التي دفعت هؤلاء الضباط للانقلاب عليه.

ورغم أن جمال عبد الناصر نفسه، القائد الحقيقي لكل هذه الأحداث، أتى هو الآخر ليلتقط آخر صوره العسكرية، فإنني وجدته شابًا هادئًا ومتحدثًا لبقًا؛ على عكس ذلك الصاغ الذي جاء ليلتقط صورة رسمية لرتبته الجديدة، كان يُعاملني بمنتهى الغطرسة في الوقت الذي أعلم جيدًا أنه جاء ليفتخر وسط زملائه بأن صورته عليها توقيع مصور الملك السابق، كان يُشبه الطاووس في خيلائه رغم أن ملامحه الريفية كانت تؤكد بساطة نشأته؛ وكان غروره قد فاق الحد حتى إنني، بعد أربعين عامًا لم أفقد فيها أعصابي في الاستديو، طالبته بإظهار الاحترام ولو لفارق السن، وتحول الأمر لمشاجرة صوتيه لم تنتهِ إلا بدخول صادق الذي طلب من الضابط الاعتذار والمغادرة وإلا سيقومَ بالاتصال بخاله الذي كان ذكر اسمه كافيًا لينفجر الضابط باعتذارات لا حصر لها.

لا تبدو الأمور مُبشّرة يا عزيزتي. بعد ما يقرب من عامين من نجاح الحركة التي صاروا يُطلقون عليها ثورة، أرى البلاد تتحول إلى حكم ذي اتجاه واحد دون أحد يُمكنه المُعارضة. الجميع يخشون الحديث، بل إن سمعان حذّرني حتى من وجود هذه الخطابات التي لا تُغادر غرفتنا، والتي أروي لك فيها كل شيء. لا أعرف، لكنني لن أتوقف عن الحديث إليك إلا عندما نلتقي في ملكوت الربّ مرة أخرى.

كما اعتدت دومًا أن أصف نفسي

من يُحبك للأبد..

أرماني».

أنهى أرماني خطابه الجديد وعاد إلى حجرة الاستديو ليُمارس حياته بالروتين المُعتاد. يعمل، يكتب خطاباته التي لا تنقطع لمادلين، يتلقى زيارة كل بضعة أيام من سارة وصادق، ويذهب للجلوس على المقهى مع إسحاق

وسمعان، وأحيانًا صديق شبابه الشيخ مصطفى الذي يداعبه منذ أربعين عامًا بأنه يُصرّ على شرب الشاي الثقيل دون سواه وكأنه يهودي يخشى أن يدفع أكثر من ثمن الشاي، لكنه يضع في الكوب كل ما يستطيع.

كان أكثر ما يُحبطه هم هؤلاء الجالسون على المقاهي من المثقفين ومن يُفترض أن يكونوا أصحاب رأي، تحولت أحاديثهم لتأييد الثورة الوليدة، في الوقت نفسه الذي يتعجبون فيه من عدم استعانة مجلس الثورة بأي من الشباب الموجودين في العمل الوطني «كنا فاكرين إنهم هيجمعوا كل الشباب اللي كافحوا قُدام الإنجليز ويعملوا منهم كوادر تنفع البلد»، هكذا قال له صادق في ضيق وهو يسهر لديه ذات خميس يستمعان سويًّا للجرامافون، وتابع في ضيق «حتى الضباط اللي كانوا بيدربوا الفدائيين بعد ما النحاس باشا لغى معاهدة 36 وعارفين مين يقدر يقوم بدور مهم، تقريبًا تم استبعادهم واتصدر رجالة الحركة بس. وطبعًا الأحزاب كلها على جنب باعتبار أنها كانت بتتعامل مع السرايا»، ربت أرماني على كتفه مُهدّئًا لكنه زفر في ضيق «مش عارف ليه يا عم أرماني حاسس إن مستقبلي السياسي انتهى».

«طيب وخالك يا حبيبي.. ما اتكلمتش معاه؟».

«صفوت!.. خلاص بقى «رجل دولة» زي ما بيقول لأمي.. شايف إن معندهمش وقت وإنهم بيرتبوا البلد من الفوضى اللي سابها لهم الملك فيها»، ابتسم بمرارة وأخرج علبة سجائره وأشعل إحداها بعدما أشار له أرماني بالموافقة «وبيني وبينك هو وزمايله عندهم حاجات أهم، أملاك أسرة محمد علي والأراضي اللي بتتاخد من الباشوات وبتتوزع عليهم حسب الأهمية بالتحايل على القانون اللي عملوه».

«يعني مجلس قيادة الحركة كله مش فاضي للسياسة.. طيب دخلوا فيها ليه؟».

«ثورة يا عم أرماني.. أفتكر أنهم خلّوها بقت ثورة.. هم مشغولين في السياسة العامة زي ما صفوت قال لي. وكل واحد من مجلس القيادة اختار مجموعة تشتغل معاه.. وكل واحد من المجموعة اختار مجموعة.. لحد ما توصل للعسكري اللي بيتعامل مع الناس في الشارع كأنه عبد الناصر».

«ربنا يستر يا حبيبي» .

«والله يا عم أرماني ما بقتش عارف إيه هيحصل بعد كده . بقيت خايف على مستقبلي وعلاقتي بسارة . بابا وماما ما بقوش يسمعوا غير كلام خالي، يعني لو رفض الجواز مش هعرف أتجوزها» .

«للدرجة دي!»، قالها أرماني مندهشًا فهز رأسه مؤكدًا «ومش بعيد يضر عم إسحاق كمان لو عايز . مفيش حد يقدر عليه غير اللي أكبر منه» .

شعر أرماني بالشفقة على الشاب فهتف «لو عايزني أكلّم عبد الناصر هو ساب لي رقم مكتبه، أنا ممكن . . »، قاطعه في حزن «تفتكر مش عارف زملاؤه ورجالته بيعملوا إيه . . تفتكر هو نفسه يقدر عليهم . يا عم أرماني أمراض السلطة مسكت في عقول الضباط وخلاص مش هتطلع . حتى لو عبد الناصر زي ما أنت بتقول ما اعتقدش إنه يقدر عليهم» .

«طب والحل يابني» .

«ربنا وحده اللي عارف»، قالها ونهض ودموعه على وشك السقوط وأردف «أنا مضطر استأذن . عندي جامعة الصبح»، أشار العجوز بيده متفهمًا ومودعًا؛ ظل على صمته حتى غادر صديقه الشاب ونهض بخطوات بطيئة إلى حجرته، بدّل ملابسه وجلس على السرير وهو يُخرج ساعته التي تحمل صورة مادلين وهمس «تصبحي على خير يا حبيبتي» .

***

في السادسة مساء الجمعة 28 يناير شهدت مصر اختفاء مفاجئًا لقوات الشرطة كافة من جميع أنحاء مصر، وشهدت أيضًا هروب العديد من المساجين والمسجلين خطر من سجون مصر الكبرى، وكان الهروب جماعيًّا وكبيرًا بالشكل الذي أكد بنسبة كبيرة أن قوات الشرطة تورطت وكانت المسئولة عن هذا الهروب للرد على مقاومة المتظاهرين، وسادت حالة من الفوضى والقلق في الشوارع.

في الساعة السادسة والنصف نقلت وسائل الإعلام قرار الحاكم العسكري بحظر التجوال في القاهرة والإسكندرية والسويس، مع انتشار قوات الجيش وعناصر الحرس الجمهوري لتأمين المنشآت الحيوية للبلاد؛ لكن على الرغم من ذلك فقد تحدت جموع المتظاهرين قرار الحظر وبقيت في الميادين الرئيسية، أما بقية الشوارع فقد خلت تقريبًا من الناس إلا من دوريات الجيش وقليل من الناس الذين شكلوا لجانًا شعبية لحفظ الأمن في مناطقهم من هجمات المسجلين.

تقارير صحفية – يناير 2011

٤

«سوف أوالي متابعة تنفيذ الحكومة الجديدة بتكليفاتها على نحو يُحقق المطالب المشروعة للشعب. . وأن يأتي أداؤها مُعبّرًا عن الشعب وتطلعه للإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي. . ولإتاحة فرص العمل ومكافحة الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وفي ذات السياق. . فإنني أكلف جهاز الشرطة بالاضطلاع بدوره في خدمة الشعب. . وحماية المواطنين بنزاهة وشرف وأمانة. . وبالاحترام الكامل لحقوقهم وحرياتهم وكرامتهم».

انطلقت الصيحات الغاضبة في ميدان التحرير مع ذلك الجزء من خطاب مبارك الذي انتظره المصريون ساعات طويلة منذ التنويه عنه على شاشات التلفزيون. لم يُصدق المحتشدون الذين لم يهدأوا حتى سقطت الداخلية كمقدمة لإسقاط نظامه بالكامل، أنه لا يزال يتحدث بنفس النبرة التي اعتادوا عليها منذ مولدهم، كان يُعطي الأوامر ويقوم بالتكليفات متجاهلاً كل ما حدث في الشارع في الأيام الماضية.

شعر سعيد بأنه ككل طاغية لا يُبالي بشعبه، يُخبرهم أنه سيرحل من السُلطة وقتما يشاء وعلى طريقته هو، وكأن كل ما حدث لا يعنيه أو نظامه.

«دا لسه ناوي يقعد معانا. . أومّال الأيام اللي فاتت دي كانت لازمتها إيه!».

قالها لنفسه وهو يقف وسط الجموع الغاضبة بعد أن أدرك أن الرجل لن يرحل بسهولة، لا يزال يُناور ويتحدث بعيدًا عن المطالب التي جاء كل هؤلاء من أجلها. وفي الوقت نفسه ينتظر فرصة للانقضاض عليهم. هكذا فكّر وهو ينظر حوله ويسمع طرفًا من مناقشات كل مجموعة، تزايد غضبه وهو يشعر بأن الديكتاتور العجوز يتلاعب بالجميع، تلفت حول نفسه

فاندهش عندما رأى غضب البعض يتراجع.

«طب ما نسيبه الكام شهر دول.. مش هيعدل المايلة صحيح، بس ع الأقل ما نبقاش مسحنا بالراجل الأرض»..

«دا برضه بطل أكتوبر»..

«يا أخي ما هو قال لا هو ولا الواد ابنه هيترشحوا.. انتم كده عايزين إيه تاني»..

«يا جدعان بلاش نذله.. ندي له فُرصة»..

«ليه؟!»، صرخ بها سعيد فأحدث لحظات من الصمت في الحشد المحيط به، نظروا إليه جميعًا فأكمل «هو إدى مين فيكم فرصة؟.. خدتوا منه إيه غير شوية كلام بنسمعهم من يوم ما اتولدنا لحد ما قعدنا في الشارع وشعرنا بيطقطق أبيض وإحنا لسه في عِزنا»، استمر صمتهم فنظر إليهم جميعًا ثم انفجر.

التفت إلى أحد العجائز «أنت عارف تتعالج؟»، أطرق الرجل برأسه فتجاوزه وأشار إلى سيدة تقف «أنتي عارفة تجوّزي بناتك؟!»، لم ينتظر منها ردًّا ووضع يده على كتف شاب بجواره «أنت عارف تشتغل؟»، هز الشاب رأسه نافيًا، فنظر إلى طفل يجلس على كتفي والده «تقدر تقول لي هم بيعلّموك إيه في المدرسة يا حبيبي». لم ينتظر منهم إجابات وإنما دار حول نفسه ورفع يديه وهو يصرخ «حد فينا لاقي ياكل؟.. طب حد فينا عارف يعيش؟.. لو الدنيا حلوة وقادرين تصبروا.. طب جيتوا هنا ليه؟.. سبتوا ناس تموت وتتحبس وتتعذب علشانكم ليه؟».

صمت الجميع وهم ينظرون إلى بعضهم في خجل. بدأ العجائز يتعدون بينما تصاعدت مُناقشات خافتة بين الشباب تجاهلها سعيد وهو ينسل من بينهم باحثًا عن مكان للانفراد فيه بنفسه، خرج من بوابة شارع طلعت حرب وسار بهدوء حتى وصل إلى تقاطع النادي الدبلوماسي.

«الواد ده من العيال اللي جوة».

سمع الصيحة على يمينه فالتفت ليجد مجموعة من البلطجية يتحركون نحوه. بدأ في التراجع وهو يُطلق صفيرًا قويًّا والتقط من الأرض عصًا ظلّ

يطرق بها على عمود إنارة لتنبيه من يقفون على البوابات، بينما بدأ البلطجية في التقدم نحوه وأحدهم يلوح بسلسلة في الهواء.

«اثبت يلا».

سمعها من خلفه وهو يتراجع، التفت ليجد خمسة شباب يقتربون منه وقد بدأوا في إلقاء الحجارة على البلطجية. تراجع في سرعة وبدأ يلتقط بقايا الرصيف المكسورة وشاركهم القذف وهو يُطلق صفارات عالية. تبادلوا الحجارة مع السباب لدقائق قبل أن يتراجع البلطجية بعد أن انتبه عشرات الشباب من الميدان وبدأوا في التقدم نحوهم.

انحنى سعيد يلتقط أنفاسه بصوت مسموع، لم يكن مُعتادًا على مواجهات كهذه، فهو من الطراز الذي يبتعد عن المشاجرت طيلة حياته، بينما اقترب منه شابان وأمسك به أحدهما «أنت كويس؟»، أومأ برأسه إيجابًا وهو يلهث، نظر إليهما فوجد حالهما لا يقل عنه سوءًا «تمام.. بس قطعوا نَفَسي ولاد الكلب».

سار مُستندًا إلى كتف أحدهما حتى دخلوا الميدان سويًّا. فجأة ارتفع رنين هاتفه المحمول. تردد في الإجابة متوقعًا انفجار عمّته عبر الهاتف الذي انقطعت خطوطه طيلة الأيام السابقة. عاد الرنين يتردد مرة أخرى فقرر إجابتها «أيوة يا مقدّسة»، قالها مصطنعًا المرح فتصاعد صوتها الغاضب «وأخرتها يا سعيد. عايزين تذلّوا الراجل الكبير في آخر أيامه.. هو ده اللي ربنا قال عليه».

«يا عمتي هو ده يعرف ربنا أصلاً، أنتي مش سمعتي اللي قاله. ده برضه ماسك في الكرسي. الشباب اللي ماتت الأيام اللي فاتت دي حقها فين».

«جك كسر حوقك منك له.. طبعًا.. ما أنت لقيت فرصة للبوظان.. لو كان أبوك عايش كان إدى لك بالجزمة».

«لو كان أبويا عايش كان زمانه قاعد معايا ومكنش مشي.. كان أول واحد هيمسك في حق الناس»، صمتت وبدا أنها تحاول أن تهدأ، جاء صوتها رقيقًا في محاولة لإقناعه «يابني ارجع ربنا يهديك.. عيب اللي بتعمله ده».

«مش راجع . . ورحمة أبويا ما راجع إلا لما يمشي» .

«طب طول ما أنت ملموم على شوية البايظين اللي عايزين يخربوا البلد دول ابقى شوف هتعيش إزاي من غير رضايا . وأنت عارف ، معدش ليك غيري» .

«يا عمتي اسمعي بس»؛ أنهت المكالمة في عنف جعله ينظر إلى الشاشة غير مُصدق لما حدث ، كانت المرة الأولى التي تغضب منه فيها بهذا الشكل «للدرجة دي كلامه ضحك ع الناس؟» .

سار متجولاً في الميدان ببطء وهو يفكر في عمّته التي لم تستطع أن ترى الحقيقة . كانت عزلتها في المنزل لأكثر من ربع قرن واستقاء معلوماتها من التلفزيون الحكومي ، أسبابًا جعلتها ترفض حديثه . . كل الكلام عن القمع والاستبداد وسلخانات التعذيب مجرد افتراءات في نظرها . . كانت تُقسم أن الجنرال العجوز هو الأب والحامي والعمود الفقري للوطن . . لا تزال تتحدث عن دخولها قصر القبة مع حشد من الناس لتهنئة الرئيس بنجاته من محاولة الاغتيال في إثيوبيا . . حاول إفهامها بأن رئيس الأمس اللطيف هو طاغية وفرعون لا يختلف عن سابقيه ، وأن عوزهم بعد الرخاء جاء بسبب استيلاء نجله وأصدقائه على كل شيء . فشل في هذا كثيرًا فكف عن المحاولة .

«مفيش فايدة» ، قالها لنفسه وهو يدور يدور في الميدان دون أن يعلم وجهته . فقط كان يعلم أنه لن يُغادر إلا برحيل الفرعون .

***

٥

لم تغمض جفنا صادق بعد أن تحدث إلى خاله صفوت، ظل يتململ على سريره ويحاول إغلاق عينيه بينما كلمات الرجل تُطارده؛ كان الرجل الذي صار يتحدث بعنجهية شديدة، يُشير إلى خطوات من التضييق لم تشهدها مصر حتى في أوقات الحرب والأحكام العرفية. بدا له وكأن هؤلاء يسعون إلى امتلاك البلاد لا إلى تحريرها كما تقول بياناتهم التي تملأ الراديو وأحاديث بعضهم في الصحف الأجنبية.

عاد يفكر مع كلمات خاله في الرجل نفسه الذي لم يدرِ تحديدًا وسط كل ما سمعه ما هو دوره ولا كيف انضم إليهم، وهو المعروف بين أقرانه بالتعامل مع المخابرات البريطانية وإسدائه خدمات إلى القلم السياسي «أنور السادات كان ضابط في الحرس الحديدي.. ما تصدقش كل حاجة بتشوفها يا حبيبي»، إجابة صفوت الساخرة عندما باح له بأفكاره منعته عن المزيد من القول. أدرك أن الرجل يستهزئ به، خاصة لقربه من قيادات الوفد التي تجددت شعبيتها الجارفة بعد إلغاء معاهدة 1936؛ بدا له من نبرة حديثه يومها أنه يعتبره بشكل ما عدوًّا؛ خاصة عندما تحدث عن نيتهم لإقصاء الأحزاب بغية الحفاظ على استقرار المرحلة «ما هُمّ الباشوات بتوعك دول اللي خربوا البلد. إحنا عاوزينها ترجع لأصحابها»، قالها له وهو يقوم بتلميع حذائه العسكري، فاعترض بهدوء «وهي الأحزاب باشاوات بس يا خالي. فيها عُمّال وأفندية وطلبة جامعة زيي. كل الناس في الأحزاب».

«وكل حزب من دول يضحك على الناس علشان يقعد في كرسي الحكومة شوية. ولمّا يفشل يسيب الكرسي للي بعده. ولو مش دول يبقى الإخوان اللي عملوا لنفسهم جيش لوحده، ولاّ نسيت اللي حصل للنقراشي باشا».

«اللي حصل للباشا هو اللي حصل لحسن البنا».

«أهو.. بتقولها بنفسك. قتلوا شيخهم لمّا وقف في سكتهم. يبقى

كانوا هيعملوا إيه في الشعب المسكين ده لو حكموه» ، ابتسم صادق ساخرًا «اللي أعرفه فعلاً إن الهضيبي والحركة حبايب ، والقعدات مع عبد الناصر تشهد»؛ بدا الغضب على وجه صفوت «يبقى ما تعرفش حاجة . . خليك في مذاكرتك يا ولد . . والجورنال بتاعك ده تنساه» .

لم يدر كيف كان يمكنه أن يهدأ بدون سارة الرقيقة التي أزالت عنه توتره وغضبه . فتَاته التي تعلّم معها ألا يُخفي شيئًا لأن حنانها دومًا ما يكون كافيًا لامتصاص يومه بكل ما فيه من تعقيدات لا تدري عنها شيئًا ، لم تكن تريد أن تعرف بقدر ما كانت تكتفي بمنحه ابتسامتها الساحرة التي تصنع يومه حتى لقاؤهما التالي « كفاية عندي إني أشوفك مبسوط» ، كانت جملتها الأثيرة عندما يُلقي ما بداخله إليها وتبتسم في وجهه ، كافية ليزول توتره .

الرقيقة ابنة الثامنة عشرة ربيعًا ، لا تفهم مما حولها سوى أبيها وحبها له والعم أرماني وزوجته الراحلة اللذين طالما اعتبراها ابنتهما التي لم يستطيعا إنجابها . سارة التي لم يعلم أنها يهودية سوى بالصدفة عندما كان يجلس لدى أرماني ذات يوم ووجد زوجته الراحلة مادلين تخبرها بأن شمس الجمعة آخذة في الرحيل فتوقفت عما تفعله . يومها تساءل عن معنى هذا في براءة فأجابته مادلين بضحتكها الصافية «اليهود بيبتدوا أجازتهم من مغرب الجمعة لمغرب السبت يا حبيبي . . يعني لما تتجوزها تعرف إن ده معاد أجازتك منها» ، ضحك ثلاثتهم على ملامح الدهشة التي غمرت وجهه ، واقتربت منه سارة بابتسامتها التي يعشقها «إيه . . ناوي ترجع في رأيك علشان يهودية؟» ، أجاب بلا تفكير «وهو أنا أحسن من الملك . . دول بيقولوا إنه بيحب كاميليا أوي . . الحمد لله إنه ماشفكيش وإلا كان سابها وخدك مني» .

تنهد وصورة سارة تملأ عقله . كان يعتبرها الجائزة الكبرى التي سينالها عقب نجاحه . هكذا انخرط في المذاكرة ، وفي العمل في الجريدة ، وفي الانخراط في السياسة من أجل أن يصنع لهما مستقبلاً يليق بهما . طالما رآها في خياله تلازمه وهو يصافح الملك ببدلة التشريفة ، تدخل معه مكتب رئيس الوزراء والجميع يهنئونه ، يُناديهما الجميع بلقب «معالي الباشا» و«جناب الهانم» . الآن ، جاء صفوت اللعين ورفاقه ليحطموا كل هذه الأحلام . بضع مدافع ودبابات انتشرت في الشوارع كانت كافية لتحطيم طموحه إلى الأبد .

لم يستطع أن يبوح لفتاته، لم يخبرها عن صفوت كما ينبغي، لم يحك لها عن حديثه في الأشهر السابقة عن الفساد والسيطرة ووجوب انتقال السلطَة إلى من يفهمها، الحديث الذي لم يكن يعنيه أو يفهمه وقتها عن المارد النائم في ثكناته. القوة التي كانت تظهر في كلامه يومًا بعد الآخر دون أن يُعطي لها انتباهًا، والأهم أنه لم يُخبرها عن مدى كُرهه لليهود ورغبته في سحقهم دون أن يُحدد حديثه، أهو عن كافة اليهود كما فعل بهم النازي منذ سنوات قليلة، أم فقط عن هؤلاء الذين فرضوا وجودهم في فلسطين بقوة تستحق أن يقوم الجميع بإزالتهم بأضعافها.

ازدحمت رأسه بالعشرات من الجمل والأفكار حتى بات يشعر بأنها كالجرامافون التالف. قام من سريره واتجه نحو درج مكتبه، أخرج علبة سجائره وخرج إلى الشرفة، اصطدمت عيناه بالآليات العسكرية التي تملأ الشارع والميدان القريب، أشعل سيجارته وعادت أفكاره السوداء تقفز إلى ذهنه مرة أخرى.

صفوت ورفاقه سيطروا على كل شيء، وهم لا خبرة لهم بالسياسة ولا بالأحزاب، ولا أحد يعرف ماذا ينوون ولا كيف ستُدار الأيام القادمة، كيف سيتعاملون مع الشعب والرعايا الأجانب المقيمين في البلاد الذين تعهدوا بحمايتهم، والأهم بالنسبة له كيف سيتعاملون مع اليهود؛ الأكثر خطورة بالنسبة له كان مُستقبله السياسي بعد أن استشعر في حديث الرجل أنهم قرروا إبعاد الأحزاب عن السياسة وتولي الحكم، هو نفس ما فعله نابليون وهتلر وقادا به بلادهما للدمار.

مع شروق الشمس لم تكن في ذهنه مساحة خالية، دخّن سيجارة جديدة وارتدى ملابسه وتحرك خارج المنزل بهدوء. كان يتمنى لو كان هذا كله كابوسًا حقيقيًّا ينتظر أن يفيق والبلاد كلها منه «يا ترى هتعملوا إيه يا صفوت؟»، خرج منه التساؤل وهو ينظر إلى الجنود المنتشرين بالشوارع. كان يخشى معرفة الإجابة بقدر ما تمنى الحصول عليها.

***

٧

«مش هنمشي . . هو يمشي» . .

«يا سليمان . . يا سليمان . . ارحل ارحل أنت كمان» . .

«الشعب . . يريد . . إسقاط الرئيس» . .

«انزل . . انزل . . انزل» . .

كانت الهتافات تتوالى بلا هوادة من الشوارع وتنقلها إلى مسامع أكرم نوافذ الجريدة العتيقة في وسط البلد، بينما كان يجمع أوراقه استعدادًا لمُغادرة المكان والعودة إلى أصدقائه الذين لم يتركوا الميدان . تأكد من وجود مفاتيحه التي تختفي أكثر مما تظهر وارتشف من الشاي الذي استحال إلى ماء ملوّن، بينما عيناه تتابعان شريط الأخبار عقب خطاب مبارك الذي ظهر فيه فقط ليؤكد وجوده ويستعطف المصريين . تجاهل تعليقات زملائه ونظراتهم إلى كاميرا المراقبة التي تنقل ما يحدث لرئيس التحرير وحديثهم عن المستقبل القريب، والتي تنوعت بين الرغبة في ترك العجوز عدة أشهر أخرى كما يُريد وبين تأكيدهم على حديثه أثار انتباهه حديث المصور رأفت الذي قال إن الكنيسة لم تتخذ موقفًا حاسمًا تجاه الأمر، وتعليق زميله الإخواني مجدي الذي أكّد عبر مصادره أن الجماعة تفاوض نائب الرئيس للبقاء .

«كلام فارغ»، خرجت منه دون وعي فالتفت إليه الجميع وقد صمتوا في وقت واحد فأكمل جملته وهو يرتشف ثُمالة الشاي «الراجل ده لو قعد أسبوع هيدبح كل اللي في الشارع . . ده عنده استعداد ينسفها هو وابنه ولا إنه يمشي» .

«مش للدرجة دي»، التفت ليجد عبد الرسول رئيس التحرير الذي وضع يده على كتفه «أنت سمعت الراجل قال إيه . . لا هو هيكمّل . . ولا الواد هيترشح . . عايزين إيه تاني»، أزاح يده ببطء «يا ريس أنت عارف

اللي فيها. . أنت مصدق الكلام ده. . بصراحة ملعوبة. . كلام مكتوب حلو بس أنت عارف الفعل شكله إيه».

ابتسم الرجل ووضع يده علي كتفه ثانية وهو يتحرك به خارج صالة التحرير، ويلتقط كوب ماء من المبرّد الموجود في الممر وينظر حولهما «أنا اللي كتبته»، قالها فتراجع الشاب خطوة وكأنه ألقى الكوب في وجهه. صمت أكرم وهو ينظر إليه قبل أن يتحرك عبد الرسول ويغلق باب الصالة على زملائه ثم يلتفت إليه «طلبوني وبعتوا لي عربية إمبارح الصبح. . قابلت الواد الأول وسألته الدنيا ماشية إزاي، قال لي ما تقلقش والبلد بتاعتنا، وشوية العيال دول اللي هيفضل عايش منهم هيتخزنوا في السجون لحد ما أمسك وأفرج عن اللي يلزمني منهم بعدين. . قال لي سيادة الريس عايزك تكتب الكلمة اللي هيقولها بالليل. . إداني ورقة وقال لي هتلاقي فيها النقط اللي هتشتغل عليها».

«والنتيجة كلنا شفناها طبعًا. . الناس هتقطع بعض في الشارع. . فيه اللي اقتنع بكلامك وبيشّد أصحابه وعايز يمشي، والغلابة اللي في البيوت بيحبسوا عيالهم ويبجروا يلموهم من الميدان. . برافو يا ريس. . أحسنت».

«واللي زيك هيفضل في الشارع، إما هيموت أو يتسجن»، قالها وجذبه إليه «يابني افهم، كل اللي أنت بتعمله نفخ في قربة مقطوعة، هتكبر وهتبقى دون كيشوت وتحارب طواحين الهوا. . راجع نص شغلك اللي اتمنع من النشر، طول الوقت فيه ناس مكتوب عليها ممنوع الاقتراب. . اللي يقول له يا أونكل، واللي بيسهر مع الواد، واللي عِشرته طوّلت فبقت الهانم بتعتبره من ولادها».

«شايفها هتفضل كده؟».

«مفيش اللي أنت بتدور عليه، هي خلاص مستقرة، الناس بتغني اخترناه وأنت لسه في اللفة، والحكاية خلصت على كده»، تلفت حوله وخفض صوته وهو يُتابع «فاكرني مبسوط إن صحفي كويس زيك مش عارف يشتغل. فاكرني فرحان بنفسي والأمن هو اللي بيخرج العدد ويطلع العناوين»، حاول أن يُجادله فأشار إليه بالصمت «ما تقوليش الكلام الفارغ

اللي بتعيد وتزيد فيه أنت وأصحابك ع القهوة، ولّا الوعد اللي قلته للمُزّة وأنتوا بتشربوا إزازتين في الجريون.. الراجل قاعد.. والواد جاي بعده.. وهتلاقي اللي بيطلع يقوله عايزين منع حبس الصحفيين، وهيوافق ع القرار التاريخي.. وهنصقف له.. وهتمشي اعتقالات زي كل مرة».

«ده رأيك؟»، سأله وهو ينظر إلى عينيه فخفضهما «أنا كبرت وعندي بنت مش عايز حد يلمسها، وأنت عندك فرصة. أنت لسه شريف وذكي»، ابتلع ريقه وتابع «يا أخي بلاش تمسح جوخ.. بس ما تحطش راسك في بق اللبوة وابنها.. اسأل مجرب».

«أنت شايف كده؟».

«أنا لبست في كده»، زفر بقوة وأمسك كتفيه «يابني أنا مش عايز أتعبك.. بجيب لك الزتونة زي ما صاحبتك المُترجمة بتقول».

همّ أكرم بالرد عليه إلا أن هاتفه تلقى رسالة قرأها والتفت له «عايز الزتونة يا ريس.. كل ده بلح.. أنا نازل»، ألقى عبارته وتحرّك سريعًا من أمامه، ثم عاد إليه واقترب منه ومال على أذنه قائلاً «هترفدني طبعًا»، فمال عبد الرسول عليه بنفس الطريقة «لو خلصت زي ما بقول لك يبقى أنت هتستقيل.. أو هنمشي سوا»، ربت على كتفه فابتعد ثم عاد يلتفت إليه «وهتشوف.. دول عالم وسخة مالهمش عزيز».

***

٨

«اللي شاغل عقلك» . .

انتفضت سارة في شرفة منزلها لدى سماعها عبارة أمها التي انتزعتها من عوالمها الساحرة. هبّت واقفة فسقطت الملابس التي كانت مشغولة بطيها على الأرض، وارتطمت بصينية القلل في الشرفة، التي كادت أن تقع، لولا أن أمها أسرعت وأمسكتها وهي تهتف «مالك يا بت؟»، أجابتها وهي تنحني لتلملم الملابس «خضتيني يا ماما»، قلّدتها أمها وهي تبتسم في خبث وانحنت لمساعدتها في جمع الملابس المُبعثرة «ياختي مش عارفة الجدع ده عامل لك إيه. . الله يجازيه عمك أرماني. . فتح لنا فتوحة»، نظرت سارة إلى السماء وتنهدت «يجازيه بالخير. . هو فيه زي عم أرماني. . ده أبويا اللي مخلفنيش. . زي ماما مادلين الله يرحمها».

«إخص عليكي يا بنت بطني. . بعد ما شقينا عليكي بتتنكري لنا يا بنت إسحاق العفش. أمّا بنت يهودي بصحيح»، قالتها وهي تُلقي بقطعة غسيل في وجهها مَازحة، فالتقطتها سارة قبل أن تقع على الأرض «مش عادتك تيجي تناغشيني كده. . فيه إيه؟»، أجابتها وهي تضع ما جمعته على المقعد «البت سلمى بنت الشيخ مصطفى قاعدة مستنياكي في الصالة. . غلبت أنا وهي نادي عليكي وأنتي ولا هنا».

لم تكد تسمع اسم سلمى حتى قفزت مُسرعة إلى صديقتها، تبادلتا الأحضان والثرثرة التقليدية أمام أمها وهما تعدان الشاي، ثم انسحبتا إلى غرفة سارة التي بدت عليها اللهفة وهي تُغلق الباب وتلتفت إليها قائلة «إيه. . صادق كلمك؟. . باعت لي حاجة؟. . قولي يا بت ساكتة ليه»، ابتسمت سلمى وبدا عليها الخبث وهي تقول «ياختي دا احنا لو عاملين خلية ضد الإنجليز مش هنعمل كده».

«إخلصي».

«سي صادق راح لحسن أخويا الورشة وقال له يبعتني علشان أقول لست الحُسن، اللي هي أنتي، إنه ناوي يطلع من الجامعة على عم أرماني. بيقول لك إنه عرف إن أبويا وأبو كي وعم سمعان وعم أرماني هيسهروا النهاردة. . وأنه استأذن عم أرماني إنه يقعد معاكي، وبيسألك هتيجي ولّا لأ».

«طب والنبي استني ننزل سوا. . هقول لأمي إني سهرانة عندكم النهاردة»، قالتها وهي تبدأ في تبديل ملابسها دون انتظار تأكيد من الفتاة التي ضحكت بصوت عالٍ وهي تراقبها تتأمل كل جزء من جسدها أمام المرآة «على رأي الست بديعةً. . يا محلى جمالك يا عروسة»، فرفعت سارة يديها إلى السماء وهي تقول «يسمع منك ربنا».

دقائق وكانتا تسيران في شوارع وسط البلد المُبهجة رغم الجنود المُرهقين المنتشرين حولهما؛ وكان فستان سارة الأزرق ذو الخطوط السوداء رائعًا، حتى إن عبارات الغزل انهالت عليها بلا توقف «حسن لو كان هنا كان عمل لنا يجي ميت خناقة»، قالتها سلمى وهي تنظر لها بإعجاب «بس تصدقي، اللي ما يعاكسش القمر ده يبقى معندهوش نظر»، ضربتها في كتفها برقة وهمست «اتحشمي يا بت بدل ما أقول لاخوكي»، ضحكت سلمى وقرصتها في جنبها «أوعدني يا رب بواحد حليوة يحبني كده»، ربتت سارة على كتفها وابتسمت «آمين يا حبيبتي».

وصلا أمام عمارة أرماني حيث كان ينتظرها صادق الذي لم يقاوم مظهرها وأطلق صفيرًا مُنبهرًا جعل خديها يزيدان توردًا «طيب هروّح أنا بقى علشان أمي هتقلق»، هتفت بها سلمى في خجل، فابتسم لها صادق وأشار مودعًا «سلمي لي على حسن وقولي له هعّدي أسهر معاه بالليل»، أشارت بيدها وهي تغادر بينما ظلّ صادق وسارة يتبادلان النظرات، لم يتحدثا وإنما أمسك يديها وقبّلهما ثم صعدا معًا حتى شقة أرماني الذي لم يكد يشاهدهما حتى ترك الصحيفة التي كان يقرأوها وأطلق صفيرًا خافتًا هو الآخر ليحمرّ وجه سارة تمامًا «لو كانت مادلين هنا كانت هتصمم ترِقيكي. . إيه الحلاوة دي يا بنت إسحاق العفش»، قالها وهو يُشير بالصحيفة إلى صادق وأردف «حقك يا أفندي بعد الكَلام الحلو اللي أنت كاتبه ده تستاهل تشوف القمر

ده، وأنا علشان بقالي كام يوم مش شغّال أستاهل قعدة العواجيز اللي أنا رايحها».

بدأ أرماني ينهض عن مقعده فأسرع صادق لمعاونته، ولكنه أشار إليه «مش عجوز أوي كده يا حبيبي»، وأشار لسارة مُضيفًا «بس أبو كي وسمعان هم اللي يقصّروا العُمر»، ضحكت سارة واحتضنته «ليه بس يا عم أرماني.. دا بابا بيحبك ويقول عليكم عِشرة عُمره».

«ماهو علشان كده.. أعرفهم بَقالي أربعين سنة.. كفاية كده عليهم»، غمز له صادق مبتسمًا «ندوّر لك طيب على حد يفرفشك؟»، تجاهل عبارته وفتح الباب ثم استدار إليه قبل أن يخرج «بص يابني.. مادلين خدت كل حاجة حلوة معاها وهي ماشية.. ادعي لي أروح أفرفش معاها»، صمت صادق مُحرجًا فغمز له «ما تنساش تعدّي عليا عندهم وأنت ماشي». هزّ صادق رأسه مؤمنًا بينما أغلق أرماني الباب ببطء.

سمعا وقع خطواته المعتادة وهو يهبط السلم.. وقفا دقائق يتأملان بعضهما البعض في حب ثم التقط صادق يدها وقبّلها مرة أخرى وهو يهمس «وحشتيني»، اندفعت تُعانقه فشعرت بتوتر جسده «مالك؟»، زفر بقوة مُغالبًا إحساسه بالضيق «سلامتك يا حبيبتي»، عادت تضمه لها مرة أخرى «وحياة سارة ما تشغل بالك. كله هيبقى كويس. أنا سلامتك عندي بالدنيا»، صمت وبدا شاردًا فجذبته نحوها «وبعدين طالما شايل طاجن ستك كده يا خويا، ليك مزاج تقعد مع حسن بس. أنا ما انفعش»، ابتسم وعاد ينظر إليها بإعجاب «وهو فيه حد ينفع غيرك يا روح قلبي».

اقترب منها ليُقبّلها فابتسمت بخجل وأشارت إلى شرفة أرماني المفتوحة دومًا «طب أقفل الفراندة.. الناس تشوفنا»، ألقى إليها بقبلة في الهواء واتجه إلى الشرفة، ألقى نظرة أخيرة على الميدان الذي تناثر فيه الجنود وكاد يعود لأفكاره لولا أن انتزعه صوت سارة الهامس «تعالى لأني مش عاوزة أتأخر».

***

في منتصف اليوم بدأت أعداد غفيرة في اقتحام الميدان خاصةً من ناحية ميدان عبد المنعم رياض وكوبري 6 أكتوبر ومن مدخل ميدان التحرير من شارع طلعت حرب، وألقوا الحجارة وقطع الرخام وزجاجات حارقة -المولوتوف - على المتظاهرين، وفي الوقت ذاته أطلقت الشرطة الأعيرة النارية والمطاطية والخرطوش والقنابل المسيلة للدموع على المتظاهرين، وقام بعض القناصة بإطلاق الأعيرة النارية من أعلى الأبنية المطلة على الميدان.

وبعدها هجم على الميدان مجموعة من الرجال يركبون الجياد والجمال ومعهم العصي وقطع الحديد التي حضرت معظمها من منطقة نزلة السمان واجتمعت في ميدان مصطفى محمود واتجهت إلى ميدان التحرير، واخترقوا الحواجز الحديدية التي وضعها الجيش لتأمين المتظاهرين وانهالوا ضربًا في جموع المتظاهرين، فأحدثوا بهم إصابات أدت بعضها إلى الوفاة.

تقرير لجنة تقصي الحقائق في موقعة الجمل

٩

كان وقع خطوات كمال وجميلة في شوارع وسط البلد مسموعًا عقب منتصف ليلة المعركة، بدا لهما وكأنهما يتحركان في مدينة أشباح خاوية، فبينما آوى الجميع إلى الميدان تحسبًا لهجمة أخرى من قِبل البلطجية ورجال الحزب. كانا يسيران بهدوء شبه ملتصقين وقد اختفت رأس كمال تحت ضمادة طبية كبيرة، وعلقت جميلة ذراعها الأيسر بضمادة أخرى وهما يتجهان بحثًا عن مقهى يمكن أن يفتح أبوابه في هذه الظروف.

«After Eight هتلاقيها شغّالة"، قالتها بعد أن طافا الشوارع الخالية بلا جدوى حتى اقتربا من شارع 26 يوليو، هز رأسه موافقًا في هدوء "سمعت إنهم بيقعدوا عليها.. بس طالما قررتي تشيّشي"، ابتسمت في خجل "أنت ما شفتش المشهد العبقري بتاع الرقصة في فيلم V أهو أنا بقى بعمل الـ version بتاعي. ثورة بلا شيشة لا تستحق العناء يا أستاذ"، ضحكا في مرح واتخذا وجهتهما الجديدة، استمرا في سيرهما البطيء حتى وقفت فجأة في ميدان طلعت حرب والتفتت إليه "سبتني ليه؟".

"تاني!"، هتف متعجبًا وهو يتلفت حوله قلقًا من ظهور بلطجية "شايفة إن ده وقته؟. ولّا ده الـversion بتاعك من جو النكد المصري". أشارت نافية "هو ده وقته.. افرض واحد فينا مات دلوقتي.. أبقى مُتّ وأنا مش فاهمة ولّا أقعد بقية حياتي بفكّر في الإجابة". صمت وهو ينظر إليها "طب نقعد ونتكلم، ممكن ناخد علقة في الشارع حالاً"، قالها وأشار إلى الشوارع الخالية "وكل الناس في الميدان. يعني مفيش حد هيقف معانا".

"توعدني؟".

"وحياتك عندي لو وصلنا لحد القهوة هنتكلم". أسعدها قوله فبدت أشبه بطالبة في الثانوي صارحها جارها بحبه. طوقته بذراعها السليمة حتى

وصلا إلى المقهى، اختارا ركنًا بعيدًا وإن لم يكن معزولاً وطلبا الشيشة "ها.. قول بقى" عادت تسأله وهي تجذبه من يده، أبعد عينيه عنها "عارفة، وأنا صغير كنت دايمًا بحس إني لوحدي.. مكنتش عايز من حد حاجة كبيرة.. كلمة حلوة.. نظرة اهتمام"، التمعت عيناه بالدموع وأكمل "ويا سلام لو لقيت حضن اترمي فيه. لكن اليُتم كان حياة كاملة مش مجرد إحساس".

"بس أنت كبرت".

"كبرت وفهمت ليه ربنا هيعاقب اللي يتسبب في بكاء طفل أبوه في التراب. الأب ظهر وقوة وعزوة، حاجز بينك وبين قذارة الدنيا، أول ما الحاجز ده بيقع الضهر بينكسر، والقوة بتروح، والعزوة بتنفض. يمكن علشان كده بعدت قبل ما أتجوزك. مش عاوز أكون أب، مش عايز أكسر ظهر حد". نظرت إليه والتمعت عيونها بالدموع هي الأخرى "مهما كان منطقك.. دي مش معاملة إنسانية".

"مش لما ألاقي حد يعاملني على إني إنسان الأول أبقى أعامل نفسي كده. الوقت الوحيد اللي بحس فيه إني برجع إنسان لما أسمع مزيكا تلمس قلبي، ألاقي أحلى ذكريات حياتي قدام عيني كأنها لسه موجودة.. الناس اللي حبيتهم. افتكر أول مرة مسكت إيد البنت اللي بحبها.. أول حضن حقيقي ودافي لسه حاسس بحلاوته.. نصيحة من أبويا مش ناسيها.. غلطة عايز الزمن يرجع وأصلحها.. كلمة كان نفسي أقولها لك قبل ما أنتي تبعدي.. دمعة فرح من أمي يوم ما اتخرجت.. حسرة قلبي وأنا بدفنها وبدفن معاها كل الحنان والبركة.. اعتذار ليكي حبيت أقوله ومالحقتش.. ضعف حسيت بيه واحتجت حضنك يقويني.. حاجات كتير كان نفسي أقولها وأعملها.. بس الزمن ما سبش فرصة.. وهم كمان..".

قطع حديثهما صوت مسيرة خرجت من الميدان لتلف الشوارع المحيطة تهتف بسقوط الطاغية العجوز، التفتا فشاهدت أكرم وصديقه فؤاد ضمن المسيرة، صفّرت إليهما فالتقط فؤاد الصفير رغم الضجيج فجذب صديقه واتجها إليهما. قامت لتشير إليهما ثم التفتت إلى كمال فوجدت مقعده

خاليًا . . نظرت إلى آخر الممر فرأت رجلين يجرانه نحو ميكروباص وهو يقاومهما . . صرخت وهي تجري نحوه فجرى صديقاها وراءها . شعر الرجلان بالخوف فضربه أحدهما فوق رأسه بهراوة في يده ثم قفزا إلى السيارة التي انطلقت سريعًا .

لا تذكر من بقية الموقف سوى صراخها الذي جذب الجميع ، حاول فؤاد وعامل المقهى إسعاف كمال الذي تتفجر الدماء من رأسه . وأكرم الذي عاد بأنفاس متقطعة بصحبة طبيب من المستشفى الميداني فحصه في هلع . تحولت الرؤية إلى بقعة سوداء ، حتى إنها لم تسمع الموجودين يلقنونه الشهادتين .

***

١٠

«إقرا الخبر . . إقالة اللوا نجيب . . إقالة نجيب . . إقرا الخبر» . .

سمع صادق نداء بائع الصحف وهو يرتشف قهوته في الشرفة ممتزجًا بصوت ضحكات خاله ووالديه العالية الآتية من الصالة، فانتفض سريعًا وتحرك إلى الداخل مُشيرًا إلى خاله «هو المجلس شال نجيب؟!» .

لثوان نظر له صفوت في دهشة غير مستوعب لما يقول، تجاهل صادق خاله واتجهَ نحو الراديو فأشعله وهو يُشير إليهم بالصمت بينما يرتفع صوت البيان «ونتيجة لذلك الموقف الشاذ ظل اللواء محمد نجيب يُعاني أزمة نفسية عانينا منها الكثير، رغم قيامنا جميعًا بإظهاره للعالم أجمع بمظهر الرئيس الفعلي، والقائد الحقيقي للثورة ومجلسها، مع المحافظة على كافة مظاهر تلك القيادة .

واليوم . . قرر مجلس قيادة الثورة بالإجماع قبول الاستقالة المقدمة من اللواء أركان حرب محمد نجيب من جميع الوظائف التي يشغلها . . ويستمر مجلس قيادة الثورة بقيادة البكباشي أركان حرب جمال عبد الناصر في تولي كافة سلطاته الحالية إلى أن تحقق الثورة أهم أهدافها وهو إجلاء المستعمر عن أرض الوطن . . كما تقرر حل جماعة الإخوان المسلمين، وتعيين البكباشي أركان حرب جمال عبد الناصر رئيسًا لمجلس الوزراء . .

ونعود فنكرر أن تلك الثورة ستستمر حريصة على مُثلها العليا مهما أحاطت بها من عقبات وصعاب، والله كفيل برعايتها، إنه نعم المولى ونعم النصير، والله ولي التوفيق» .

ران صمت عميق على الجميع عقب انتهاء البيان، قطعته ضحكة صفوت العالية وهو يصفق بيديه جذلاً كالأطفال «برافو يا جمال . . حط الكل في المواجهة وطلع كسبان . . حقيقي أستاذ استراتيجية»، التفت إليه

صادق الذي كان لا يزال محدقًا في الراديو محاولاً استيعاب ما سمعه «يبقى بالشكل ده إيه الفرق بينكم وبين السياسيين اللي خدتوا مكانهم وقعدت تقول لي قصائد عن فسادهم . . اللي حصل ده برضه انفراد بالسلطة بيحصل بس بشكل تاني . . انفراد بيحكمه المدافع والدبابات» ، أشار له صفوت في غضب مُحذرًا «خلي بالك يابني . . أنت بتتكلم في حاجات ماتعرفش عنها حاجة» ، عاد صادق يلتفت إلى الراديو «طب قول لي إيه اللي سمعناه دلوقتي ده . . مش جمال ده خد كل حاجة . . رياسة المجلس ورياسة الحكومة . . قول لي إيه اللي ما اعرفوش» .

«اتأدب يا ولد» قالتها أمه وهي تنظر بخوف إلى شقيقها الذي احمرّ وجهه من الغضب وهو ينهض من مقعده «أنت مش فاهم حاجة . . جمال قعد سنين يبني التنظيم . . من ساعة ما رجعنا من الحرب وهو شغّال عليه . . بنى أكبر كيان ممكن تتخيله علشان ينقذ البلد دي من الفقر والجهل والباشوات اللي قاعدين يلعبوا بيها . . كانوا فين بقى الباشوات بتوعك وكل حاجة في البلد بتقع . . اللي يراضي مولاكم ياخد الوزارة لفّة . . واللي يخسر كام ألف على ترابيزة القمار يبقى باشا . . واللي يفرط في بنته ولا مراته يبقى من الحاشية الملكية» .

ساد الصمت برهة أخرى ثم اندفع صادق في مواجهته بانفعال «وأنتم فرقتوا عنهم إيه . . بص لنفسك يا راجل الصف التاني . . بدل ركوب الترام بقى ليك عربية مخصوص وجوز عساكر مُراسلة . . شقة القبة بقت مش قد المقام ومكانها فيلا من بتوع أسرة محمد علي . . والله أعلم فيه إيه تاني . . قول لي بقى عضو المجلس اللي أنت معاه بيعمل إيه» .

«اخرس» .

قطع والده حديثه بصفعة قوية ودفعه في غضب «أنت إزاي تتكلم مع خالك كده . . دي آخرة التربية والجامعة اللي شقيت علشان أدخلك فيها . . هو ده اللي اتعلمته في الوفد وفي الجورنال بتاعك . . تعلّي صوتك على خالك . . وفي وجودي أنا وأمك» ، صمت صادق واضعًا يده مكان الصفعة بينما هدأ صفوت والتفت إلى زوج شقيقته في خبث «ليه كده بس

يا ياسين . . الولد مندفع زي أي شاب في سنه» ، أجاب بانفعال وهو يعود للجلوس في مقعده «ولد قليل الرباية . . الخال والد . . النهارده قل أدبه على خاله . . بكرة يمد إيده عليا» ، ظلّ صادق لحظات واضعًا يده على خده ناظرًا إليهما دون حديث ثم انحنى على يد أبيه وقبّلها وهو ينظر إلى صفوت شذرًا «أنا آسف» .

«صادق . . صادق يا ياسين» .

تناهى إلى مسامعهم صوت حسن ابن الشيخ مصطفى مُناديًا ، فالتفت صادق إلى والده الغاضب مستئذنًا فأشار إليه بالانصراف فأسرع إلى الشرفة مشيرًا إليه بالانتظار ، نظر إليه حسن بلا مبالاة ثم أشار إلى سيارة الجيش الواقفة أمام البيت في تساؤل ، فرد عليه بنفس الإشارة واختفى . . لحظات وكان صادق يخرج من مدخل العمارة بينما ظهر خلفه صفوت هابطًا الدرج في غطرسة ، أسرع العسكري الواقف أمام الباب يحمل عنه حقيبته ، بينما تحفز السائق وأدار المحرك وهو يُشير إلى الأطفال المتراكمين حول السيارة بالابتعاد . . وقف صادق ونظر إلى خاله طويلاً .

«مالك؟ . . نويت تصوره وتشتغل زي عمك أرماني؟» .

سأله حسن مازحًا فهز رأسه نافيًا «ياريت الصورة بتطلع حقيقة البني آدم زي ما الواحد شايفها» ، قالها وأشار إلى رأس صديقه المربوط بضمادة «الجرح ده من إيه؟» ، مسح حسن رأسه بيده بلامبالاة «منها لله بنت سمير المزيّن . . كان لازم تلبس فستان حلو . . أهو شوية شباب صفّروا لها وهي معدية قدام البيت» ، ضحك وهما يسيران «وطبعًا عملت فيها أحمد رمزي واتخانقت معاهم» ، توقف ورفع ذراعيه لأعلى «وهو أنا بقعد ساعة كل يوم على السطوح أشيل في أكواز الأسمنت على الفاضي! . . مش أحسن منك وأنت شبه عيانين الكوليرا» ، دفعه ليسير ثانية «ماشي . . بس الكلام ده مش في الشارع يا ابن شيخ الجامع» ، أشار له حسن مُحذرًا «صحيح . . مش هنعدي ناحية سليمان باشا . . عمك الشيخ رايح للشلة النهارده» .

سارا ببطء نحو ميدان الإسماعيلية حتى وصلا إلى مقهى أسترا فجلسا بالخارج وهما يُشاهدان سيارات الجيش المتدفقة في الشوارع «سمعت إنهم

شالوا نجيب. . ما تعرفش ليه؟» سأله حسن فعاد يضع يده مكان الصفعة «ولا حد هيعرف. . فاكر لما ذاكرنا ثورة فرنسا»، هز حسن كتفيه دون رد فتابع حديثه «كلهم بعد كده خلّصوا على بعض. . تقريبًا ده اللي بيحصل»، صمت وأشار إلى النادل الذي اقترب منهما «شاي وقهوة سادة» أضاف حسن وهو يشير بيده «وشيشة من فضلك».

صمت كلاهما حتى عاد النادل بالطلبات فعاد حسن يقول وهو يسحب بضع أنفاس من المبسم «وتفتكر البلد هتمشي إزاي؟. . مفيش حد من الباشوات بتوعك عارف؟»، تلفّت صادق حوله وأشار له بالصمت «انسى موضوع الباشوات ده. . الباشوات الجُداد خالي واللي زيه. . نفس التربيط اللي كان بيحصل مع القصر بقى بيحصل مع المجلس. . شوية راحوا مع نجيب ودول هنقرأ قرار إقالتهم بكرة في الجرايد وبعدها هنقرأ نعيهم؛ أما الباقي مع عبد الناصر، ودول بقى هتشوف هيعملوا إيه»، شد حسن أنفاس أخرى وابتسم «وأنت إيه. . هتفضل في الوفد ولّا هتدخل الجيش؟»، ابتسم صادق بمرارة «وأنت فاكر إن الوفد والأحزاب هتبقى موجودة. . انسى يا صاحبي. . صدر قرار بحل الأحزاب كمان. خلاص البدلة الميري خدت كل حاجة. . أنا كفاية عليا شغل الجورنال. . ده لو سابوه يشتغل».

إجابته كانت كافية ليصمت حسن ويعود للشيشة بينما ظلّ صادق يتابع المارة في الشارع لحظات ثم نهض واقفًا فجأة وأخرج نقودًا من جيبه «ابقى حاسب لي وأنت ماشي»، التفت إليه وهو يضع الشيشة جانبًا «وهو أنا جاي أقعد لوحدي. . أنت رايح فين؟»، أجابه وهو يتحرك بالفعل «هعمل بنصيحتك، هروح لفؤاد باشا. . أكيد عارف أكتر من اللي بيتقال. . ماتنساش إنه كان وزير الداخلية»، أشار له بمبسم الشيشة «يا ابن الناس مش اتفقنا النهاردة هندخل سينما؟»، لم يجبه واكتفى بإشارة النفي وهو يبتعد فعاد حسن ينظر إلى الشارع مرة أخرى وقال لنفسه «العساكر جننوه».

***

١١

استيقظ شكري في ضجر على رنين هاتفه المحمول. لم يكن قد استوعب بعد عودة الاتصالات بعد أيام من سيادة الهاتف الأرضي، قام مفزوعًا ليجد اسم صفوت. تعجّب من اتصاله من رقم عادي وليس أحد الأرقام الخفية التي يستخدمها في عمله. لم يدرِ كذلك متى تم تسجيل الرقم على هاتفه لكنه أجاب وهو يتثاءب «صحّ النومِ.. بقى أنت سِبت شغلك في الخارجية علشان تنام ولّا علشان الراجل يمشي».

«وأنت بقى سِبت الراجل وبتصحيني علشان مزاجك رايق»، قالها وهو ينظر إلى رضوى الراقدة بجواره مُستغرقة في النوم، فأجابه «نشّط حالك وسيب الكتكوتة اللي جنبك.. مستنيك بعد ساعة.. أنا في مكتبك في التحرير». قالها وأغلق الهاتف دون أن ينتظر إجابة كعادته، لم يسأله عن تفاصيل ولا عن معرفته بوجود رضوى، أو حتى كيفية دخوله مكتبه لأنه يعلم أن مع صفوت لا توجد إجابات. أسرع إلى الحمّام وخرج ليرتدي ملابسه وهو ينظر إلى فتاته في حنان. قبّل شفتيها فتأودت في غنج وواصلت نومها، ترك بعض النقود ورسالة على الكومود لتلحق به عندما تستيقظ وأغلق الباب خلفه بهدوء.

دخل المكتب فوجد صفوت جالسًا واضعًا قدميه أمامه وفي يده كوب تتصاعد منه أبخرة الشاي «أكتر حاجة بحبها فيك مواعيدك»، والتفت إليه وأكمل وهو يُشير إلى عنقه «مع إن البت شكلها خلّصت عليك يا معلم».

«بلاش أسلوب شغلك ده معايا.. خليك حلو وشغّل اسطوانة الأصحاب» قالها واتجه نحو غلاية الماء ولكن صفوت استوقفه وهو يُشير إلى المنضدة الصغيرة «شايك أهو.. صبّيته وأنت بتركن العربية»، ابتسم في خبث وأضاف «شفت بقى إني صاحبك الحبّوب. اسحب كرسي واقعد.. معنديش وقت».

تجاهل قوله وهو يأخذ الكوب ويجلس على كرسيه المُفضّل ويتناول منه سيجارة مشتعلة «طب سادة ليه؟ . . بطلتوا تجيبوا حاجة من بتوع المكافحة؟ ولّا الانفلات الأمني خلّص اللي عندكم لا سمح الله؟»، أجابه وهو يدفع المطفأة تجاهه «فيه فَرش في درج المكتب. إبقى اتكيف بيه مع مُزتك وحلويات الميدان»، نفث دخانه وتابع «أنا عايزك في كلمتين وماشي».

«ما قلنا خلينا أصحاب . . قول الكلمتين». عاد صفوت يضجع في مقعده وبدّل قدميه في استرخاء «أول الشهر ترجع مكتبك في الخارجية»، حاول شكري الحديث فعاجله «أنت استقلت علشان أنتوا عايزينه يمشي . . خلاص . . اعتبره حصل».

«إيه؟»، كان وقع المفاجأة السارّة باديًا على ملامحه، فأطلق صفوت ضحكة عالية وواصل حديثه «سيبك من إن كل الناس جابت آخرها منه ومن الواد اللي فِضل يلعب في البلد لحد ما جابت عيال وسخة ولاد حرام. كنت فاكر إننا هَنسيب عيل لابس بدلة من عند بيير كردان يُحكم. كرسي الفرعون له أصول يا صاحبي».

«قصدك إيه؟»، تجاهل سؤاله وأكمل حديثه «الكبار بيجهزوا الموضوع علشان يطلع وشكله شيك، ماتنساش إنه جنرال ومحدش يقدر يلمسه. واحمد ربنا إن الكل مشغول». عقد حاجبيه في غضب من تجاهل سؤاله لكنه ألقى سؤالاً آخر«وبعدين؟».

«أديك اتفسحت لك يومين، واتصعلكت مع شوية الصيّع اللي في الميدان»، أطفأ سيجارته وأشار إليه في حدة «لكن تقول لي مش لاعب يبقى لازم تفوق. استقالتك وكل الورق اللي يخصها اختفوا من سجلات الخارجية وبقى مكانها طلب أجازة لمدة شهرين من أول يناير . . يعني ترجع مكتبك وتكمّل شغلك». نهض من مقعده وبدا عليه الغضب «دي تعليمات معاليه. مش كده؟»، أشار له بالجلوس مرة أخرى دون أن يتحرك «أبوك لو عِرف ربع اللي أعرفه هينسف العيال اللي أنت ملموم عليهم وده هيزعلك. عَلشان كده قلت نخليها حبي. لميت الدنيا قبل ما الموضوع يوصل له»، عاد شكري للجلوس وارتشف من الشاي وهو ينظر له «طب ليه؟».

نهض صفوت بحركة تمثيلية وتحرك في أرجاء الحجرة «عارف أزمتك

معايا إيه؟ . . إنك مش قادر تصدق إني أعرف عنك أكتر من اللي تفكيرك يوصل له . . مش سحر . . ده سر اللعبة . . شايفني قدامك على طول ، بس في نفس الوقت بتلاقي كل الناس عريانة قدامي ، لا أنت فاهم بعمل كده إزاي ، ولا مصدق إن مهما كنت بالنسبة لي برضه أنت مش استثناء» .

«يعني؟» .

«صحيح أنت صاحبي الوحيد . لكن برضه المعرفة حاجة كده زي الشهوة أو الغريزة . زي الأكل ، والكيف ، والنسوان» ، غمز له وابتسم «وأكيد مش هخليها تقف علشانك» . ضحك شكري وأشار إليه ليهدأ «مش للدرجة دي ، ما تبقاش رزل» .

«مش مصدق . . طب أقولك على قرصة ودن صغيرة» . عاد يجلس مرة أخرى وأشعل سيجارة وأعطاها له وأشعل لنفسه أخرى «قول يا مولانا» . نظر له صفوت في سخرية وحاول أن تكون لهجته درامية «أخبار الشرموطة اللي بتحبها إيه» ، صمت شكري واكتفى بالنظر إليه «مالك تنّحت ليه؟ . . ما تتكسفش» .

«يعني أنت عارف مين دي؟» .

أجابه وهو يُخرج بضعة أوراق من جيبه «وأعرف عنها اللي هي لسه ناوية تحكيه لك ، وعلى فكرة . . البت غلبانة ومش هتكدب عليك علشان بتحبك» ، قالها ونهض في نشاط مفاجئ حتى الباب ثم عاد والتفت إليه «أنا ماشي . . اللي قلته لك ماتتكلمش فيه لحد ما البيان الرسمي يطلع ، أنت كمّل أجازتك وأول الشهر تكون على مكتبك . » ، فتح الباب وعاد يلتفت إليه «نصيحة يا صاحبي . . كل اللي أنت شايفه حواليك ده هيخلص على بلح ، مش برضه الواد الصحفي الصايع صاحبك بيقول كده» لم يمنحه فرصه للرد وإنما غادر سريعًا ، فيما ظلت كلمات صفوت حول رضوى تتردد في ذهنه . في الحقيقة لم يهتم إن كانت تتلاعب به أم تتعامل بجدية ، ولكنه قرر خوض التجربة .

عادت دقات الباب تقطع أفكاره ، أسرع ليفتح فوجد رضوى تندفع لحضنه بلا مقدمات ، نظر لها في دهشة مبتسمًا فأشارت إلى الخارج «أنا آسفة . بس فيه واحد شكله يخّوف كان في الأسانسير» .

***

١٢

بدا أرماني منشرحًا وهو يجلس في محل سمعان البقال يتجاذبان أطراف الحديث باتنتظار وصول بقية الأصدقاء، دار الحديث حول ما إذا كانت الثورة الوليدة تحمل الخير للشعب أم أن الوجوه فقط هي ما تبدّل، وأن الفارقٍ بين باشاوات اليوم والأمس هو فقط الرتبة العسكرية وأزرارها اللامعة بدلاً من الطربوش وبدلة التشريفة. كان الخميس الأول من الشهر، الذي يوافق موعد حفل أم كلثوم، وكان سمعان قد أدار الراديو وجلس يتمايل على أنغام الموسيقى، بينما كان أرماني كعادته يتابع الشارع «هو الرجالة غابت ليه؟»، تساءل أرماني بينما رفع سمعان كتفيه بلا معنى «إسحاق تعبان وبعت لي ابنه يبلغني أنه مش جاي، بس أكّد عليّا إنه هيسهر معانا الأسبوع الجاي، لكن الشيخ مصطفى.. ولا أعرف.. أول خميس يعملها»، نقر أرماني بأصابعه على منضدة البيع في قلق وهتف «الغايب حجته معاه.. ربنا يستر».

«إلا مفيش أمل نقنع إسحاق إنه ما يسبش البلد، الراجل بقى بيفكر في السفر أكتر ما بيفكر في رزق عياله»..

«حاولت يا أخويا وحياتك.. حاولت أقول لنفسي الراجل معذور لكن ماعرفتش. أقول له يا جدع أنت اليهود لسه عايشين في كل حتة، بس تقول إيه.. دماغه مصدّية زي الدهب الفالصو اللي كان بيشتغل فيه زمان»..

ضحكا بحزن واستعادا بعض مواقف الماضي في انتظار وصول صاحبيهما. دقائق ودخل الشيخ مصطفى بظهره المنحني ولحيته البيضاء الناصعة، لم يبد طبيعيًّا وكان التوتر يكتنف ملامحه بدلاً من ابتسامته المعهودة، وقفته المضطربة جعلته لم ينتبه لدعوة سمعان للجلوس ومشاركته إياهما الاستمتاع بالحفل، لم يبد أنه سمعه، حتى إنه مازحه بأنه قد كَبر وبدأ سمعه في الزوال. لم يُعلّق الشيخ وجلس بحرج بالغ في توتر لم يعتاداه منه

فبادره أرماني «مالك يا شيخ مصطفى؟ . . فيه حاجة؟» ، أطرق الشيخ برأسه قليلاً ثم نظر إليه «أنت مش غريب يا أرماني . . إحنا اخوات» ، صدرت منه الجملة مرتبكة فخفض عينيه واستدار إلى سمعان «بصراحة يا سمعان أنا مكسوف منك . . كنت عايز طلب ربنا وحده يعلم هو تقيل عليا أد إيه . . وعارف إنك مش هتردني» ، قام سمعان من مقعده وخفض صوت الراديو واتجه إليه واضعًا يده على كتفه وقال «إحنا اخوات يا شيخ . . أنت ناسي أيام الحسينية الثانوي ولّا إيه» ، عاد الشيخ لصمته فلكزه في كتفه مُداعبًا «قول يا راجل ما تتكسفش» ، بدا عليه التردد مرة أخرى فنظر أرماني إلى وجهه «مالك يا مصطفى؟» .

«حرام تهجر وتتجنى وتنسى كل ما جرى لي . . وأقضي العمر أتمنى يصادف يوم وتصفى لي» . .

صمت الشيخ مصطفى قليلاً وصوت السّت يتصاعد ثم عاد ليرفع رأسه ناظرًا إلى الشارع «البت الكبيرة وجوزها جايين يتعشوا معانا بكرة . . وأنت عارف الظروف . . كنت عايز شوية حاجات للبيت» ، نظر له سمعان باستغراب «وإيه المشكلة . . لما تقبض يا شيخ بقى عدّي عليا الفلوس» . .

«بصراحة مش عارف هعّديهم عليك امتى . . مفيش معايا ولا ملّيم . . أصل الحكومة بقالها شهر ونص واقفة مرتبي» ، قالها ولمح أرماني الدموع تبدأ في التساقط من عينيه وهو يكمل حديثه «كل ده علشان قلت في الخطبة إن أهل الكتاب سواء يهود ولّا مسيحيين أصحاب البلد دي زيهم زي المسلمين بالظبط . . وإن حكاية تهجير وطرد اليهود من البلد دي شغل سياسة وربنا بريء منه»؛ صمت كلاهما بينما قام سمعان يُحضّر الأصناف المُعتادة التي يطلبها الشيخ وزاد في كميتها لأنه يعلم أن صديقه لن يُكرر طلبه ، وأدار أرماني عينيه بعيدًا عن الشيخ الذي انهمرت دموعه وبدأ جسده في الارتجاف مع كلماته «الشيطان كان بيوزّني لأجل الحاجة إني أمد إيدي على صندوق التبرعات بتاع المسجد . . لكن قلت لنفسي سمعان يستحملني وإحنا اخوات بدل ما أغضب ربنا» ، مع نهاية كلماته كان سمعان قد وضع العديد من أكياس البضائع على رف البيع وعاد إلى مقعده قائلاً «صلي ع النبي يا شيخ

واقعد اسمع معانا الست . . أنت بلسانك قلتها . . إحنا اخوات . . وبنتك هي بنتي وما ارضاش لك شكل وِحش قدام جوزها . . عِشرة العمر مش بالساهل يا مصطفى . . ولّا إيه»؛ انَهمرت دموع الشيخ ولَم يستطع أرماني أن يتحمل ما سمعه فبدأت عيناه تدمعان هو الآخر وهو يقول «يقطعوا عيشك علشان قلت كلام يرضي ربنا . . منهم لله» ، نهض سمعان واحتضن صديقه الذي لم يستطع السيطرة على دموعه «ربنا يسترها معاك يا صاحبي . . الحمد لله إنهم ماروكش في السجن زي ما عملوا مع ناس تانية» .

«حكيت لك عن سبب نوحي ونار الوجد في دموعي . . وبان للناس ضنا روحي وتعذيبي وتلويعي» . .

«وناوي تعمل إيه يا مصطفى؟» ، سأله أرماني فرفع كفّيه في انعدام حيلة «والله يا أرماني ما اعرف . أنا كبرت إني أدوّر على شغل ، وطول عمري في خدمة ربنا من أيام ما كنت بخدم في المسجد لحد ما بقيت شيخ الجامع . لو عليّا أنا وأم حسن لقمة بجبنة تسد جوعنا ، لكن المشكلة في البت سلمى اللي لسّه ما جالهاش ابن الحلال ، لا هعرف أساعدها ولا أجوزها زي ما عملت مع أختها . . ربنا يحلّها من عنده» . .

«وحسن؟ . . ما أهو بقى راجل طول بعرض» .

«إيدك منه والقبر . الواد لسّه تلميذ بيتعلم وعايز اللي يصرف عليه ، دا غير موضوع السينما اللي واكل دماغه ده . . الواد عايز يطلع مشخصاتي» ، ضحك سمعان وربت على كتفه «وهو أنت علشان شيخ هتحرّم لنا الحاجات دي ولّا إيه» ، هزّ رأسه نافيًا وابتسم «يا راجل بلا قِلة قيمة . . هو فيه أحسن من الوظيفة» . .

«على رأيك . . اقعد بقى نكّمل حفلة السّت بدل شوية الغّم اللي دخلت علينا بيهم والموضوع مكنش مستاهل» ، قام الشيخ واحتضنه بقوة «ربنا يخليكم ليّا وأقدّر أرد جمايلكم» ، رفع سمعان إصبعه مُحذّرًا «ما تخلنيش أزهق عليك يا راجل أنت . . قال جمايل . . الراجل كِبر وخرّف يا أرماني» . ضحك أرماني واحتضنه بدوره «بقى بيشخّص زي ابَنه» ، ضحك الشيخ وحمل الأكياس وأشار لهما «معلش بقى لازم أروح لأم حسن . أنتم

عرفتم الظروف» ، أومأ كلاهما برأسه متفهما فتحرك إلى باب المحل ثُم عاد يلتفت إليهما «الله يسترك يا سمعان» . .

«ما تروح تشوف بيتك يا راجل بقى ما تخلنيش أزعل بجد» ، غادر الشيخ ونظر كلاهما للآخر دون حديث ، تابعه أرماني ببصره وهو يغادر المحل وعاد يُفكر في المصير الذي تتجه إليه البلاد التي يأمر قادتها بتجويع رجل لمجرد أنه تحدث بما يؤمن به ، شعر في تلك اللحظة أنه يُريد أن يكتب خطابًا جديدًا لمادلين يحكي فيه عمّا أصاب صديقه . قرن قوله بالفعل ونهض في مواجهة سمعان المُعترض «وأنت رايح فين أنت كمان . إيه! . . الليلة اتفركشت» ، احتضن أرماني صديقه وهمس «المرة الجاية نقعد كلنا ، وتبقى القعدة رايقة» ، أشاح بيده غاضبًا وأشار للراديو «خلاص يا عم ، ربنا يروّق بالكم ، هسمع الست لوحدي» . لم يُجبه أرماني واكتفى بأن أشار له مودعًا . عاد سمعان ليجلس على مقعده ورفع صوت المذياع ليغمر صوت أم كلثوم المكان . .

«بقى العازول يدوق كاسي وقلبك يا ضنين قاسي . . ولمّا أشكي تخاصمني . . وتغضب لمّا أقول لك . . يا ظالمني» .

***

«أيها المواطنون.. في ظل الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد.. قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية.. وكلّف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد.. والله الموفق والمستعان».

بيان نائب رئيس الجمهورية – 11 فبراير 2011

«أكّد المجلس الأعلى للقوات المسلحة في بيان له على صفحته الرسمية على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك، انحيازه التام لإرادة الشعب المصري، مُشيرًا إلى أن الشباب هم العامل الأساسي في القيام بثورة 25 يناير، وأن دورهم لا غنى عنه في المرحلة المقبلة» . .

ارتفع صوت التلفاز في المقهى في الوقت الذي زفر أكرم في ضيق وهو يُلقي الصحف على المنضدة «طب طالما مش عاجبك الكلام . . قافش الجورنال من ساعة ما قعدنا ع القهوة ليه» سأله فؤاد مبتسمًا، فأجابه وهو ينظر إلى مسيرة شباب قادمة من ميدان طلعت حرب تردد هتافات «الجيش والشعب إيد واحدة» وحاملين أعلام مصر «ياسيدي أدينا بنشوف . . كلها دلوقتي بتطلع بيانات . . وكل الناس مُحللين سياسة وبتفتي»، قهقه فؤاد وهو ينظر إلى فتاة تمر من أمامهما ترتدي ملابس مُثيرة «فاكر لما كُنا نقول يسقط حسني مبارك تلاقي الناس في الشارع بتجري وهم بيقولوا شوفوا ولاد المجنونة اللي رايحين يودوا نفسهم في داهية»، أكمل أكرم مُبتسمًا «وهوب تلاقي الأمن المركزي يطوّق ورجالة أمن الدولة تخش تقفّش في البنات وتعمل معانا السليمة»، صمت لحظات استعاد فيها تلك الذكريات «كانت أيام يا صاحبي . . دلوقتي كل الناس كانت بايتة في الميدان من يوم 25 يناير . . وكلها أبطال موقعة الجمل» .

«على فكرة . . فرح كلمتني النهاردة . . لقيت تليفونك مقفول وكانت هتموت وتطمن عليك . . افتكرتهم قطعوا الاتصالات تاني»، قطع فؤاد أفكاره بهذه العبارة، فأشار إليه وعاد يلتقط الصحيفة «طيب» .

«أنت ماكلمتهاش من إمتى؟»، سأله فأجاب بلا مُبالاة «يوم التنحي» . نظر إليه في دهشة «يا جدع خلي عندك دم . . واحدة زي دي كان زمانها

نفضت لك وفضلت قاعدة مع أمها ونسيت البلد دي باللي فيها» .

«مش هي اللي جريت على أمها في فرنسا» .

«مش أبوها اللي غصب عليها» ، قالها محاولاً تقليده بسخرية ، فأشاح بيده واكتفى بعبارة واحدة «هبقى أفتح التليفون وأكلمها»؛ قالها وقام من مقعده . أخرج حافظته وألقى بحساب المقهى في حجر فؤاد الذي قال مُندهشًا «ما اتفقناش على كده . . مش هنسهر سوا النهاردة؟» ، أجابه وهو يتحرك «عندي شغل . . هخلصه وأدي لك تليفون» ، لاحقه بصوته الجهوري وهو يسير «طب إيه . . يابا والعة معاكم . . أي كلمتين في رغيف اليومين دول بفلوس . . أوعدنا يا رب» .

تجاهله ومضى في طريقه . . كانت فرح بالنسبة له أزمة لا تنتهي ، بداية من علاقتهما الغريبة التي بدأت بحمايتها من التحرش في إحدى المظاهرات ضد التوريث . ومفاجأتها إياه بأن والدها واحد من الكبار رغم حماسها الشديد ضد النظام ورجاله ، الذي فسّرته بأنها تربّت وسطهم وتعرفهم جيدًا ، إضافة رغبتها الشديدة في مشاركته حياة الصعلكة . كل هذا شكّل له ارتباكا لازمه ، وازداد عندما أجبرها والدها للذهاب إلى أمها مع اندلاع الأحداث .

لم يكن يكذب على فؤاد عندما قال إن لديه بعض الأعمال ، لكن شعوره بأنه يفقد السيطرة على نفسه دفعه لإلغاء ارتباطات اليوم ، تحرك مُسرعًا نحو مقهى بعيد يرتاده كلما أراد الجلوس وحيدًا ، هناك طلب الشاي كالمعتاد ، وأخرج بضعة أوراق بيضاء وكأنه يستعد لعمل مهم ، رغم يقينه بأنه لن يخط حرفًا . . بعد كوب الشاي العاشر وعلبة السجائر«السوبر» الثالثة شعر بأن رأسه قد اقترب من الانفجار بالفعل ، قام سريعًا ولملم أوراقه وخرج إلى الشارع .

في الوقت نفسه كانت مريم تواجه قدرها اليومي بعد الخروج من العمل منذ تلفت سيارتها خلال الأحداث . رواية جديدة . . أغاني Under Ground . . صاعق . . نظارة شمسية . . وسائلها الدفاعية في مواجهة ركاب ومتحرشي المترو الذين لا ينفكون عن مضايقتها . كانت علامة "M" الشهيرة أعلى سلم المحطات هي رمز الضوضاء والصخب والفوضى

في نظرها، ولكنه في الوقت ذاته كان وسيلتها الوحيدة للوصول سريعًا إلى وسط البلد. تحركت سريعًا للخارج بعد أن عَلمت أن الشباب ينوون التجمع مرة أخرى لدخول الميدان، كانت الدعواتَ المختلفة تنتشر بسرعة البرق على مواقع التواصل تحصد الالآف من المشاركين.

"هيعمل إيه كام ألف وسط كام مليون؟"، همست لنفسها وهي تقترب من هدفها. اقتربت من الميدان الذي امتلأت الشوارع المحيطة به بالمئات من المجانين كما تراهم اشتراكيين يحملون أعلام الثورة الحمراء. ليبراليين ينادون بوصول المرأة للرئاسة. أطفال شوارع يستجدون المارة. مسجّلين ينتشرون للتحرش بالجيش والشرطة لتجديد الاشتباكات. ملتحين واقفين على الدوام كالتائهين دون أن يبدو لهم رأي واضح.

فجأة أمطرت السماء قنابل مسيّلة للدموع، سادت الفوضى الشوارع في لحظة.. الكل يجري في جميع الاتجاهات وسط الصرخات والبحث عن مكان آمن. لم تدرِ كيف تعثرت قدمها وسقطت على الأرض، ضاعت صرختها وسط صرخاَت العشرات، حاولت النهوض ولكن شيئًا ما سقط على رأسها بقوة، كانت إحدى القنابل قد ارتطمت بها وسقطت جوارها. لم تدرِ إذا كانت هذه السخونة من القنبلة أم من الدماء التي أغرقتها.

كَان الدوار قد سيطر عليها. قرأت ذات مرة أن الموتى يرون حياتهم كشريط سينمائي. هي الأخرى ازدحمت الوجوه والأفكار في مخيلتها.. أمها التي قضت طفولتها ومراهقتها في انتظار حضنها المفقود في أندية الروتاري.. عظة الأربعاء وصورة مع البابا.. لجان شعبية.. أبوها الذي يحيا بجنون الاَرتياب.. قيئ.. مظاهرات على سلم نقابة الصحفيين.. سيارتها.. غثيان.. رأفت وعرض الزواج القديم.. سائق الميكروباص اللزج.. تحرش.. رصاصات.. دموع.. قِس الاعتراف.. قُبلة السينما الوحيدة.. عُصيّ الأمن المركزي.. دوّار..

اختلط لهاثها برجفة صغيرة لا تدري لم جاءت الآن، ممتزجة بصداع يُغطي عينيها بينما رائحة الغاز تخنقها أكثرَ، كان الظلام يزداد كثافة. شعرت بشيء ما يسيل من أنفها، لم تُبالِ إن كان دمًا أم مخاطًا. بآخر

خيوط الرؤية لمحت جنود الشرطة العسكرية يقتربون منها ، لم تتحرك وإنما حاولت رفع رأسها المائل ، أمسك بها جنديان من قدميها وبدآ في جرها نحو المدرعة . . لم تصرخ . . كانت ترغب في إنهاء ما يحدث لها ولو كانت النهاية درامية .

***

١٣

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . السلام عليكم ورحمة الله". .

فرغ الشيخ مصطفى من إمامة المُصلّين في صلاة العشاء ونهض يتمتم مُستغفرًا ربه حتى وصل إلى باب المسجد، أحكم لف كوَفيته الصوفية الثقيلة وارتدى خُفّيه. . لمح وهو يخرج من المسجد دورية عسكرية تمر فأشاح بوجهه "فأغشيناهم فهم لا يُبصِرون"، قالها وسار في بطء باتجاه منزله القريب وهو يتبادل السلام مع المُصلين بينما الهواجس تعتصره مع ذكريات الأيام الماضية. الأوقاف ترفض أن تصرف مرتبه للشهر الثالث على التوالي، ولولا مساعدات سمعان وأرماني، وكل منهما يساعده دون علم الآخر، لكان الآن يتسوّل لقمة العيش لأولاده.

أعاد إحكام الكوفية وصورة سلمى ابنته تحتل ناظريه. هي الأخرى كبرت وتقترب من العمر الذي توشك فيه على الزواج بينما حاله ينتقل إلى الأسوأ ولا يجد ما يستطيع تجهيزها به، وابنه الوحيد يتنقل في السهرات مع أصدقائه وبين استوديوهات التمثيل بحثًا عن فرصة حتى لم يعد يُقيم في منزله إلا قليلاً. وجاءت الطامة الكبرى كانت بالقبض على ابن شقيقته بعد تورطه ضمن التنظيم الخاص لجماعة الإخوان المسلمين. تذكر اليوم الذي اقتحم فيه البوليس الحربي بيته بحثًا عن الشاب. قلبوا كل شيء حتى غرفة الغسيل على السطح ثم اصطحبوه معهم حيث قابله ضابط التحقيق الذي عامله بغرور وغطرسة لا مبرر لهما، وأنفق ساعات من الاستجواب الفارغ حول مكان تواجد الشاب الذي أقسم له مرارًا طوال تلك الساعات أنه انقطعت أخباره عنه منذ حرب فلسطين عندما سافر ضمن شباب المتطوعين "يمكن ظباط الحركة يعرفوا مكانه، مش هم كانوا معاه في الحرب"، كانت إجابته

كفيلة بأن يقضي عدة ساعات إضافية فيٍ مقرهم بلا جدوى حتى عاد إلى ذلك الضابط السخيف الذي لم يره قبلاً. كان الجميع يُعاملونه بما يُشبه التقديس وهم ينادونه "صفوت بيه"، وقتها التفت إلى الجندي المرافق له وتساءل ساخرًا عمّا إذا كانت الألقاب عادت من جديد، أجابه الجندي بضربة على كتفه من كعب بندقيته الثقيلة لا يزال أثرها موجودًا على جسده، ثم عاد به إلى الضابط الجديد مرة أخرى.

"شوف يا شيخ.. أنت راجل كبير وتعرف ربنا.. مش عايزك تتبهدل معانا"، قالها له صفوت في بداية حديثه وكأنه يتملقه ثُم أضاف "من مصلحتك ومصلحة البلد كلها أنك تتعاون معانا، وإلا"، لم يُكمل حديثه لكن أصوات الصراخ التي تأتي من الغرف المجاورة كانت كافية ليفهم تهديده.. هكذا قضى ساعات سوداء لا يذكر من دوامتها الكثير..

أسئلة.. إجابات..

"احنا في عصر جديد، ولازم نعرف مين معانا ومين علينا، وأنت عارف كلام ربنا، وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم"، قالها وأضاف بابتسامة ساخرة "وأظنك سامع كويس اللي مش بيطيع أولي الأمر بيحصل لهم إيه"..

أسئلة.. إجابات..

التنقل بين غرفة وأخرى مع تكرار مُمل لنفس الخطبة التي ألقاها عليه صفوت وتحوي من الخواء ما لا تحويه من المعاني..

أسئلة.. إجابات..

الصور التي تم عرضها عليه ولا يعرف منها سوى ابن شقيقته..

أسئلة.. إجابات..

أصوات صراخ وكأن هناك من قام بتسجيل أصوات المُعذّبين في سقر..

أسئلة.. إجابات..

الوعد بأنهمٍ سيعودون إليه مرة أخرى كل فترة.. والحديث عن الثورة والمخاطر التي تحيطها، مع تكرار التهديد بإبعاده عن وظيفته في المسجد

"ويارتني أعرف أعمل حاجة تانية غير خدمة الجامع"، قالها لنفسه مُتحسرًا على حاله وهو يُزيد من إحكام الكوفية على رقبته، غاص في أفكاره فلم يعد يدري إن كانت ارتجافة جسده من البرد أم من المستقبل المُظلم الذي يواجهه.

اقترب من منزله فوجد سيارة الدورية العسكرية التي شاهدها تقف أمام المدخل وحولها بعض الجنود، كرر الآية التي ذكرها عندما مرّوا به أمام المسجد، استعاذ بالله من الشيطان ثُم اقترب منهم. "ممنوع يا حاج"، قالها الجندي الواقف أمام الباب وهو يُشهر سلاحه فأشار الشيخ إلى الباب "ممنوع أنتم.. ده بيت ناس والبيوت ليها حُرمة.. أوعى يابني خليني أدخل بيتي"، لم يتزحزح الجندي وإنما وجّه فوهة سلاحه إليه "قلنا لك ممنوع.. إحنا بنفتش.. هي دي الأوامر".

"أنت ما بتفهمش يا راجل أنت.. مش قال لك ممنوع".

أتاه الصوت من خلفه فاستدار ليجد يوزباشي شابًا يقف متحفزًا، رفع يده بالسلام فتجاهله وهو يُكمل "مش كفاية سايبين شُغلنا وجايين نحميكم.. كمان هتقرفونا.. خليك على جنب لحد ما نخلّص شُغلنا"، لم يتزحزح الشيخ مصطفى هو الآخر ونظر إلى اليوزباشي بتحد "أنتم اللي وجودكم وسطنا مش صح.. مكانك يابني في القشلاق مش هنا.. هو أنتم شغلكم أنكم تمنعوني أدخل بيتي.. ده في حكم مين ده؟".

"أحكام عُرفية.. تحب تشوفها؟"، قالها الضابط وهو يُقرن القول بالفعل ويشير إلى الجنود الذين أحاط اثنان منهما بالشيخ وأمسكا بذراعيه، فعلا صوته مُستنجدًا بالجيران "هتحبسوني علشان عايز أدخل بيتي، أهو يا ناس.. اشهدوا.. العساكر جايين ينتهكوا حُرمات البيوت في عز الفجر.. حسبي الله ونِعم الوكيل". مع صراخه انفتحت شرفة منزله وبرزت منها سلمى التي ما إن شاهدت أبيها بين يدي الجنود حتى بدأت تصرخ "إلحقونا يا خلق.. العساكر عايزة تاخد أبويا.. هيقبضوا على شيخ الجامع إلحقونا يا ناس".

بدأ المارة العائدون من صلاة الفجر في التجمع وانفتحت الشرفات

والنوافذ في المنازل المُحيطة، ما أشعر الضابط الشاب بالتوتر فأخرج سلاحه وأشهره في وجه الجميع "كل واحد يدخل بيته. . واللي في الشارع يروح يشوف مصالحه. . الراجل ده مقبوض عليه بأوامر من مجلس قيادة الثورة، واللي هيقف معاه هقبض عليه زيه".

لم يكد البعض يسمع اسم المجلس حتى أصابهم الذعر وبدأوا في الابتعاد، وأسرع الجيران في غلق نوافذهم وشرفاتهم في حسرة، ليجد الشيخ مصطفى نفسه وحيدًا مع الجنود في الشارع مرة أخرى، عدا سلمى التي وقفت في الشرفة تصرخ "سايبين الشيخ لوحده ورايحين تستخبوا"، شعر الرجل أنهم قد يؤذون ابنته فرفع رأسه إليها وزعق "خشي جوة يا بنت. . كفاية فضايح"، والتفت إلى الضابط رافعًا رأسه "لو البلد هتتحكم كده يابني يبقى أنا أول واحد لازم يخش السجن. أصلي مش هوطي راسي لحد. واللي فوق دول ليهم ربنا. . زي ما خلقهم هيرزقهم"، قالها وتحرك نحو السيارة العسكرية رافعًا رأسه لأعلى. ألقى نظرة أخيرة على سلمى التي انهمرت دموعها في صمت امتثالاً لأوامره، همهم ببعض الأدعية ثم دخل مؤخرة السيارة في طريقه نحو المجهول.

***

١٤

"أخيرًا" . .

قالها سعيد لنفسه وهو ينزل من قطار الإسكندرية متجهًا لمنزله، بعد أن هدأت الاحتكاكات بين رفاقه والنظام العسكري الانتقالي، عقب أسبوع من الفض والقصف بقنابل الغاز وإطلاق النار في كل اتجاه، ما جعله يعتقد وقتها أنه في حرب.

"الثورة دي حرب علشان الحُرّية".

لم ينسَ هذه الكلمات التي قالها له والده الراحل في ذكرى اعتقاله في سبتمبر 1981 مع من غضب عليهم السادات في آخر أيام حياته. بالفعل كان العجوز مُحقًا، وإلا ماذا يمكن أن يُطلق على هذه الأحداث التي اغتالت مئات الشباب وأرسلت أضعافهم إلى السجون المدنية والعسكرية "مش كنت طوّلت شوية كنت شفت اليومين دول يا حاج"، همس بها أمام قبر والده الذي كان أول ما ذهب إليه في مدينته. صمت لحظات ليستجمع شتات نفسه ثم خرج من المقابر ليستوقف سيارة أجرة إلى منزله، اقترب من أحد السائقين وسأله "لوران يا أسطى".

"يلعن أبو دي شُغلانة"، هكذا رد السائق وهو يبتعد مُسرعًا؛ لم ييأس وأشار إلى سيارة أخرى "لوران يا حاج"، نظر إليه السائق العجوز هو الآخر وهتف "إيه الخرة ده. . ما تشوفوا حاجة تعملوها"، مع أدخنة العادم التي غمرته قرر أن يحاول للمرة الأخيرة، أشار إلى سيارة يبدو عليها القدم وقرر تغيير وجهته "سان ستيفانو يا أسطى؟".

"اركب".

أسرع يضع حقيبته الصغيرة وجلس بجوار السائق لاهثًا، اعتدل وأشعل سيجارته وسأل السائق وهو يُعطيه سيجارة وتساءل "هي لوران بقت شتيمة ولّا إيه؟. . فيه اتنين سواقين قبلك كانوا هيسبّوا لي"، أجابه دون أن ينظر إليه "تلاقيهم فاكرينك رايح المظاهرة. . أصل فيه كمان شوية

وقفة للعيال بتوع الثورة هنا"، ربت على حقيبته الصغيرة وأشار إلى الحقيبة الأخرى "بالشنطة دي؟"، أشعل السائق سيجارته وقال بلا مبالاة "يمكن فيها الوجبات".

الجملة الأخيرة كانت كافية ليعرف طريقة تفكير السائق ويقرر تجنب المناقشة، أدار وجهه للنافذة واستمر في مشاهدة الشارع، لم تتغير الإسكندرية كثيرًا منذ غادرها قبل الثورة. فقط تلك الرسوم الجديدة على الجدران. كان الزحام كثيفًا بسبب المدرعات المنتشرة بكثافة على الكورنيش وكأن المدينة تواجه غزوًا بحريًا، دار بذهنه أن يتحدث مع السائق الصامت لتزجية الوقت. لكن ملامح الرجل جعلته يُفضّل الصمت حتى وصل إلى وجهته.

لم ينسَ أن يمر على الحلاق العجوز الذي كان يضع قطعة خشب على المقعد وهو يقوم بقصٍ شعره في طفولته. رآه لا يزال جالسًا في مكانه القديم مع تلفزيون صغير بدلاً من الكاسيت، لم يدرِ لم قرر فجأة التخلي عن شعره الطويل بعد أعوام من الابتعاد عن الحلاقة، اقترَب منه فحياه الرجل، تعجّب من حدة ذاكرته رغم مرور السنين، ولكن الرجل حسم حيرته بجملة واحدة "أبوكَ الله يرحمه كان راجل سُكرة ما يتنسيش" قالها وأشار له ليجلس على المقعد الذي طالما تألم بسببه في طفولته. أزيز الماكينة كان يُغطي على صوت ذاكرته حتى انتبه إلى صوت الرجل وهو يشهق "شعر أبيض"، قالها ونسي دهشته بعد ثوان ليعود الأزيز. استمر الرجل في عمله وهو يقول "على فكرة أنت مش أولً زبون.. بعد ما مبارك مشي، أكتر من نص الشباب اللي بيحلقوا عندي بقوا بيلاقوا شعر أبيض، مش عارف ليه. بس واضح إن الأيام الأخيرة دي خدت من عمركم كتير.. ربنا يستر يابني".

أنهى حلاقته سريعًا وسرعان ما كان في منزله، بحث عن عمّته فوجدها تركت له رسالة غاضبة تخبره بأنها لدى شقيقتها حتى يعود إلى صوابه ويمتنع عن النزول للقاهرة "الله يسامحك يا عمتي. فاكرة الحدوتة هناك بس". قرر الاتصال بها بعد أن يستمتع بحمّام منعش. استمتع بالمياه المنهمرة على جسده حتى ارتوى، ثم التفت باحثًا عن المنشفة فارتطمت عيناه بالطبق البلاستيكي القديم الذي كانت أمه تُفضل جمع الغسيل فيه.. رآها فجأة تجلس نفس جلستها القديمة وتنادي عليه "يا سعيد.. سيب الزفت الأتاري

وقوم هات هدوم المدرسة علشان أغسلها".

لم يدر كم من الوقت ظل موضعه حتى انتبه ليّجد دمعة قد سالت منه، فالتقطت المَنشفة سريعًا وخرج يرتدي ملابسه، فكر أن يتحدث إلى عمته مرة أخرى إلا أنه يعلم أنها أغلقت بابها مؤقتًا، تجاهل الفكرة وسرعان ما صعد إلى السطح. مكانه الأثير منذ بدأ شاربه في النمو وتعلّم التدخين، رغم طوفان الأفكار حول الثورة والعمل والمستقبل الذي دار في رأسه فإنه يُحب وقفته على السطح، هناك كان يرى بعين خياله كل شيء؛ ذكرياته.. أشباحه الخاصة.. حبيبته السابقة التي تحيا سعيدة مع زوجها الجديد.. أمه الغضبة.. لعبته المكسورة.. صديقه الذي لفظ أنفاسه في التحرير.. أباه الحالم بأفضل لم يأت.. دموع الطفولة التي لا تزال تمزقه.. ابتسامة الظفر يوم رحيل الطاغية. ابتسم موقنًا بأنه رغم كل هذا لا يعتبر نفسه خاسرًا. تعلم من كل هذا ما أبقاه حيًّا حتى وقف هنا يستعرض ذكرياته، ذلك وحده كافيًا ليشعر بأنه رغم كل شيء لا يزال موجودًا.

طالت وقفته وهو ينظر إلى السماء. المرآة العاكسة التي يرى فيها كل شئ، في الوقت الذي شعر فعلاً أنه لم يجلس وحيدًا منذ بدأت أحداث الثورة، والتي قبلها كان يحيا كملايين الشباب. كانت الأيام يائسة، والصدمة أسلوب حياة. هكذا قالوا له وما رآه. كانت أمه ومن يُشبهها يؤكدون أن هذا ما ينبغي أن يتذكره ويعلمه لأولاده، أن يحيا فقط دون الحلم بالحق في شيء آخر. اللعبة التي رغب فيها وعجز أبوه عن شرائها.. المدرسة الفاخرة التي كان يمر من أمامها وهو يذهب لمدرسته الحكومية البائسة.. الكلية التي رغب فيها ولم يساعده مكتب التنسيق.. الفتاة التي أحبها وتزوجت بأول "جاهز" طرق الباب.. أبوه مات بسبب الفقر.. العمل الذي أراده ولكنه بلا واسطة.. حبه الحقيقي التي عجز عن الاقتراب منها حتى ملت من ظروفه.

فجأة شعر بالاختناق فعاد إلى شقته وأشعل التلفاز. فوجئ باشتباكات تجري في الميدان فانتفض "أنا مكاني هناك"، همس بها لنفسه وهو يهبط الدرجات باتجاه المحطة.

***

تم تأسيس محكمة الشعب – التي عُرفت باسم محكمة الثورة في 1 نوفمبر 1954 بعد أربعة أيام من حادث المنشية الذي حاول فيه الإخوان المسلمون اغتيال جمال عبد الناصر – برئاسة قائد جناح جمال مصطفى سالم، وعضوية القائمقام أنور السادات – عضو يمين – والبكباشي حسين الشافعي – عضو يسار – وتختص بالأفعال التي تعتبر خيانة للوطن أو ضد سلامته أو ضد نظام الحكم أو الأسس التي قامت عليها الثورة، وجاءت المادة الخامسة بقانون إنشائها "ولا يجوز تأجيل القضية أكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد عن 48 ساعة للضرورة القصوى"، كذلك نصّت المادة السابعة على أن "أحكام هذه المحكمة نهائية ولا تقبل الطعن بأي طريقة من الطرق وأمام أي جهة من الجهات".

الأهرام – 2 نوفمبر 1954

"أما رئيس المحكمة جمال سالم فقد كان تصرفه أقرب إلى تصرف المدعي العام؛ كان يقاطع دون تحرج إجابات الشهود إذا لم تعجبه وكان يضع الكلمات في أفواههم فيتقول عليهم ما لم يقولوه، وكان أحيانًا يستعمل التهديد ليفرض عليهم الإجابة التي يريدها".

ريتشارد ميتشل في كتابه "الإخوان المسلمون" – مكتبة مدبولي 1977

١٥

استيقظت سلمى فزعًا على صوت طرقات عنيفة تكاد تخلع باب المنزل، فنهضت سريعًا من غرفتها وهي تنظر إلى أمها المُستلقية على فراشها بعد أن أصاب جسدها الشلل، التي فتحت عينيها هي الأخرى وحاولت أن ترفع يدها لتُشير إلى الباب "خير يا ماما إن شاء الله"، قالتها وأسرعت تضع شالاً على كتفيها وهرعت إلى الباب الذي تحطم قبل أن تبلغه واندفع منه عدد من الجنود انتشروا بداخل المنزل بوحشية، ودفعها أحدهم لتسقط في أحد الأركان لتسقط بقسوة غير مُبال بصرختها التي ارتفعت تشق ما كان سكونًا منذ دقائق، فيما أسرع آخر وقيدها بيديه وهي تُشاهد رفاقه يندفعون إلى غرفتها التي تقبع بها أمها العاجزة، فرفعت من صرختها اليائسة بينما بدأ الجنود في تحطيم الأثاث غير مُبالين بحثًا عن شيء لا تعرفه.

"فين حسن؟".

سألها الضابط المرافق للجنود وهو يجذب شعرها لتنظر إليه فحاولت تحريك رأسها وهي تصرخ "ماما.. دي مشلولة"، لم يُبال الضابط بصرختها وكرر سؤاله بصوت أعلى وهو يُزيد من جذبته "أخوكَي فين؟"؛ بدأت دموعها في التساقط فهزت رأسها نافية معرفتها وهي تُشاهد جنديًّا يحمل والدتها ويُلقيها على الأريكة مؤديًا التحية "مش موجود سعادتك".

تكررت الجملة مع التحية العسكرية من كل الجنود، عدا أحدهم الذي خرج من غرفة حسن وفي يده مجموعة من الكتب "لقيت الكتب دي يا فندم"، ترك الضابط شعر سلمى والتقط الكتب وعيناه تلمعان وهو يتفحص عناوينها "الله ينور.. هو ده اللي عاوزينه"، ألقى الكتب للجندي واتجه إلى الأم المريضة وهو ينظر إلى سلمى التي انهارت في البكاء "هاتوهم".

"ثابت".

انطلقت الجملة فتجمد الموقف وساد الصمت الذي قطعته خطوات صفوت الواثقة وهو يدخل الشقة. ألقى نظرة لا مُبالية على الأم طريحة الأريكة والتفت إلى الضابط الذي أدّى التحية بقوة "تمام يا فندم.. ضبطنا كتب للإخوان لكن المتهم مش موجود"، هزّ صفوت رأسه بنفس الهدوء والتفت إلى سلمى "أخوكي فين يا حلوة؟"، ازداد بكاؤها الصامت وهي تُحرّك رأسها بالنفي وتنظر إلى الأرض، فابتسم "ما هو أنا لو مش هوصل لحسن هاخدكم معايا.. خسارة ماما تتمرمط في السجن الحربي.. دا حتى يبقى عيب.. دا احنا معرفة"، رفعت رأسها إليه في دهشة، فهز رأسه والتفت إلى الضابط "رجّعوا الست على سريرها.. عيب دي ست كبيرة"، أشار الضابط إلى رجاله لتنفيذ الأمر، فأشار بيده وهو يتفرس بعينيه في جسد سلمى "واستنوني برة شوية.. عايز الحلوة في كلمتين".

مع خروج آخر جندي جلس صفوت على الأريكة واضعًا ساقًا فوق الأخرى وأشار إليها بالجلوس "أنتي مش فاكراني.. أنا خال صادق"؛ مع ذكر صادق شعرت سلمى بشيء من الاطمئنان فجلستٍ وهي تحاول السيطرة على دموعها، أشعل سيجارته ونفث دخانه تاركًا إياها تُفرغ انفعالاتها ثم عاد لحديثه "اسمعيني.. أنا أوصل لحسن أفضل له قبل ما حد تاني يوصل له.. ع الأقل أضمن لك إن محدش يبهدله.. القضية كبيرة وأوامر القبض والاعتقال من عبد الناصر نفسه"؛ ارتجفت لدى سماع الاسم الذي كاد البعض يغتال صاحبه منذ أيام "طيب وحسن ماله ومال البكباشي عبد الناصر.. احنا ناس غلابة.. مش كفاية أبويا اللي لحد دلوقتي في المعتقل ومش عارفين عنه حاجة"، عادت تنخرط في البكاء وهي تنحني فالتقطت عينا صفوت صدرها البض ولمعتا بوحشية "واحدة واحدة وأنا أحل لك كل مشاكلك.. ما يهونش عليا إن الحلوين يعيّطوا"، قالها وأشار لها لتجلس بجواره "تعالي جنبي نتكلم".

جلست سلمى رغم دهشتها بجواره وبدأت تشعر بالريبة من نظراته، فابتسم وعيناه تضيقان "الأول.. حسن فين؟"، صمتت لحظات، فعاد يحثها وهو يقترب منها "في كل الأحوال هيجي صدقيني.. دي شغلتي من

سنين"، ارتجف جسدها فابتعدت قليلاً "يعني هتخلي بالك منه"، ابتسم وهو يومئ برأسه إيجابًا، فهمست وهي تنظر للأرض "عندكم.. بايت مع صادق من يومين"، صمت وعقله الثعلبي يدور لحظات للتأكد من حديثها "متأكدة؟"، هزّت رأسها إيجابًا "دا أنا حتى لسه كنت عندكم امبارح"؛ عاد يبتسم ونهض وهو يُشير لها بالبقاء "لحظات وراجع لك"؛ قالها وأسرع بخطواته الواثقة إلى الضابط المُنتظِر خارج الشقة "تاخد القوة اللي معاك وتسيب هنا عربية واحدة.. تحاصر العمارة اللي هدي لك عنوانها.. مش عايز حد يدخل أو يخرج.. تحط عساكر على كل شقة وعلى الأسطح لحد ما آجي لك".

ألقى إليه العنوان وعاد إلى سلمى التي غلبها انفعالها فمددت ساقيها وكادت عيناها تغرقان في النوم.. توقف على الباب وعيناه تفترسان ساقي الفتاة.. شعر بفوران عنيف في جسده فهمس دون وعي "حلو جدًّا"، انتفضت سلمى مع نبرة صوته فأسرعت تُغطي ساقيها وقد أدركت مقصده "عايز إيه؟"، ظّل واقفًا موضعه ولمعت عيناه بخبث "بُصي يا حلوة.. أخوكي تحت إيدي خلاص.. أبوكي أصلاً عندي.. وأمك ربنا يدي لها الصحة.. مُمكن أريحها لو عايز"، قالها ووضع يده على مسدسه "أو.. ممكن أنتي كمان تدخلي السجن فوق البيعة، ساعتها أمك هتموت من الإهمال.. يرضيكي؟".

"أنت بتقول إيه؟"، صاحت وبدأ جسدها في الارتجاف بعنف، بينما اقترب منها بخطوات بطيئة وهي تنكمش في موضعها "زي ما بقول لك.. أنا اللي في إيدي الأمر.. في لحظة أبوكي وأخوكي يرجعوا لحضنك، ويمكن كمان ربنا يشفي الوالدة من فرحتها برجوع الاتنين.. ده لو عايزة".

ازداد انكماشها مع اقترابه حتى تمنّت أن تبتلعها الأريكة وهو يُتابع حديثه وأنفاسه المليئة بالدخان تخترق صدرها "لو مش عايزة برضه هعمل اللي عايزه.. وهتفضلي تترحمي على الكل.. حسن والشيخ وماما.. مش بس كده، ده أنا كمان هسيبك عايشة علشان تفتكري غباوتك واللي كنتي السبب فيه. هتموتي في اليوم ألف مرة. صدقيني.. جربتها مع ناس

تانية قبل كده".

"أنت مجنون. . أنا هشتكيك لرؤسائك".

"تفتكري فيه حد يصدق واحدة أبوها معتقل لأنه من أعداء الثورة وأخوها مشترك في محاولة اغتيال عبد الناصر؟. . اعقلي يا حلوة".

"هو ده العقل؟. . أسلم لك نفسي؟".

"أو استلمها بمعرفتي. . طالما في الحالتين يبقى خليها بجميلة منك. . حاجة تروح ويعيش مكانها أرواح اللي بتحبيهم. . بدل ما تَروح وتروح معاها كل حاجة. ومين عارف. يمكن تفضلي معايا شوية"، قالها وابتسامته تتسع فانكمشت بموضعها أكثر "ده شرفي".

"ده تمن صغير قدام أرواح اللي بتحبيهم. . أنا اديت لك كل الاختيارات"، قالها وأخرج سلاحه وأشار به إلى الغرفة التي وضع فيها رجاله أمها "وممكن تشوفي عيّنة بعينك. . دلوقتي ماما معانا. . بعد ثانية مش معانا". . صمتت سلمى وأطرقت برأسها في ذُل دون أن تستطيع الإجابة؛ انتفض جسدها وهو يجذب مشط المسدس ويتركه ليرتد بصوت مخيف. كانت موافقتها تعني أن تتحول لعاهرته، بينما الرفض يساوي أرواح عائلتها. بدأت دموعها تنهمر في صمت، بينما أعاد صفوت سلاحه إلى غمده وجلس على الأريكة مرة أخرى وهو يُشعل سيجارة جديدة صامتًا.

ساعة أخرى وكانت البناية التي يسكن فيها صادق تهتز من كعوب الجنود وهم يؤدون التحية العسكرية لصفوت الذي دخل المنزل في خيلاء وأخته تُسرع له في غضب «هي حصّلت ياخويا العساكر يدخلوا البيت»، تجاهل قولها وهو يتجه نحو غرفة صادق فصاح زوجها وهو يضم ابنه الصغير فاروق «هي دي الأصول يا صفوت؟»، توقف ونظر إليهما بقسوة ألجمتهما وأشعل سيجارته «البركة في البيه اللي مخلفينه. . مخّبي واحد كان عايز يقتل عبد الناصر»، تجمّد الأب في مكانه وأطلقت شقيقته صرخة مكتومة وهو يفتح باب غرفة صادق الذي نهض وحسن سريعًا «خير يا خالي؟».

أشار صفوت إلى رجاله الذين أسرعوا وأحاطوا بصديقه «وهيجي الخير منين يا فالح، إحمد ربنا إن أنا اللي نفّذت اعتقال الولد ده. . بدل

ما كان حصل لأمك زيه»؛ نظر له كلاهما بتساؤل غاضب فنفث دخانه في وجهيهما «أمك الله يرحمها ما استحملتش الخبر . . يلّا . . ربنا رحمها من الشلل» . دمعت عينا صادق واضطربت أنفاس حسن وهو يحاول السيطرة على انفعاله حتى لا يبكي أمام صفوت الذي مال على أذنه «وأختك طعمها حلو أوي . . عجبتني ع الآخر . . بس يا خسارة ، رمت نفسها من البلكونة بعد ما خلّصنا . الله يرحمها هي كمان» .

مع آخر حروفه رفع حسن يده مُمسكًا برقبته محاولاً قتله ، أسرع الجنود وكبّلوه وهم ينهالون عليه بكعوب بنادقهم حتى خارت قواه ، حاول أن يرفع رأسه نحو صفوت الذي ركله بحذائه العسكري في وجهه «مش هقتلك علشان ساعتها هكون برحمك . . ولا تسوى رصاصة ميري» بصق عليه وأكمل «خليك عايش الكام يوم اللي فاضلين لك بحسرتك على اللي قلتهولك» ، حاول صادق التدخل فأمسك به الجنود والتفت صفوت إليه «أنت حسابك معايا بعدين . . لو أبوك مش هيربيك أنا هعرف أعمل ده» . قالها وعادت ملامحه إلى الجمود التقليدي وهو يُشير إلى جنوده «خدوه» .

ظل حسن يحاول المقاومة والضربات تنهال عليه حتى وضعوه في السيارة العسكرية ، نظر لأعلى فوجد صادق واقفًا مع أبيه وشقيقه ودموعه تنهمر في صمت . لم يدرك متى وضعوا غمامة على عينيه وعادوا إلى ضربه . فقط كانت صورة أمه وسلمى الدامعتين هي ما احتل كيانه .

***

قال نشطاء إنه تم الاعتداء عليهم وضربهم داخل المتحف المصري، وقالوا إنه تم احتجاز حوالي 17 فتاة وأكثر من 500 شاب ممن أُلقي القبض عليهم، وتم القبض على بعض الناشطات السيدات واقتيدن إلى منطقة عسكرية تسمى س 28 وإجراء كشوف العذرية عليهن بحسب رواية إحداهن.

وقد قامت إحداهن برفع دعوى انتهاك ضد المجلس العسكري في القضية الشهيرة بـ«كشف العذرية»، وأوضحت أنها نجحت في إقناع عدد من الفتيات اللاتي قالت إنهن تعرضن لكشوف العذرية بالتقدم للمحكمة والشهادة، إلا أنها رفضت الإفصاح عن هويتهن أو عددهن خوفًا من تعرضهن للتهديد.

وكالات أنباء

قالت منظمة العفو الدولية «أمنستي»، إن المجلس الأعلى للقوات المسلحة في مصر، الذي يحكم مصر حاليًا، قد أقر بإجراء اختبارات عذرية على متظاهرات، في أول اعتراف علني بذلك.

وقالت المنظمة إن اللواء أركان حرب عبد الفتاح السيسي، رئيس الاستخبارات العسكرية، وعضو المجلس الأعلى، قد برر إجراء هذه الاختبارات كوسيلة لحماية الجيش من الاتهام بالاغتصاب.

واللواء السيسي هو أول مسئول عسكري مصري يقر علنًا بوجود هذه الممارسة، التي كان ضباط آخرون رفضوا كشف أسمائهم أقروا بوجودها، مقدمين التبرير ذاته لممارستها.

بي بي سي – 27 يونيو 2011

١٦

«يا بابا أنا تمام . . والله مش هناك . . أنا لسّه في البيت . . عارف . . وعارف إن أنت اللي حطتني في اللجنة دي علشان أفضل مشغول . . دبلوماسية شعبية مين، دول بلح . . ماليش دعوة . . حاضر يا معالي الوزير . . أعمل إيه طيب، ما أنت بتديني تعليمات يبقى أتكلم رسمي، ونقول حاضر وأوامر معاليك . . سلّم لي على ماما . . هخلص وأعدي عليك . . سلام».

ألقى شكري هاتفه على المقعد القريب وهو يهمس في غضب «هو ده عيبه» قالها وأخذ يتلفت باحثًا عن ملابسه حتى وجدها «صحيت بدري كده ليه؟»، فاجأه صوت رضوى فاتجه إلى السرير طابعًا قُبلة على وجنتها «صباح الخير . . صوتي ضايقك . مش كده؟»، تمطت وهي تحتضنه «بموت في صوتك . . بس أنت كنت بتتخانق مش بتتكلم يا حبيبي»، احتضنها وهو يلتقط ساعته ومفاتيحه من على الكومود «هو كلامي مع أبويا كده على طول . . فاكرني واحد من مساعدينه».

«أنت أبوك وزير بصحيح؟»، سألته وهي تنهض وتُحكِم الملاءة حول جسدها مبتسمة «مش بالظبط» أجابها وهو يرتدي ثيابه على عجل «تقدري تقولي وزير بس من غير وزارة زي اللي بتشوفيهم . . لما أبقى رايق هبقى أحكي لك»، أومأت برأسها موافقة «إيه . . هتنزل؟!» قالتها مصطنعة الغضب بينما تُرخي الملاءة عن جسدها في محاولة لإبقائه . عاد إليها واحتضنها، لفّت قدميها حوله لتتشبث به، حملها وأعادها إلى السرير «لازم أكون في الخارجية بعد ربع ساعة . . فيه شغل مهم».

ظلت مكانها وهي تنظر إليه «أنت ليه مش بتحكي لي على شغلك؟»؛ كان قد أتم ارتداء ثيابه وانحنى باحثًا عن الحذاء «دوّري معايا على الفردة

اليمين . . أهي . . يا حبيبتي السياسة دي بلوة من بلاوي الزمن . . تخيلي بقى لما تبقى أكل عيشك . . وبعدين مستعجلة على إيه؟ . . ناوية تسيبيني ولّا حاجة؟» .

«على رقبتي» ، قالتها وهي تتعلق بعنقه «طيب أنا نازلة أشوف الناس في الميدان شوية» ، تحرك خارج الغرفة «تمام . . معلش مش هلحق أوصلك ، خدي تاكسي وسلّمي لي على اللي تشوفيه . . هخلص وأكلمك» .

ظلّت دقائق في موضعها تبحث ببصرها عن هاتفها المحمول حتى وجدته ، لم تكد تفتح شاشته حتى انتابها إحساس غريب . ألقته وأسرعت إلى الحمّام لتستمتع برذاذ المياه يغمر أفكارها .

رغم وجودها وسط الأحداث من بدايتها لم تكن تعلم فائدتها وسط هؤلاء الشباب المنتشرين في الميدان ، لم تكن طبيبة لتعمل في المستشفى الميداني ، ولا ثرية تستطيع دعمهم بالأغذية ، ولا حتى مثقفة تستطيع أن تنصهر في حلقات النقاش ، بنفس القدر كان اندماجها معهم وحماسهم لتواجدها يعني لها الكثير بعد حياة مليئة بمن لفظوها . بداية بأمها وزوجها الغبي وانتهاء بصديقتها التي دعتها للعمل في الدعارة .

تنهدت والماء ينساب على جسدها لتشعر بالانتعاش ، كانت تشعر بالراحة في الميدان لأن الجميع يهتم بها ، تراهم يفعلون كل شيء بإرادتهم وبلا تعقيد أو قيود أو حتى مُسميات فارغة ، والأهم أنهم جميعًا يحافظون عليها بلا أطماع . هناك استمتعت بمعرفة الحلم . جربت العائلة التي اختارتها وليس من وجدت نفسها وسطهم ، حقًا لا تعلم الكثير عن المسميات والسياسة ، لكن كلمة «ثورة» التي رأتها وسط الشباب كانت تشمل كل ما عانته في عمرها الصغير .

خرجت من الحمّام وقد زال عنها التوتر . ارتدت ملابسها البسيطة ونظرت إلى الحائط لتجد صورة شكري المُعلقة على الحائط . ابتسمت . . في الميدان أيضًا قابلته . كان واقفًا وسط مجموعة من الشباب الذين تعرفت عليهم يوم الجمعة التي انهارت فيها القبضة الحديدية للنظام ، أعجبها حديثه وإن لم تفهم معظم عباراته . مالت على جميلة التي عرفتها صباح اليوم نفسه

عندما اختبأتا في مقهى بعيدًا عن الرصاص تسألها عنه فابتسمت وأخبرتها بأنها لا تعرف عنه الكثير، وأخبرتها أنها يمكنها الحديث إليه دون وساطات «البلد كلها قاعدة هنا بتتعرف على بعض . . ما تخافيش»، قالت ذلك وأمسكت يدها وهي تضع الأخرى على كتف شكري.

حانت منها التفاتة إلى باب الحمام الذي كان أول ما وقع عليه بصرها في هذا المنزل بعد أن دعاها للاغتسال وتناول العشاء مع بعض الأصدقاء. أدهشتها بساطته في التعامل واهتمامه بها كأنهما صديقان منذ زمن، حتى إن جميلة غمزت لصديقها أكرم الذي علّق بأن الرجل دبلوماسي «وبيعرف يعامل الناس الحلوة»، أغضبها تعليقه قليلاً وإن ابتسمت، ظلت معهم حتى أذان الفجر فبدأوا في الرحيل واحدًا تلو الآخر. تذكرت دهشتها مرة أخرى عندما طلب منها البقاء معه فترة أطول «مش هضايقك صدقيني»، وقتها لم تدرِ لماذا لم تشعر سوى بالأمان.

«اشمعنى أنا؟».

سألته بعد ليلتهما الأولى، ابتسم وضمها إليه في هدوء «ليكي في الحشيش؟»، أجابته ضاحكة «هو ده ردك؟»، اعتدل ويفتح درج الكومود وأخرج طبقًا وقطعة كبيرة «أكيد لأ . . بس هجاوبك واحنا بنشرب سيجارتين. دي عادتي». تعجبت من سرعته في لف السجائر «تقريبًا مفيش حد في البلد مالوش فيه . . هتستغربي لو قلت لك إن أبويا رغم كل مشاغله هو اللي علمني اللف»، التقطت سيجارة وأشعلتها «برضه ما ردتش عليا»، التقط السيجارة من يدها وأخذ بضعة أنفاس» أوقات كتير رغم كرهك للبشر والزحمة من حواليك بتكون برضه مش عايز تقعد لوحدك . . تحس ساعتها إنك عايز بني آدم تفصيل . . يسمعك، ولو رد عليك ردوده ما تضايقش . . يبص لك، فيقول لك على حاجة عايز تسمعها . . فجأة تلاقيه قايم يحضنك ويطبطب عليك، من غير كلمة، ومن غير ما تقول له إنك محتاج ده . . لما تسمع منه كلام بيكون اللي أنت عايزه، مش مهم صح ولا غلط، مش مشكلة الكلام ده حقيقي ولا لأ . . بالظبط زي البنت اللي بتكون ماشية في الشارع وفجأة تلاقي واحد وقف قدامها واداها وردة

ومشي من غير حتى ما يقول كلمة. . والأهم إنها عارفة إن عمرها ما هتشوفه تاني».

«زيك كده؟».

«يمكن».

«بس أنت ما ادتنيش وردة. . أنت إدتني حاجات كتير أوي كنت محتاجاها»، احتضنته وأضافت «كل ده جالي فجأة. . صدفة مكنتش في بالي ولا في بالك»، ربت على رأسها «ومين قال إن الحاجة الحلوة لازم تكون بتخطيط. . الصدفة بتصنع التاريخ مش بس حياة الناس. . صدفة إن أبويا راجل مهم خلتني أنا كمان في مكان مهم. صدفة إن كل اللي أنتي شايفاه حواليكي بيحصل وإن النظام يتهد. صدفة إننا نتقابل». اعتدلت واحتضنته من ظهره «وصدفة أنك تطلب مني نقعد سوا».

«إلا ده. . أنتي عجبتيني من ساعة ما جميلة عرفتني عليكي، حسيت بحاجة ما حصلتش من زمان. . كان لازم أعرفك أكتر. . كان فيه سؤال جوايا ظهر أول ما شفتك وكان لازم أعرف إجابته».

«وعرفتها؟».

«وغرقت فيها» قالها وغابا في قبلة طويلة. أفاقت فوجدته ينظر لعينيها «بصي يا رضوى. . أنا مش عايز أقول كلام الأفلام العربي. . بس من غير تزويق أنا عايزك معايا على طول. . تقبلي؟». أربكها السؤال، لم تعتقد أن هذه الليلة مقدمة لعلاقة طويلة «بس أنت ما تعرفش عني حاجة؟»، رد عليها وهو يُشعل السيجارة الثانية «ولا أنتي تعرفي عني حاجة. . أنا لو عايز أعرف هعرف من يوم ما اتولدتي. . بس أنا عايز البنت اللي قدامي دلوقت»، نفث دخان سيجارته وابتسم «لو أنتي عايزة حاجة تانية قولي. . لازم تفهمي إني استحالة أضايقك أو أخليكي معايا غصب عنك. . ولا أعمل حاجة تضرك».

«وحياة أبوك»، قالتها وهي تتشبث به وتُقبّل عنقه، انفجر ضاحكًا وضمها إليه «سيبك من أبويا خالص وافتكري حاجة تانية. . أوعدك. . ده اللي أقدر أقوله».

قطع ذكرياتها رنين الهاتف المحمول، نظرت في الشاشة فوجدت صورة شكري، أسرعت بالإجابة معتقدة أنه نسي شيئًا «لو نسيت حاجة أنا لسه مانزلتش».

«ما تنزليش الميدان.. اطلعي على جميلة واقعدي هناك.. شوية وهتلاقي الشباب جايين»، قالها بصوت غاضب ربما لم تسمعه من قبل فارتبكت «فيه إيه.. أنا عملت حاجة؟».

«وافتحي التلفزيون قبل ما تنزلي.. الشوارع خربانة.. يلّا.. الناس بتتطحن في الشارع».

***

«كان كُل ضابط من ضباط القيادة يُريد أن يكون قويًّا.. فأصبح لكُل منهم شلة.. كانت هذه الشلة غالبًا من المُنافقين الذين لم يلعبوا دورًا، لا في التحضير للثورة ولا القيام بها.. والمنافق دائمًا مثل العسل على قلب صاحب النفوذ.

لذلك فهو يحُبه ويقرّبه، ويتخلص بسببه من المُخلصين الحقيقيين الذين راحوا وراء الشمس، لأن إخلاصهم كان همًّا وحجرًا ثقيلاً على قلوب الضُباط من أصحاب الجلالة.. تعددت الشلل داخل الجيش وحول ضباط القيادة، وبدأ الصراع بين هذه الشلل، وتحول إلى قتال يومي شرس.. وظهرت مراكز القوى».

مذكرات الرئيس محمد نجيب

١٧

ظل أرماني يتقلّب في فراشه طويلاً . .

كانت الليلة هي ذكرى وفاة مادلين . لم ينسَ يومها عندما كان مُنهمكًا في تصوير الملك في قصر القبة ، كان الديوان قد ترك له رقم هاتف يُمكن لمادلين الاتصال به ، فوجئ برئيس الديوان نفسه وقد دخل القاعة ليُقاطع جلسة التصوير ، وهمس في أذن الملك ببضع كلمات تغيّرت بعدها ملامحه . نظر له بتعاطف وقال لرئيس ديوانه شيئًا ، ثم اقترب منه ووضع يده على كتفه «آسف يا أرماني . . فيه خبر وِحش جالك على تليفون السرايا . . votre femme était morte il ya quelques instants“ ، صمت أرماني وهو لا يُصدق فتابع الملك ”فيه بنت اسمها سارة إسحاق اتصلت . . أنا أمرت بعربية ملكية تنقلك على البيت فورًا . . شد حيلك“ .

يومها ظل أرماني على صمته حتى وصل إلى المنزل . وجد سارة الباكية بجوار مادلين التي ترتدي أجمل ثيابها راقدة على السرير . نظر إليها فوجدها تبدو وكأنها مُستمتعة بنوم عميق ، جلس بجوارها وقد بدأت دموعه في التساقط في صمت ، التفت إلى سارة فرفعت عينيها إليه ”جيت لها الصبح زي ما كُنا متعودين . . كانت لابسة وجاهزة علشان كنا رايحين شملا . . كانت عايزة تشتري لك هدية قالت إنها عجبتك مرة“ ، وأخرجت من حقيبة بجوارها زجاجة عطر ”هي دي . . أول ما رجعنا دخلت البلكونة أعمل لها قهوة ، نادت عليا وقالت إنها دايخة شوية وهتدخل تغير هدومها . . خلّصت القهوة وناديت عليها ماردتش . . دخلت لقيتها زي ما أنت شايف“ .

أنهت روايتها وانخرطت في بُكاء عنيف ، بينما قام بحركته البطيئة حتى وصل إليها . ربت على كتفها واحتضنها مُهدئًا ”هي دلوقتي راحت عالم أفضل ، حد يا بنتي يزعل لما حبيبه يبقى في مكان أحسن“ ، نظرت

لعينيه الدامعتين وهو يُتابع "صحيح هي ضحكت عليا ومشيت لوحدها مش زي ما اتفقنا . . بس معلش . . رسول الرب خدها وسابني . . يمكن علشان أخطائي كتير ومايِنفعش أصعد مع ملاك زيها"، قامت سارة وهي تُقبّل يده "ربنا يخليك ليا يا عم أرماني . . هي أمي اللي ماخلفتنيش . . وأنت أبويا . . يعني كنت عايزني أتيتّم من الاتنين"، عاد يحتضنها وقبّل رأسها "يلّا . . عندنا ترتيبات كتير تليق بالملاك ده، روحي نادي على أبو كي وسيبيني مع حبيبتي شوية. قولي له لازم يجي يساعدني علشان مولانا نفسه هيحضر القُدّاس. أنا عندي كلمتين معاها قبل ما تسيبني للملكوت".

انتظر حتى سمع صوت باب الشقة وهو يُغلق، عاد يجلس بجوار مادلين الراقدة وأمسك يدها ودموعه تتساقط مرة أخرى "عارف أنك زعلتي مني علشان ماعرفتش آخدك عند مولانا . . بس غصب عني . . أنتي عارفة إنه مايحبش ناس كتير تكون موجودة وهو بيتصور . . على فكرة طلبت منه كده ورفض بشياكة"، مسح بعض دموعه وقبّل يدها "طب أنتي عارفة إن النهاردة كنت ناوي آخدك ونروح التياترو نشوف شكوكو وثُريا حلمي . . طب بُصي"، أخرج من جيبه تذكرتين ولوّح بهما أمام وجهها "كنت حاجز تذكرتين في ترابيزات الصف الأولاني . . قولي لي بقى مين هيروح معايا".

قطع ذكرياته صوت رنين الهاتف، مال نحو المنبه ونظر في الساعة فوجدها تقترب من السابعة صباحًا. تساءل عن الذي يُريده في هذا الوقت المُبكر، قام من فراشه ببطء مُتجهًا نحو الهاتف الذي استمر في الرنين حتى التقطه "صباح الخير . . أرماني"، أجابه صوت رتيب ونشط رغم الوقت المُبكر "مسيو أرماني . . معاك الصاغ صفوت . . من مكتب البكباشي صبري نجم"، تعجب من طريقة التفخيم التي نطق بها الاسم ولكنه سأل في هدوء "مين البكباشي صبري نجم؟"، لمح رنة ساخرة وسط الصوت الرتيب "عضو مجلس قيادة الثورة . . جرى إيه يا خواجة . . أنت مش متابع وعارف مين اللي بيحكم البلد ولّا إيه"، استفزته كلمة "خواجة" أكثر من طريقة مُحدّثه، فكّر في إغلاق الهاتف في وجهه، إلا أنه عاد وأجاب بهدوء "خير يا أستاذ صفوت"، تجاهل صفوت عدم مُناداته برتبته

العسكرية وتابع حديثه "النهاردة سيادة البكباشي جاي يتصور عندك. . أعتقد الساعة خمسة مُناسب".

"وده يخليك تتصل بيا الساعة سبعة الصُبح؟"، عاد صفوت يتجاهل سؤاله وأكمل وكأنه اسطوانة مُسجّلة "ياريت تكون جاهز يا خواجة أرماني".

"حضرتك ما جاوبتنيش".

"خمسة بالدقيقة. . ماتنساش"، أغلق صفوت الهاتف وبقى أرماني ثواني يستمع إلى الصوت الرتيب الذي يعقُب إنهاء المُكالمة، ضايقه ذلك الأسلوب الذي تحدث به الصاغ المغرور "خواجة. . دا أنا عِشت هنا أكتر من اللي عاشه هو والبكباشي بتاعه في الدنيا كلها".

حاول تجاهل الأمر وسار بخطواته البطيئة نحو الشُرفة، جلس أمام عُدة القهوة وبدأ يصنع قهوته الصباحية وهو ينظر إلى الميدان الذي بدأ يستأنف النشاط اليومي، كانت حركة الناس البسيطة ونظراتهم المُستريبة إلى الجنود الذين يعبرون من حين لآخر وصاروا حدثًا يوميًا في الشوارع دفعته لأن يُشيح بوجهه لينظر إلى صورة مادلين الموجودة على الحائط.

أثارت المُكالمة في ذهنه عشرات الأحداث منذ حركة الضباط وسيطرتهم على الحُكم، وحديثه مع صادق حول سيطرة العسكريين على البلاد. تذّكر كذلك الضابط المتغطرس الذي جاء الاستديو، وما حدث لعائلة الشيخ مصطفى. أثّر ضيقه مما حدث على أدائه اليومي، فارتكب لأول مرة بضعة أخطاء أثناء العمل، ما أثار دهشة بعض زبائنه ممن اعتادوا على دقته، حتى إن أحدهم ابتسم في شفقة وعرض عليه أن يؤجل التصوير لليوم التالي، ولكن عناد أرماني جعله يرفض، بل واحتد على الرجل مُطالبًا إياه بالصمت حتى لا يفقد تركيزه.

مع اقتراب دقات الساعة من الخامسة كان أرماني قد أنهى عمله المعتاد، جلس في أحد مقاعد الاستقبال المواجهة للباب في تحفز وكأنه سيقوم بطرد البكباشي فور وصوله، جال في ذهنه مُعاملة عبد الناصر الراقية له، فهدّأ نفسه بأن ما حدث قد يكون تجاوزًا من هذا الـ صفوت، وأن عضو المجلس القادم

إليه قد يُشبه رئيسه في المُعاملة، ولكن في تمام الخامسة فوجئ بعدد من الجنود يقتحمون المكان شاهرين أسلحتهم يتبعهم شخص قوي البنيان يرتدي البدلة العسكرية وعلى كتفيه رتبة صاغ، تقدّم في بطء وهو يجول بعينيه في المكان "إزيك يا خواجة"، قالها فانتفض أرماني وبدأ في صب غضبه "اسمع يابني.. الطريقة دي في منتهى قِلة الذوق.. أنتوا مش داخلين تقبضوا عليا.. وأنا مش خواجة.. أنا عشت في مصر أكتر من عيشتك فيها"، ابتسم الرجل في سخرية وجلس على أحد المقاعد واضعًا ساقًا فوق الأخرى "طب مش نتعرف الأول.. أنا صفوت اللي كلمتك في التليفون".

"وده سبب أكبر إني أقول لك إنك بتتعامل بدون أي نوع من الاحترام.. لا احترمت إني راجل في سن أبوك.. ولا احترمت المكان اللي أنت داخله.. أنا مُمكن أطردك حالاً أنت والبكباشي بتاعك"؛ تجاهل صفوت قوله، وأشار إلى نفسه "إحنا كمان معرفة بس أنت مش واخد بالك.. أنا خال صادق"، زاد قوله من حدة أرماني الذي تذكّر ما سمعه عن الرجل فعلا صوته أكثر "ابن أختك متربي أحسن منك.. شاب راقي.. لكن الظاهر إن البدلة اللي أنت لابسها خلتك فاكر إنك تقدر تتحكم في الناس"، شعر صفوت بأن العجوز سيتمادى في إهانته أمام جنوده فأشار له بالهدوء "وطّي صوتك يا.. يا سيد أرماني.. سيادة البكباشي جاي حالاً"، تجاهله واستمر في غضبه "وأنت هتخوفني أنت والبكباشي بتاعك.. دا أنا أطلع من هنا على عبد الناصر على طول".

"ماله جمال؟".

قطع حديثهما صوت هادئ، فالتفت إليه أرماني بنفس الغضب بينما نهض صفوت سريعًا في احترام للقادم الجديد "مفيش يا فندم.. هو الخواجة بس مُنفعل شوية"، تجاهل أرماني قول صفوت واتجه نحو صبري بنفس الغضب "أنا هروح له علشان يعرف يتصرف مع الكلاب اللي سايبها طايحة في البلد"، تجاهل صبري العبارة الغاضبة ووضع يده على كتف أرماني "إهدى بس يا خواجة.. قول لي فيه إيه"، نفض أرماني يده "الخواجة ده اللي جاي شوية وماشي.. إنما دي بلدي.. عشت فيها عمري.. حبيت

واتجوزت فيها . . مراتي اندفنت فيها . . يجي شوية عيال زيكم بعد العُمر ده كله يقولوا لي خواجة . . دا أنتم اللي خواجات" .

صمت صفوت، وبدا على صبري الغضب وهو يقول "وأنتم اللي مصّيتم خيرها واحنا رجّعناه لأهلها . . أنت نسيت نفسك ولّا إيه يا كلب السرايا . . دا أنت بتليفون كنت بتجري على قصر عابدين"، دفعه أرماني بغضب "ولما أنتم شايفني كده جيت تتصور عندي ليه يا فلاح يابتاع الثورة . . مش برضه علشان تتباهى وسط الفلاحين اللي زيك إنك اتصورت عند مصوّر الملك . . والشرف ده مش هتاخده . . يلّا . . كلكم اطلعوا بره . . مش هصّور حد" .

مع دفعه لرئيسهم رفع الجنود أسلحتهم نحو أرماني وسحب أحدهم أجزاء سلاحه استعدادًا لإطلاق النار، ولكن صبري أشار إليهم بخفض أسلحتهم، وقف صامتًا لثوان وصفوت ينظر إليه مُترقبًا، إلا أنه ابتسم ابتسامة صفراء "صح . . احناً فلاحين . . ودي أرضنا . . ومن النهاردة أنت مالكش مكان فيها"، قالها وتجاهله والتفت إلى صفوت الذي شد قامته مُنتظرًا الأمر "دلوقتي يطلع قرار بترحيل الخواجة خارج البلاد لأنه من أعداء الثورة . . مايستنناش فيها"، ابتسم صفوت في شماته بينما عاد رئيسه يلتفت للعجوز "وما تفتكرش أنك هتلحق توصل لجمال علشان يحميك . . دي أوامري . . بُكرة الصبح تكون على ضهر أي مركب ترميك في أي داهية . . وإلا . ."، لم يهتم بإكمال عبارته وإنما بصق على الأرض وخرج من الاستديو يتبعه جنوده، وبقى صفوت الذي نظر إليه في تشفٍ "سلام يا . . خواجة . . رحلة سعيدة" .

وقف أرماني لدقائق في موضعه دون أن يستوعب ما قاله البكباشي من ترحيله خارج البلاد . . أغلق بابه وبدأ يتحرك في الشقة . . ظل يتحسس الجدران وقطع الأثاث . . أمسك الهاتف وحاول الاتصال برقم عبد الناصر دون جدوى . . انتظر حتى جاء صادق وأخبره ما حدث فانتفض "خالي! . . للدرجة دي بقى عبد للبدلة الميري؟!"، أمسك أرماني دموعه بصعوبة "عايزني أسيب بلدي . . شفت رايحين بينا لفين يابني"، صمت صادق طويلاً وهو يُفكر ثم نهض واقفًا "مش هيحصل يا عم أرماني . . قوم

بينا نطلع على مجلس القيادة ونحاول نقابل جمال عبد الناصر" .

قرن صادق قوله بالفعل وهو يشد يده لينهض، استند أرماني عليه وسارا حتى وصلا إلى المبنى المُطل على النيل، رفض الحارس السماح لهما بالدخول مؤكدًا أن أعضاء المجلس جميعًا ليسوا بالمبنى "والله يا أستاذ مفيش حد منهم . . فوت عليهم الصبح والظابط اللي موجود يبقى يشوف حكايتك . . لكن أنا عبد المأمور" .

في الصباح التالي فوجئ المارة في ميدان سليمان باشا بقافلة عسكرية تُغلق الطريق، وعشرات الجنود يحتلون طوابق البناية التي يسكن فيها أرماني، دقائق ووصل صفوت الذي صعد الدرج في غطرسة حتى وصل إلى باب الشقة فأشار إلى أحد جنوده الذي أطلق رصاصة على الرتاج ودفع الباب بقدمه، دخل صفوت وخلفه جنوده الذين انتشروا في أرجاء الشقة .

"هنا سيادتك" ، قالها الجندي الذي اقتحم غرفة النوم، دخل صفوت فوجد أرماني راقدًا على السرير مُرتديًا ملابسه الكاملة حتى الحذاء، همّ بدفعه ليستيقظ ولكنه وجد مظروفًا وردي اللون على الكومود، التقطه وفتح الخطاب الموجود بداخله .

"أعلم يا مادلين أن هذا هو خطابي الأخير . . أشعر الآن بأنني أقرب إلى عالمك من أي وقت مضى . . كرامتي لن تتحمل ما فعله هذا الضابط المتغطرس . . في الصباح سوف تطرق سارة بابي كما تفعل كل يوم . . ستنادي أكثر من مرة "يا عم أرماني"، قبل أن يغلب قلقها ترددها . . ستعود بالمفتاح الذي تركته عند إسحاق منذ رحيلك إلى جوار الرب . . ستجدني فارقت الحياة وذهبت إليك . . ستبكيني كما تفعل الابنة التي طالما أردنا أن ننجبها . . يومًا ما ستجد هذه الخطابات وتقضي وقتًا طويلاً تتمنى أن يُحبها صادق كما أحبك . .

لم أعد أطيق الانتظار . . سأنهي هذا الخطاب حتى آتي إليك . .

انتظريني . .

عاشقك حتى النهاية . .

أرماني"

***

١٨

كانت مريم مُنهكة . .

لا تزال تُعاني تشوشًا في الرؤية وهي تخرج من بوابة النيابة العسكرية ، استقبلتها شمس الربيع التي لا تزال ساطعة لتجعل الرؤية شبه مستحيلة ، أسرعت تضع منظارها الشمسي لتهرب به من رؤية العالم الذي عادت إليه مرة أخرى "يلّا يا حبيبتي . . مستعجلين" ، اخترق صوت أمها مسامعها فالتفتت لها ببطء لتتحركا معًا نحو السيارة . ألقت نظرة أخيرة على المكان ثم دفعت جسدها بالداخل وأغمضت عينيها .

لم يعد للوقت قيمة مُنذ أن التقت بـ"فرج" . هو الاسم الذي أطلقته على الطبيب ذي النظارة الرفيعة التي تُشبه نظارة هاري بوتر رغم كرشه الضخم . لم يزل جسدها مشتعلاً من نظراته التي اخترقت ما تبقى من ملابسها . ارتجفت وكأن يده الخشنة التي كشفت على أهم ما في جسدها بينما يمسكها الجنود مُختلسي النظرات لا تزال تؤلمها "عارفة إن الأيام اللي فاتت كانت صعبة . . بس احنا من هنا على الساحل . . تريحي شوية وتشوفي هاتعملي إيه" ، جاء صوت أمها ضبابيًّا فامتنعت عن الرد . الصعوبة التي تتحدث عنها كانت في الأيام السابقة أشبه بالساحل التي تتجه إليه الآن ، مهما قالت أو روت لأمها فلا يُمكنها أن تتخيل ما حدث ، وهي لا ترغب في الحديث عنه . فقط تحاول إبعاد تلك اللقطات حتى تستطيع إغماض عينيها .

عربة الترحيلات الضيقة . . ضربات بأكثر من هراوة في كل أنحاء جسدها . . تكبيل . . عبث لا يندرج تحت قائمة التعذيب . . تحرش . . الضابط ذو الصوت الغليظ . . الأحذية الثقيلة . . الشاويش الذي كان يمر على رؤوس الشباب . . عبث بجسدها . . الصراخ . . الكهرباء المتذبذبة من كثرة الاستخدام . . عبث بجسدها . . التحقيق . . صور معروضة

لأغلب أصدقائها . . ضربات . . عبث بجسدها . . جردل مياه في الزنزانة الحقيرة . . وأخيرًا، ذلك الطبيب .

«تحبي نقف في الـRest؟"، اخترقت أمها ذكرياتها مرة أخرى وهما تقتربان من "الـRest House" الذي كان مكانها المُفضّل سابقًا، أشارت إليها بالرفض "كملي على طول"، ألقت عبارتها بصوت مشروخ بدا وكأنه لم يخرج منذ أيام. كان يخرج منها الصراخ فقط . لا تذكر من الكلمات سوى آخر كلمة صدرت منها لذلك الصول الضخم قبل عرضها على الطبيب .

"كنتوا بتناموا مع بعض في الخيم . . مش كده؟".

"محصلش"، قالتها فباغتها بصفعة ألقتها أرضًا "هنشوف يا شرموطة"، صرخ بها في وجهها ثم التفت إلى الجندي المستمتع بنظراته المسروقة "يابني . . خدها مع اللي هيتحولوا للدكتور علشان نشوف ظروفهم إيه"، ومال نحوها ليُكمل "عارفة اللي بيطلع من غير ختم ربنا باعمل في إيه؟ . . بخلي الرجالة كلها تختم عليه . . إيه . . اشمعنى أنتم . . نعمل احنا كمان بارتي يا متعلمين يا بتوع المدارس . . معلش . . أصلي بحب مدرسة المُشاغبين".

"اركني حالاً"، قالتها لأمها التي تخطت سُرعتها المائة وستين كيلومترًا . أقل من دقيقة كانت على جانب الطريق تفتح الباب . تخرج . تقف لحظة وتنظر للصحراء، ثم تفرغ عُصارة معدتها . . لم يزل اشمئزازها من منظر أسنانه الصفراء يدفعها للقئ .

بينما تُفرغ غضبها كان فؤاد هو الآخر يخرج من بوابة السجن الحربي بصحبة أكرم . وجد جميلة تقف بسيارتها أمامه . اقترب منها في بطء مستندًا على كتف صديقه، ولم يكد يقف أمامها حتى انهمرت دموعها واحتضنته "كفّارة"، همست في أذنه، فربت على كتفها في ضعف وأكرم يفتح له باب السيارة ويدفعه داخلها "يلّا يا عم . . المرّة دي هياخدونا آداب"، التفت إليه مشيرًا بالإيجاب، ثم ركب في المقعد الخلفي ببطء، اتخذ أكرم مكانه بجوار جميلة التي أسرعت بالانطلاق بعيدًا . ظلّ ينظر خلفه حتى اختفى السجن من ناظريه .

"سوبر يا زميلي"، قطعت يد أكرم الممدودة بسيجارة بصره وهو يلتفت إلى الأمام. تطلع إليها لحظة ثم التقطها من يده ببطء "أنا عديت على شقة أمك وجبت لك من هناك شوية حاجات.. هتلاقيها في الشنطة اللي جنبك.. تصدّق.. كنت خايف يقفشوها ويعملوا لي محضر"، عاد أكرم للحديث محاولاً جذبه من أفكاره وهو يعلم ما عاناه صديقه في الأيام السابقة بعد أن قرأ شهادات العديد ممن سبقوه بالخروج وقابل بعضهم، لذلك استمر في محاولاته "أمك بتقول لك إنها عايزة تعمل محضر للواد اللي في التاني.. بتقول لي أصله بيبيع مخدرات"، التقطت جميلة طرف الحديث وسألته ساخرة "جبت منه حاجة"، فرد عليها "اللي مصبّحك منه واحنا جايين.. إيه؟.. نسيتي؟"، كادت ترد عليه إلا أنها نظَرت لفؤاد في مرآة السيارة فوجدته صامتًا وكأنه من عالم آخر. نظر أكرم إليهما فالتقط تليفونه وتظاهر بالانشغال، استمرت في طريقها وهي تنظر إليه من حين لآخر.

"إحنا رايحين فين؟"، خرج السؤال من بين شفتيه فجأة فالتفت كلاهما إليه حتى مالت السيارة مع التفاتة جميلة التي أسرعت وأعادت توازنها مع سُبّة من أكرم "مفيش أكشن كده يا عم. تطلع من جهنم الحمرا بتاعتهم علشان الهانم تعمل حادثة. هو فيه كده!"، تجاهل حديثه وأشار إلى جميلة التي لا زالت تنظر له في المرآة "بطّلي تبصي لي كده.. أنا لسه ما اتجننتش"، ارتبكت ونظرت إلى الطريق "مش قصدي يا معلم.. بس قلقانة عليك".

"برضه رايحين فين؟".

"شقة خالي في إسكندرية.. وهو إحنا حيلتنا غيرها لما نحب نشّد الفيشة". أشار بيده بلا معنى ونظر إلى الطريق. يقسو عليهما، هكذا فكّر، لم يكن ذنبهما دخوله السجن الحربي.. هو الذي تهوّر أكثر من اللازم واندفع ليُنقذ فتاة ظن أنها مريم من يدي ضابط ضخم الجثة، عندها التف حوله الجنود يوسعونه ضربًا بينما ترك الضابط الفتاة وتحرك بحثًا عن معتقل جديد. عرف فيما بعد أن مريم هي الأخرى تم اعتقالها بالفعل. لا يدري مصيرها بعد أن أمضى أيامًا لا يذكر فيها سوى الضرب والصياح المتواصل،

حتى إن الإشارة لأحد المعتقلين كانت تتم عبر ركله بالحذاء. الاستجواب لا يختلف كثيرًا، فقط يقل عدد الركلات مُقابل الصفعات بينما تكون الوجبة الرئيسية هي الكهرباء.

"رحت فين تاني؟"، أعاده صوت أكرم إلى واقعه فسأله "حد يعرف حاجة عن مريم؟".

"ما تقلقش. خرجت النهاردة هي كمان"، تنهد في ارتياح ونظر إليه. قرر محاولة الخروج مما يُعانيه "جبت لي بوكسرات؟"، قالها بابتسامة خافتة، فضحك أكرم بصوت عال وصفق بيديه "حمدلله على السلامة يا برنس"، وأشار بيده إلى الحقيبةً "أمك بعتت حاجات كأنك نازل مصيف.. شكلنا هنتشاقى يا حلو".

"وهتتشاقى فين بقى يا ضنايا؟.. فاكرني هسيبك تجيب نسوان في الشقة الطاهرة؟"، قالتها جميلة وهي تُشير بيدها حتى كادت تخترق وجهه، أبعد يدها بإشارة مُماثلة "مفيش الكلام ده.. لو ربنا بعت هروح شقة واحد صاحبي.. عملت حسابي وجبت المفتاح.. ادعي أنتي ربنا يسهلها لنا علشان الواد يفُك".

"انسَ.. أنت بتَحلم يا حلمي"، قالتها وهي تضحك وتنظر إليه والطريق في وقت واحد فاستفزته "وده من إيه بقى.. هتكتّفينا؟".

"اتقل عشان تنبسط"، جاءته الإجابة من فؤاد الذي أكمل "دي عيّلة مش سالكة.. طالما قالت كده يبقى فيه حاجة"، نظرت له في سعادة "دا أنت هتفوق عليا بقى".

مع رؤيتهم كورنيش الإسكندرية كان فؤاد قد استعاد مُعظم نشاطه، لم تمض ساعة حتى اشتروا كل ما يلزم لجلسة طويلة، ثم اتجهوا إلى الشقة، ألقوا بأجسادهم على المقاعد في إرهاق ومرر أكرم عينيه حوله ثم التفت إلى جميلة مندهشًا "بس إزاي الشقة نضيفة.. خالك ومسافر بقاله سنة.. واحنا آخر مرة كنا هنا الشتا اللي فات.. إيه.. بتأجريها وتضربي بالإيجار مخدرات"، نظر إليها فؤاد هو الآخر في تساؤل، فأشارت إلى ممر الغرف خلفهما "ده اللي خلاني أضحك على خيالكم المريض.. Say cheese Boys"..

"وحشتني أوي".

تجمد أكرم في مكانه فور سماعه الصوت، التفت سريعًا فوجدها أمامه "فرح" نطق اسمها بصوت خافت فابتسمت وهي تقترب منه "ما شاء الله.. بنت البشاوات بتعرف تنضّف البيوت.. قلت لك ما تفوّتش البت دي"، قالها فؤاد وهو يُشير نحوها مُبتسمًا. بدا أكرم وكأنه نسيَّ الجميع وهو ينظر إليها "انتي جيتي مصر إمتى؟".

"أنا اللي كلّمتها"، أسرعت جميلة نحوها تُعانقها وتدفعها من الخلف وهي مبتسمة نحو أكرم الذي نهض ببطء حتى أصبحت أمامه مباشرة. لم يدرِ كم من الوقت ظلت متعلقة بعنقه، ضمته إليها بشدة وكأنها تريد أن تدفَعه داخل أضلعها بينما تساقطت دموعها على عنقه فارتجف.

"مالك يا فقري.. دا أنت دلوقتي مفيش أحسن من كده".. نبههما صوت فؤاد فأبعدها عنه وهو ينظر إليها، تركته واتجهت نحو فؤاد الجالس مكانه "كفّارة يا فؤاد.. السجن للجدعان".

"وحياة أبوكي بلاش قفشات الأفلام"، قالها وهو ينظر بعيدًا فوضعت يدها على كتفه "طب ما بلاش سيرة أبويا وحياة أمك.. افتكر لنا حاجة عِدلة". ابتسم لها وغمز "حشيش". أشارت إلى المطبخ وهتفت "عيّل مَحدود. ادخل هتلاقي اللي أنت عايزه"، دخل المطبخ فسمعوا صوته وهو يشهق في انبهار "ما شاء الله"، نظر أكرم إليها في تساؤل فابتسمت "أنا أمشي بالحاجة اللي تعجبني. وأنت فاكر إن حد يقدر يكلمني"، نظرت إلى جميلة وغمزت "أنا معايا باسبور فرنساوي يا أستاذ"، ضحكت وهي تُشير لفؤاد الذي عاد وهو يُشعل سيجارة وفي يده طبق مليءِ بالسجائر الملفوفة وبضع زجاجات "ولّا إيه يا أستاذ؟".

"ناقص مفرش أخضر وكوتشينتين والبت دي تولع جوب وتضحك ضحكة رقيعة.. وهوب تلاقي كام خبطة غشيمة على الباب، وبعدين يتفتح وتلاقي كام مُخبر من نوع الجلابية والطاقية الفلتر والبالطو إياه، وممكن يكمّل إكسسواراته بالخرزانة.. هوب يدخل وراهم نقيب حليوة كده.. وتاني يوم تلاقي صورتها عليها شريط أسود في دموع الندم"، أنهى دعابته

وهو يعطي السيجارة لأكرم ويُشير إلى جميلة التي قذفته بعلبة سجائرها "ولما الحكومة تدخل تلاقيك لابس منديل أحمر فوق القميص، وهوب تبقى أنت المعرّص".

"وأنا هكتب الخبر أول ما أطلع من النيابة.. أصلي هبقى شاهد"، لم يكد أكرم يُكملها حتى لكزته فرح وهي تأخذ منه السيجارة "طب هات بقى علشان لما يحللوا لك".

أكملوا دعابتهم لدقائق ثم قامت جميلة بتوصيل الشاشة الكبيرة في الردهة وقامت بتشغيل فيلم كارتون.. استمروا فيما يفعلونه وهم يلقون بتعليقات على الفيلم حيث يبدأ كائن عملاق في مطاردة البطل ضئيل الحجم، مع اندماجهم في الفيلم وتصاعد الدخان الأزرق انسحب ذهن فؤاد إلى الأيام السابقة.

لم يكن وكيل النيابة العسكرية سيئًا كما توقّع، سيسمع فيما بعد من الكثيرين أنه محظوظ وأن العديد من الشباب قد حُكمّ عليهم بسنوات عديدة لا بد من قضائها؛ على عكسهم يومها قرأ الرجل ملفَ القضية أكثر من مرّة، ونظر إليه خلالها عدة مرات ثم رفع رأسه إليه "شوف يا متر.. أنت لو قرأت الورق اللي قدامي هتعرف إنك لو اتحلت محاكمة هتتعدم وهدومك هتكمل بقية مدة العقوبة"، لمح توتر فؤاد فابتسم "بس ده كلام فارغ.. أنت لسه صغير وأبوك الله يرحمه كان زميل في الجيش، وبرضه مش دي الجتة اللي تضرب ظابط مظلات زي ما المحضر كاتب". تنفس الصعداء وأَدرك أنه كان يتلاعب بأعصابه حتى لا يُكرر فعلته.

"بس بُص يا ابن الناس.. أنت بقالك هنا أسبوعين، وشكلك بيقول إنك أتربيت وعرفت يعني إيه مُعاملة ميري.. أنا هفرج عنك وهحفظ القضية.. بس مش عايز أسمع عنك تاني".

"دا أنت بقيت في الزلزال.. خد يا عم اصطبح".

عاد "صوت أكرم يُنقذه مرّة أخرى من ثقب الأيام الماضية.. نظر إلى الشاشة فوجد المطاردة مستمرة وإن اختلف مكانها. علّقت جميلة وهي تتناول زجاجة جديدة "تلاقيه يا عيني نفسه في حضن حنين. بقاله فترة

مقاطع النسوان، ومن بعد رنا يبقى.."، انتبهت لقولها فساد الصمت فجأة وفرح تحتضن ذراع أكرم بينما جميلة تُحرّك يديها في ارتباك قطعه فؤاد بتجاهله لقولها وهو يأخذ من أكرم السيجارة "تعرف يا زميلي.. فيه ناس كتير بلح فاكرين إن دماغي خلاص كده راحت مني ومش هترجع. محدش فاهم يعني إيه تحب واحدة خلاص بقت بره الدنيا كلها. أنا الوحيد اللي مش شايفها كده".

واصلوا صمتهم بينما أشار إلى جميلة المنهمكة في لف سيجارة أخرى لتُداري ارتباكها "عندك البت دي.. هي مش أنتيمي.. مفيش بقى.. ولا أي خرافات من اللي هي بتحاول تقنعني بيها. رغم دماغها الجامدة بحس كتير إنها في موضوع رنا ده بقرة". رفعت جميلة عينيها إليه وحرّكت شفتيها بشتمة قبيحة فأشار إليها بالصمت وأكمل "أنا خلاص مش عايز تاني.. كان فيه وخِلص"، نظر له في دهشة فضحك "مالك.. مش هبطّل نسوان لا سمحَ الله. بس الحب اندفن معاها. تقدر تقول إنه موضوع اتفقل ومش ناوي أفتحه تاني. زي حوار السجن بالظبط"، قالها وعاد ينظر إلى الشاشة. عجيب فيلم الكارتون هذا الذي لا يحوي سوى المطاردات. لو كان من البطل لتقطّعت أنفاسه. هكذا جالت الفكرة في ذهنه.

"يا خوفي من جنّونة أمك دي"، قطعت جميلة الصمت مرة أخرى وأشارت لفرح بالسيجارة التي أشعلتها "تعرفي إن ابن المجنونة ده قعد عايش في التُرب كام شهر لحد ما جت الثورة وأنقذته من الجنان".

"هنبتدي الخرة".. قالها أكرم وهو يُشير إليهما ناظرًا لفرح وهو يضحك مُشيرًا إليهما "شغل السكرانين هيبتدي.. ها.. قول يا عم غاندي وجهة نظرك.. ما أنت مش هتسيب البت إلا لمّا تفهم"، التقط فؤاد زجاجة وتناولها جرعة واحدة، والتفت إليه وصوته يعلو "عارف مشكلتنا إيه؟".

"قول أنت".

"حمار.. كل واحد بيفلسف كل حاجة.. بيطوّع الغلط ويحلله على كيفه.. وبقت الـStella مشروب المُثقفين رغم أنها بتتباع عادي..

والمومس تشوفها حالة إنسانية مع إن فيه كتير واخدينها هواية. . والحشيش تمرد على الواقع وآديك شايف إن كل الطبقات بتحشش. . علشان كده كرهت كل ده وخلعت منه"، صفقت جميلة بيديها في سُكر فتجاهلها وأكمل "مالها التُرب يا ولاد المفكوكة"، ناس عايشة بتتعامل من غير أسباب تغطي اللي بيعملوه. . هناك الحياة أبسط. . أكل وشرب وكيف وحُرمة لو مش بمزاجها يبقى بعشرة جنيه تاخدها آخر الليل في الحوش".

قصدك إيه؟"، سألته فرح فابتسم وهو يُشير إليهم "أنتم اخترعتم النظريات دي وحفّظتوها للوارد الجديد علشان تناموا معاهم ببلاش. . وبرضه باحترامكم . . يا أخي أحا". عادوا للصمت وتعلقت عيناه مرة أخرى بالكارتون. كان العملاق لا يزال يُطارد الضئيل.

"كده أوفر دوز. . أنا هقوم أنام. . بعيد عنكم المراتب وحشتني"، قالها فؤاد وهو يترنح في سيره.

***

أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة إعلانًا دستوريًّا في مارس 2011 بعد إعلان تعليق العمل بدستور 1971، وأصدر المجلس قرارًا بصفته القائم بأعمال رئيس الجمهورية بدعوة الناخبين للاستفتاء على الإعلان الدستوري الذي وصفته العديد من القوى المدنية بـ"المجحف للحريات"؛ إلا أن قوى الإسلام السياسي وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين – التي كانت على وفاق مع المجلس العسكري الحاكم آنذاك – قامت بالحشد بقوة ودعوة الناخبين إلى التصويت لإمرار الإعلان بلا أية تعديلات مُستغلين البُسطاء عبر التأكيد بأن التصويت بـ"نعم" هو الطريق لدخول الجنة، وهو ما حدث بالفعل، ما جعل القوى السياسية الإسلامية تُطلق على هذا الاستفتاء اسم "غزوة الصناديق".

تقارير صحفية

١٩

"الله أكبر . . مبروك يا مولانا" . .

هتف بها مجدي وهو يدخل مكتب الشيخ يحيى المزدحم بالعشرات من شباب الجماعة، أسرع إليه وقبّل يده فربت على كتفه "بارك لك وفيك يا مجدي"، أحنى رأسه وابتسم "خطوة مباركة إن شاء الله، أخيرًا الشعب بدأ ياخد طريق ربنا". تصاعد التهليل والتكبير من حولهما فاتسعت ابتسامة الشيخ ومال عليه "والأهم إن السُلطة بدأت تُدرك وضعنا وقوتنا الحقيقية في الشارِع".

ظل مجدي صامتًا وشيخه يتبادل التهنئة مع الوافدين ويرد عبارات المُجاملة ويهمس للبعض بالوعود، ثم ما لبث الشيخ أن أمسك بيده "تعالى يا مجدي عايزك"، عاد ليحني رأسه والشيخ يقوده إلى إحدى الغرف الصغيرة، أشار إلى واحد من الشباب الموجودين "حد يبعت لنا شاي يا شباب".

أغلق عليهما الباب والتفت إليه "ها. . قول لي. إيه الأخبار عندكم في الجريدة؟". اتسعت ابتسامة مجدي "أهو. . الليبراليين والعلمانيين مصدومين من النتيجة. زميلنا اليساري اللي كنت قلت لك عليه قاعد بيتّهم الجماعة بالتواطؤ مع السُلطة على الثورة"، صمت لحظات وتألقت عيناه "أمّا القبطي اللي اسمه رأفت فقاعد أغلب الوقت وكأن على رأسه الطير".

"الانتصار كان ساحق" غمغم بها الشيخ في رضا، فأضاف مجدي "والتهليل في الشوارع. الناس كلها بقت موقنة إن الإسلام هو الحل، بعد ما قعدوا تلاتين سنة في حكم ملعون بيحكم بالحديد والنار. كل الناس عايزة البلد تمشي بشرع ربنا علشان البلاء اللي احنا فيه يترفع".

"وأنت أخبارك إيه".

"الحمد لله"، قالها وتنحنح "فيه موضوع كنت عايز اتكلم معاك فيه يا مولانا".

"البنت السافرة إياها . . مش كده"، سأله فأطرق برأسه في خجل "أنت عارف إنها كانت محبوسة في الأحداث اللي فاتت"، أضافها الشيخ، فقال مجدي مندهشًا دون أن يرفع إليه عينيه "كانت ضمن البنات اللي اتعمل لهم كشوف العذرية".

"حضرتك عرفت إزاي يا مولانا".

"جرى إيه يابني. وانت فاكر إننا كسبناها كلها بالصناديق ولّا إيه. إحنا برضه حبايبنا كتير جوة". صمتا لحظات طرق أحدهم باب الغرفة، ودخل أحد الشباب يحمل صينية عليها الشاي "أي خدمة تاني يا مولانا"، تساءل الشاب فأشار إليه بالانصراف "ربنا يبارك فيك. اطلب من الإخوة محدش يدخل علينا بس"، أومأ الشاب برأسه في احترام وغادر وهو يغلق الباب فعاد مجدي يلتفت إليه "أنا بقول أرجع أحاول معاها تاني يمكن بعد اللي بيحصل ربنا يهديها".

قام الشيخ من مقعده وربت على كتفه "شوف يا مجدي يابني. شكلك بتحبها. . مهما كان اعتراضي أو اعتراض الجماعة على شكلها وتصرفاتها لكن أنا شايف إن إصرارك طبيعي. ومفيش مشكلة خالص إنك تعمل ده وتتمسك بيه"، رفع مجدي عينيه إليه في أمل لكنه لمح نظرة غريبة في عيني شيخه وهو يُتابع "بس ما تخليشٍ دماغك ناشفة. . حط احتمالات كتير لنفسك ومستقبلك. . يا ترى فعلاً هتكمل كده".

صمت مجدي وهو ينظر للشيخ في تساؤل فاستطرد في حديثه "مع احترامي لك وخبراتك اللي اكتسبتها من معايشتك للإخوة. لكن في سنك ده بتكون أي حاجة بالنسبة لك مؤكدة. أنت لسه العالم بتاعك محدود مهما افتكرت غير كده. بكرة تكبر أكتر وتشوف حاجات أكتر"، وغمز بعينه "وبنات ونسوان أحلى كمان"، أطرق مجدي برأسه خجلاً فأطلق الشيخ يحيى ضحكة عالية "أومّال. . يا واد ما تتكسفش. . أنا زي أبوك. . الدنيا مليانة. . أنا شايف إنك علشان ما شفتش غيرها".

همّ مجدي بالاعتراض على حديث شيخه ولكنه أشار إليه "ويمكن علشان زي ما بتقول لنفسك إنك ما صدّقت تلاقي واحدة فيه من ناحيتها

نوع من القّبول. بس دي مش حقيقة. كل يوم بتحصل حاجة جديدة تخليك تفكّر في حاجة تانية. البلد بتتغير والمستقبل بتاعنا إن شاء الله، ومين عارف. مش يمكن في يوم تبقى وزير".

صمت مجدي وقد فهم طريقة شيخه لإنهاء الموضوع "وأنا دلوقتي بكلمك كأب مش كقيادة بتكلم شاب واعد. صدقني أنا مش عايزك تعيش بقية عمرك ندمان. ولا برضه عايزك تمشي بدماغك وتسيب مشاعر يمكن تكون حلوة دلوقت. بس ساعتها هتدعي على نفسك، ويمكن تفهم ده في مرحلة ما ينفعش ترجع فيها".

ظل مجدي صامتًا فارتشف الشيخ الشاي باستمتاع، ونهض مُمسكًا بسبحته الصغيرة "كل حاجة وأنت صغير بتكون حلوة. بس افتكر الحكمة الشهيرة اللي بتقول كُلّما اتسعت الرؤية.. ضاقت العبارة"، وربت على كتفه "وأنا مش عايز الدنيا تضيق في وشك بعدين".

"مفهوم يا مولانا"، قالها محاولاً أن يُداري خيبة أمله، ابتسم الشيخ راضيًا وقد أدرك مدى سيطرته على الشاب "ودلوقتي سيبك من الموضوع ده. أنا عايزك تستعد. المرحلة الجاية كلها بتاعتنا إن شاء الله"، تألقت عيناه وأضاف "ومين عارف.. لو أسسنا المرحلة دي كويس، يمكن نركب وما ننزلش".

***

أول صدام بين اليهود والثورة كان بعد غارة إسرائيل على غزة عام 1955، ثم كانت التصفية الإجبارية بعد عدوان 1956، كان اليهود شاعرين بوجود عداء ضدهم في الوقت الذي بدأ فيه تمصير المؤسسات الاقتصادية، فشعروا أن هناك اتجاهًا ضدهم. ولا شك أن إسرائيل كسبت من يهود مصر الذين مثلوا إضافة اقتصادية لها، والآن لا نستطيع القول هل أخطأ عبد الناصر أم لا، فالمسائل لا تؤخذ إلا بوضع الظروف التاريخية المحيطة بالقرار في عين الاعتبار.

المؤرخ الراحل يونان لبيب رزق

٢٠

"يا ولية بقول لك مش نازل . . مش هنزل . . إنتي مش دريانة باللي بيحصل ولّا إيه" .

"والمحل يا راجل؟" .

"نزلت بالليل فضّيته . . الحاجة كلها في أوضة سليمان ابنك" .

"يالهوي" .

تناهت إلى مسامع سارة أصوات حديث والديها بعد ليلة حالكة قضتها تفكر في مصير الأسرة عقب نشوب الحرب . كان خوفها ينبع من اضطرارهم لمغادرة مصر كما تفعل صديقتها راشيل التي تستعد للرحيل مع أمها ، بعد أن تزايدت نبرة العدائية نحو اليهود بعد قيام الدولة الإسرائيلية الوليدة بالإغارة على سيناء ومدن القناة . كانت طوال اليوم السابق تحاول إقناع راشيل بالبقاء لأنهم لا علاقة لهم بدولة العصابات التي تسعى للتوسع ، وأن سوء التفاهم الذي يشعر به من حولهم ليس مبررًا لترك بلادهم .

جلست على سريرها تحاول الاتزان بينما صوت أبيها يتعالى "إنتي ما سمعتيش الأخبار ولّا إيه؟ . . فيه ناس حاولت تولع في محلات عدس ، وناس تانية كسّرت فاترينة ليفي اللي بياكل منها عيش . . إيه . . هستنى لمّا يجوا يولّعوا فينا واحنا نايمين؟" .

"قصدك إيه يا بو سليمان؟" .

"احنا لازم نمشي" .

"عايزنا نسيب مصر يا بابا" ، قاطعته سارة وهي تفتح باب غرفتها بحدة فالتفت إليها "أومال إنتي فاكرة إيه . . بعد اللي حصل ده مالناش عيش هنا" . دمعت عيناها وهي تحاول إثناءه عن رأيه "يا بابا من خرج من داره اتقل مقداره" .

"ولو قعدنا هنا هنموت"، صرخ بها في عصبية وجسده يرتجف وتابع "يعقوب محله اتكسر واتسرقت البضاعة اللي فيه.. هارون ناس ولّعت في بيته، وموسى ابنه كل شوية ياخدوه النقطة ويفضلوا يسألوا فيه"، حاولت تهدئته فربتت على كتفه "يا بابا"، قاطعها بعنف وكأنه يفرغ فيها انفعالاته "وإنتي يا ست الحسن.. نسيتي اللي حصل فيكي من تحت راس المدعوقة مارسيل.. دا أنا كنت خايف حتى أقرّب منك ولّا أبعت أخوكي يطّمن عليكي، ولولا أرماني الله يرحمه كان زمانك مرمية في السجن لحد دلوقتي".

"الله يرحمه"، همست بها أمها فالتفت لها وبدأ صوته يخفت "حتى أصحابي وعِشرة عمري راحوا.. الشيخ مصطفى مات وابنه اتسجن.. أرماني مات بحسرته قبل ما يرموه برة البلد.. نستنى ليه بقى؟! أستنى لمّا يسجنوا الواد اللي حيلتي ولّا يأذوا البنت اللي ماليش غيرها". صمتت سارة وقد أدركت أنه لا جدوى من النقاش فانسحبت إلى غرفتها غارقة في الدموع، لم تستطع البوح بأن السبب الأكبر في إصرارها على البقاء هو صادق وعشقها له. ظلّت جالسة في موضعها لساعات حتى جاء موعدهما اليومي، لم تستطع التأنق كالمعتاد وارتدت فستانًا بسيطًا لم يُخفِ جمالها. غادرت بعد أن همست لأمها أنها لن تتأخر.

"وناويين على إيه؟".

سألها صادق متوترًا وهما جالسان في الاكسلسيور فخفضت عينيها "هنروح فرنسا. ليليت بنت عمتي متجوزة وقاعدة في مارسيليا.. بابا بيقول إنه اشتغل كتير وممكن يرتاح هناك".

"وإنتي موافقة على الكلام ده!".

"هعمل إيه.. مش عارفة أقول لأ"، قالتها وعيناها تلتمعان بالدموع "وأنت فاكر إن أي حد فينا عاجبه ده؟.. نتاخد بذنب ناس لا نعرفها ولا موافقين على اللي بيعملوه لمجرد إننا من نفس الدين؟!.. لو ما عملناش كده، خالك والناس اللي معاه هيرمونا في السجن"، صمت محاولاً إيجاد رد فأكملت "أنت نسيت؟، دول حبسوا الشيخ وحسن مع إنهم في حالهم ومن نفس دينهم.. أومال ممكن يعملوا فيا أنا وسليمان إيه"، حاول النظر

إلى النافذة المطلة على الشارع شبه الخالي فجذبته نحوها "فاكر خالك عمل إيه في سلمى الله يرحمها. . ولّا مستني يحصل لي زيها".

بدا وكأن عبارتها الأخيرة أيقظت نارًا في نفسه فانفجر "مش ناسي. . وعاجز. . ومعنديش حاجة أعملها. . لا عرفت أعمل لهم حاجة ولا هعرف أعمل لك حاجة".

"وبعدين؟"، سألته فظل صامتًا وصوت أنفاسه يتعالى، فعادت تسأله "عندك ضمان إن مفيش حاجة تحصل؟، إن خالك واللي زيه هيسيبونا في حالنا؟، طب تعرف تضمن لهم إننا غلابة ومالناش دعوة باللي بيحصل؟. . بلاش. . تقدر تقول لخالك دلوقتي إنك عايزة تتجوز يهودية؟". . ارتبك صادق من تساؤلاتها التي لا يستطيع إجابتها سوى بالنفي، حاول الحديث لكنه شعر بصوته خافتًا للغاية "ما اقدرش".

"طبعًا. . محدش يقدر. . بس عارف. . يمكن نقعد بأمان لو أنا رحت لخالك البيت وبقيت محظية عنده. . هي دي فكرتهم عن اليهود"، قالتها ونهضت "بس يا خسارة. . أنا مش كده".

بقى متجمدًا في مكانه بينما غادرت سارة المكان مسرعة، لم يحاول اللحاق بها حتى لا يتعرض لموقف أشد ضيقًا مما هو فيه. ظل يفكر في كلماتها التي تكررت في ذهنه طوال الساعة التالية التي قضاها كتمثال رخامي فارغ من الحياة. كان إحساسه بالعجز يفوق كل ما تعرض له ومن أحبهم من قبل على يد رجال الحركة. تمثّل له صفوت كشيطان يسخر من ضعفه أمام محبوبته، بينما هو عاجز حتى عن الرد.

"Pardon يا فندم. . حضرتك تحب تطلب حاجة؟".

قاطع النادل أفكاره، فالتفت له ببطء وملامح جامدة "شكرًا"، ابتسم الرجل باحتراف يليق بمهنته "أصل التعليمات إننا نقفل كمان شوية علشان الغارات. . أنت عارف ظروف الحرب"، هزّ رأسه مؤمنًا على حديثه ونهض ليدفع الحساب في هدوء، ألقى نظرة عابرة على المقعد الفارغ الذي شغلته سارة قبل رحيلها، بينما تعالى صوت صافرة الإنذار.

***

٢١

يكره أكرم هذه الحفلات.

كانت واحدة من تلك الندوات التي يُقيمها أحد المراكز الثقافية الأجنبية بالقاهرة بمناسبة ترجمة واحد من الكتب السياسية المهمة، في الوقت نفسه كانت الدعوة تخص جميلة التي قامت بالترجمة، ولا يستطيع رفض طلبها.

هكذا وجد نفسه مضطرًا لارتداء بدلة السهرة السوداء التي لم يعد يُطيقها، ورشّ قليلاً من ذلك العطر الذي أهدته إياه فرح، ثم وقف يعدّل رابطة العنق ناظرًا لنفسه في المرآة.

"مش بطّال"، قالها في ضيق ونظر في ساعته ليكتشف تأخره فأسرع مستقلاً تاكسيًّا إلى ذلك العنوان الذي أرسلته له عبر الـwhat›s app، متحملاً الازدحام والسائق المُلتحي الثرثار الذي ما انفك يتحدث عن الثورة والمجلس العسكري والتيار الديني الذي سيحكم بالشريعة.

"خليك في حالك يا أسطى الله يبارك لك.. مش ناقصة صداع".

هكذا استطاع أن يُخرس الراديو البشري مُتحملاً راديو السيارة الذي ما انفك يتحدث عن المراحل الانتقالية للسلطة وفرص فوز المرشحين في انتخابات البرلمان والرئاسة المُقبلة. انتظر حتى اقترب التاكسي من أقرب نقطة فألقى نظرة سريعة على العداد.. بحث عن عشرين جنيهًا وألقاها له دون حديث وقفز خارجًا.

دقائق وكان يدخل إلى الحفل. لمحته جميلة فأسرعت لاستقباله متجاهلة العشرات من الموجودين، خاصة بعض الزملاء ممن يظنون أن علاقتهما تتعدى الصداقة.. ما لم يستوعبه أحد من هؤلاء أن كليهما مقتنع تمامًا بأن صداقتهما الوطيدة تحولت إلى نوع مختلف من الحب لن يفهمه هؤلاء الأغبياء "دي ناس بتفكر بالـanthère"، دائمًا ما تنطقها بالفرنسية

كما اعتادت، "واللي زي دول خسارة حتى إن الواحد يفكر فيهم أصلاً".

رغم صداقتها بفؤاد لكن أكرم يوقن أن علاقته بجميلة تختلف، العمل وسنوات الصداقة قادا علاقتهما إلى فضاء أكثر اتساعًا من الصداقة العادية. كان اتفاقهما الأعظم ألا يترك كل منهما الآخر. كل المعتقدات والأفكار البالية عن العلاقات الإنسانية وأشكال الصداقة والحب لم تكن تُشكّل لهما سوى نقطة في بحر القيود المفروضة من قِبل من احتكروا لأنفسهم حق الحكم على الآخرين، كانت هذه العلاقة تَبدو للآخرين شديدة الغموض والخصوصية، حتى وإن كان تعاملهما اليومي مقتصرًا على مكالمة هاتفية.

«هي الحفلة دي شرعي ولا إيه؟»، سألها وهما يتسكعان وسط الضيوف، مد يديه لا شعوريًا محاولاً فك رابطة العنق فأمسكت بيده سريعًا «ما تهدى يا عم.. مش قادر تستحملها ساعتين علشان خاطري».

مش في جامع إحنا»، قالها في ضجر، فابتسمت «هريحك أنا.. تعالى». أمسكت بيده واتجها نحو البار الموجود في نهاية القاعة، طلبت كأسRed Wine بينما طلب Vodka. ظلا يثرثران، بعد الكأس العاشر سارا متجاورين يتحدثان عما حدث في الميدان وردود الأفعال حول الأحداث الأخيرة "الدنيا عمرها ما هتهدى بالمنظر ده، دول بيشوفوا اللي يشعللها فين ويروحوا يعملوه.. بذمتك فيه كده"، قبل أن تجيبه لمحت كهلاً وقورًا يتجه إليهما فلكزته في جانبه وهي تبتسم "اللي جاي علينا ده مدير المركز. وحياة أمك لم لسانك هي مش ناقصة. ما يبقاش خرة في الشارع وخراب ديار هنا".

تقدّمت نحو الكهل وصافحته وهي تجذب أكرم لتعرّفهما ببعضهما قائلة بالإنجليزية "البروفيسير جوزيف مدير المركز.. أكرم صديقي العزيز.. صحفي"، مد أكرم يده مصافحًا الرجل بابتسامة متكلفة في حين قال الرجل بابتسامة واسعة "صحفي.. لا بد أن لديه معلومات لا تتوفر لأمثالنا من العامة"، أجابه دون تردد "كل ما يحدث في الشارع لا يحتاج لمعلومات.. الحقائق على بُعد أمتار لمن يرغب في رؤيتها"، قالها وبدا عليه بداية السُكر "فقط يمكنكم أن تتركوا السيارات الفارهة وتمشوا على

أقدامكم قليلاً . . هذا إن أراد أحد رؤية الحقيقة" .

"وثوري كذلك . . عظيم أن أتعرف بك . . لم لا أدعوك لنشرب بضعة كؤوس معًا"، رد البروفيسير دون أن يلتفتَ لمغزى الكمات . . ابتسمت جميلة وهي تضغط على قدم أكرم وقالت "أعتقد أنه شرب ما يكفي"، رد عليها بالعربية "أنا أشرب برميل زي اللي قدامك"، والتفت إلى الرجل قائلاً "هيا بنا" .

تركاها وعادا إلى البار وشاركه الرجل كؤوسه . عادا للحديث عن الثورة والأحداث والدعم والتدخل الغربي الذي رفضه أكرم بقوله "أنتم لا ترون فينا سوى بقايا عبيد من عهد الاستعمار تريدون تطويعهم . كل الهبات والمنح وذلك الهراء الذي يرتزق من حوله العشرات من المتاجرين بالثورة، بداية من مُدّعي الحرية وحتى أصحاب اللحى، ليس سوى نوع من البيزنس توافق عليه الحكومات التي استأنستموها في المنطقة" .

تجمّدت ابتسامة الرجل وهو يقول "يبدو أنك متحامل على حكوماتنا كثيرًا يا صديقي"، رد عليه وهو يتجرع كأسه دفعة واحدة "نحن لسنا أصدقاء يا بروفيسير . . إذا ضايقك حديثي فلا بأس . . يُمكنني الاستئذان والرحيل"، قالها ووضع كأسه وهو يحاول أن يتحرك، فاستوقفه الرجل مبتسمًا "عفوًا . . فقط أحاول أن أقترب من وجهة نظرك . ربما لم تعرّفني لك جميلة جيدًا . أنا لست فقط مدير المركز، وإنما في المقام الأول أستاذ في العلوم الإنسانية، لذلك أنا مهتم بالحديث معك . . قل لي . . ببساطة، أنت كواحد ممن يبدو عليهم الثقافة . إذا أردت أن تُعرّف الإنسان المصري حاليًا، ما الذي يمكنك أن تقوله لي؟" .

نظر له أكرم في دهشة، وتجرع كأسًا آخر "لا يوجد تعريف بسيط للإنسان المصري . . أنت واهم . . يمكن أن أسرد في الوصف فأقول إنني – جغرافيًّا – كائن إفريقي شرق أوسطي أصبح عربيًّا مع دخول الإسلام، وهو يتبع حوض النيل واضعًا في الوقت ذاته كتفه في آسيا . . بينما هويتي الدينية تبدأ منذ عرف البشر معنى الإله قبل الخوض في تفاصيله، حتى أرسل الله النبي موسى من نفس الأرض ويأتي بعده المسيح الطفل باحثًا عن الأمان

مؤكدًا على بعثة محمد الذي أكد على أهمية مصر بالنسبة للخالق . . هل فهمت شيئًا؟"، أومأ الرجل برأسه إيجابًا وأخرج علبة سجائره عازمًا عليه بسيجارة رفضها بحركة عنيفة من يده، وأخرج من جيبه علبة السوبر وأشعل سيجارته وقال، وقد بدأ صوته في الارتفاع "وهذا يجعلني أتساءل . . لماذا يفعل الله ذلك طالما أن هذه الأرض مميزة لديه؟ . . ولماذا جعل فيها مجموعة من الكسالى يتحركون بها نحو الدرك الأسفل من سلم البشرية؟ . . هل تستطيع الإجابة يا بروفيسير بكل علومك وخبرتك في التاريخ الإنساني . . لا أعتقد . . لذلك أنا كذلك أعتقد أننا لن نكون أصدقاء".

"هل أنت شيوعي؟".

أتاه التساؤل من حسناء في الأربعينات جذبها الصوت العالي فالتفت إليها صائحًا "الشيوعية . . هذه هي التهمة الجاهزة التي لا تزالون تستخدمونها لكل من يخالفكم في الرأي . . تمامًا كمعاداة السامية . . مجرد ألفاظ حمقاء اخترعتموها أنتم ومن سبقوكم من أجل إحالة حياة أمثالنا من الدول التي احتللتموها جحيمًا . . إذا كانت الشيوعية في نظركم تعني أن نحكم بلادنا فلا بأس . . وإذا كانت معاداة السامية هي ألا يُذبح أطفالنا بأسلحتكم فهي كذلك"، قالها ولمح جميلة التي تقف صامتة وعلى وجهها تعبير كارثي وتسبه بلا صوت، فالتفت إلى البروفيسير قائلاً "أعتذر سيدي عن الفوضى التي أحدثتها وإن كنت أعتقد أن هناك من لا يزال يرفض لنا حرية التفكير . . أشكرك على الإنصات وعلى الكؤوس التي احتسيناها معًا"، انطلق إلى باب القاعة ومر على جميلة التي همست له "ماتسترش أبدًا . . الله يخرب بيتك" تجاهل قولها وغمز وهو يترنح "خلّصي حفلة ميكي دي وهتلاقيني في اللوتس". حاولت الحديث لكنه غادر قبل أن يمنحها فرصة للرد.

***

٢٢

"خطوة عزيزة يا أخويا" . .

قالتها أم صادق بابتسامة كبيرة وهي تحمل رضيعها نجيب وتستقبل صفوت الذي دخل بخيلاء كعادته وخلفه جندي هزيل يحمل عدة صناديق وأكياس "طب ليه بس كُلفة كل ده . . ما خير ربنا كتير"، ابتسم وهو يُشير للجندي الذي كان خافضًا رأسه للأرض فوضع الأكياس وتراجع بظهره "ربنا يزيد"، رفعت يديها بالدعاء "آمين يا حبيبي". أغلقت خلفه الباب وتبعته إلى الشرفة التي تطل على ميدان سليمان باشا الذي استبدلوا تمثاله الشهير بتمثال طلعت حرب وصار يحمل اسمه "أومال فين فاروق؟" .

"لسه في المدرسة" .

"وفين المحروس صادق"، تساءل وهو يجلس ناظرًا إلى الميدان، جلست قبالته ووضعت يدها على ركبته "أنت لسّه زعلان منه . . ده عيل طايش ومش فاهم حاجة"، وضع ساقًا فوق الأخرى وهز قدمه "ولا يشغل بالي . . صدقيني لولا إني مربيه كان بقى ليا تصرف تاني"، والتفت إليها بنظرة مخيفة وهو يُشير إلى الرضيع "المهم تلحقي تربي نجيب أحسن منه، ولو إني مش عارف ليه الاسم ده. كل الناس بتسمي جمال"، ارتجفت وابتسمت بارتباك "ما أنت عارف إن أبوه الله يرحمه كان عامل نَدر إنه يسمي العيل ده نجيب زي ما سمّى اللي قبله فاروق" .

"كويس إنه مات . . لولا كده كان زمانه مشرّف عندنا" .

زاد ارتباكها وهي تترحم على زوجها في سرها، عادت تُشير إلى الآليات العسكرية المُنتشرة في الميدان "هو بعد إذنك يعني . . هو الجيش رجع في الشارع ليه؟"، عادت ابتسامته الظافرة وأشار إلى القوات "البلد في حالة حرب. صحيح الإنجليز والصهاينة اتهزموا، لكن معندناش رفاهية إن

حد يعمل اللي هو عايزه. فاكرة الأيام الجاية ممكن تعدي بالساهل.. مفيش الكلام ده"، مع اتساع عينيها خوفًا راوده شعور دموي بالفخر "كمان إحنا لسّه عاملين الوحدة مع سوريا وده لازم تكون فيه إجراءات استثنائية علشان حمايته. حلم الأمة العربية بيتحقق، وعلشان كده الأيام الجاية هيكون فيها قرارات مُهمة.. اعتقالات ومحاكمات"، تألقت عيناه وهو ينظر لها "رقاب كتير هتطير"؛ ازدادت رُعبًا فاتسعت ابتسامته وهو يُخرج علبة سجائره "الإعدام هيكون أرخص من علبة الدخان دي". صمتت وهو يُشعل سيجارة، ارتبك عقلها للحظات وهي تبحث عن موضوع آخر يُدير دفة الحديث، وفي الوقت ذاته لا يُغضبه؛ حتى أنقذها صوت الباب وهو يُفتح ويدلف منه صادق الذي كان مبُتسمًا، فتجمد عندما رأى خاله.

"أهلاً يا شملول"، لم يُجبه صادق وأشار بيده مُحييًا وهو يتجه نحو غرفته فاستوقفه "أنت لسّه زعلان من موضوع صاحبك"، نظر له في غل زاد من خوف أمه فحاولت التدخل "هتتغدى معانا يا صفوت"، أشار لَها بالإيجاب ونفث دخانه "بس مستعجل، قومي اعملي الغدا لحد ما اتكلم مع ابنك كلمتين". أشار إلى صادق للحاق به في الشرفة وجلسا في مواجهة بعضهما. لم يطق صادق النظر إليه فثبّت عينيه على الشارع "إيه.. مش عايز تبص لي"، سأله صفوت فهز رأسه نافيًا "مفيش بينا كلام يا حضرة البكباشي".

"أنا خالك".

"لحد الكام سنة اللي فاتوا كنت خالي اللي بحبه قبل ما أعرف حقيقته. الظابط اللي كان جدي طول الوقت فخور بيه".

"ودلوقتي؟"..

"أنت الظابط اللي خسّرني كل حاجة حلوة، من أول مستقبلي اللي حلمت بيه لحد صاحب عمري، والراجل اللي كنت حاطه في مقام أبويا، وحتى البنت اللي بحبها"، صمت صفوت بينما رفع صادق عينيه إليه بغضب وتابع وهو يُشير إلى كتفه "تقدر تقول للغلبانة اللي جوة دي الرتبة الجديدة اللي تقّلت كتفك جت إزاي، تعرف تشرح لها أنت دبحت كام واحد

علشانها. خدت شرف كام بنت علشان توصل للمكان ده". تجعدت ملامح صفوت من الغضب وابن شقيقته يواصل الحديث وكأنه يقذف حمم كتمها بركان غضبه طويلاً "وطول الوقت حجتك جاهزة. البلد وأمن البلد ومصلحة البلد.. البلد مالها ومال ناس غلابة اتولدوا وعاشوا فيها واتحكم عليهم يسيبوها لأن دينهم زي ناس تانية احتلت الأرض، تفتكر تخليص الحق يبقى بطردهم ولّا طرد الاحتلال. أمن البلد إيه علاقته براجل عجوز حافظ كلام ربنا وقاله من غير ما يعمل حساب السياسة، ليه يترمي هو وابنه في المعتقل.. تقدر تشرح لي البلد خدت إيه لمّا سيادتك دبحت شرف بنته؟. ولّا المصور العجوز اللي لولا رحمة ربنا بيه كنتم هتحكموا عليه يقضي آخر أيامه بعيد عن الأرض اللي بيحبها. اسمح لي أفهّمك يا جناب البكباشي إن عشق الأرض مالوش دعوة بمكان الميلاد، واسأل بيرم التونسي".

صمت كلاهما عندما ظهرت أم صادق وهي تضع الأطباق على المنضدة. انتظرا حتى عادت إلى المطبخ ثم استأنف الشاب غضبه "تفتكر لو جدي كان لسّه موجود كان برضه هيفضل فخور بيك؟ تفتكر ماما اللي بتخدمك برموش عنيها دي لو عرفت أنت عملت إيه في بيت الشيخ مصطفى هترضى تفتح لك باب بيتها تاني؟ تقدر تقول لي كام واحد خسر حياته بسببك أنت واللي زيك؟".

"أنا مفيش زيي"، قالها صفوت بنبرة صارمة وتابع "اللي زيي يتعدوا على الصوابع ، لا أنت ولا مليون زيك تقدروا تعملوا ربع اللي عملته أو هعمله. جدك اللي بتككلم عليه ماقدرش يرفع راسه في الشارع إلا لمّا ابنه بقى ظابط مهم. أمك اللي بتتكلم عليها عايشة على اسمي من يوم أبوك ما مات. أنت نفسك لولا وجودي كان زمانك بتعفّن جنب صاحبك في المعتقل".

"كلام فارغ"..

"كلام!.. خلص الكلام كله يا بن ياسين"، قالها وصاح في جنوده المنتظرين أمام البناية ليستعدوا للتحرك وخرج غاضبًا فاستوقفته شقيقته

"الغدا يا أخويا"، تجاهلها وقبّل الطفل النائم على كتفها ثم أشار إلى صادق "خلّي المحروس ياكله"، تحرك نحو الباب ثم عاد واستدار إليه "ابقى كُل كويس يا ابن أختي، محدش عارف الأيام الجاية فيها إيه، ويمكن أكلنا ما يعجبكش".

"يالهوي.. قصدك إيه يا خويا"، سألته شقيقته فتجاهلها وصفق الباب خلفه بقوة أيقظت الصغير مفزوعًا، أسرعت إلى صغيرها واحتضنته وصاحت في صادق الذي لم يغادر الشرفة "عملت إيه في خالك يا واد؟"، بدا عليه التردد لحظات ثم عاد رنين الباب يرتفع فأشار إليها "افتحي لفاروق وخليه يدخل أوضته وتعالي يا ماما. أنا هحكي لك على كل حاجة".

***

اقتحمت قوات من الأمن المركزي مدعومة بقوات من الجيش، ميدان التحرير في الثالثة عصر أول أيام شهر رمضان، الموافق الأول من أغسطس 2011 وقامت بالقوة بإخلاء الميدان من المتبقين من المعتصمين، وعادت الحركة المرورية إلى طبيعتها؛ وقام الأمن بفرض وجوده في الميدان بتعزيز قوات عسكرية، لينتهي بذلك اعتصام استمر ما يقرب من الشهر، دون تنفيذ أي من طلبات المعتصمين الذين كانوا ينتمون إلى كافة التيارات السياسية.

نشرات الأخبار

"المتهم محمد حسني السيد مبارك"

"أفندم أنا موجود"

جلسة المحاكمة الأولى – 3 أغسطس 2011

٢٣

"يا لهوي" . .

صرخت رضوى في فزع وهي تضع يدها على صدرها، وشكري يدخل عليها غارقًا في الدماء، لم تسأله وإنما أسرعت تضع نفسها تحت ذراعه ليتكئ عليها "أنت كويس"، أشار بيده وهو يستند إليها ويلتقط أنفاسه "تمام . . ما تقلقيش . . كويس أنك مانزلتيش النهاردة"، نظرت إليه متساءلة فصمت وهو يُلقي بجسده على الأريكة "نزلوا فضوا الاعتصام".

"والناس؟"، تساءلت في لهفة وعاد يُشير إليها لتهدأ "كل اللي نعرفهم كويسين، أنا اتصلت بيهم"، رفعت يديها بالحمد بينما تابع "لكن فيه ناس كتير اتبهدلت، وناس تانية انقبض عليها".

عاد القلق يسري في ملامحها وهو يروي ما حدث "كل الناس كانت بتجهز للفطار . . فجأة هجموا علينا من كل ناحية . . الضرب بدأ بدون تمييز"، سقطت دموعها وعيناه تلمعان في غضب "ومش بس الظباط والعساكر . . تقريبًا كل بياعين الشاي والتسالي كانوا مخبرين، أول ما الضرب اشتغل جريوا على المدرعات وبدأوا يشاوروا على الشباب ويسلموهم".

"طب إهدى والنبي . . علشان خاطري"، ربتت على صدره وأمسكت بيده "قوم أسندك تاخد دُشّ وتغير هدومك الأول"، أمال رأسها وقبّلها "ما تخافيش . . أكتر الدم ده مش بتاعي . كنت بحاول أساعد الناس".

"الحمد لله إن محدش قبض عليك".

"مين قال لك كده"، ابتسم بسخرية "للأسف كنت الوحيد اللي خد حقه . جوز عساكر مسكوني والظابط بتاعهم كان هيضربني"، صمت برهة ونظر إلى عينيها المليئتين بالترقب "بس أول ما سمع اسم الوالد كان ناقص يمسح لي الجزمة . اعتذارات مالهاش حصر . ويقول لي شوف مين تبعك وأنا أخليه يمشي . واللي سيادتك تؤمر بيه"، عادت تربت عليه وكأنه

طفلها وسارت معه إلى الحمّام "عالم بنت كلب تخاف ماتختشيش".

شعر بالراحة وهو يتخلص من ملابسه. دغدغت المياه الباردة حواسه فبدأ يشعر بالانتعاش. أغمض عينيه وهز رأسه أكثر من مرة وهو يغمرها بالماء، وكأنه يحاول أن ينفض أحداث الساعات السابقة، فجأة شعر بلمسات رضوى الحانية "أنا معاك"، همست بها في أذنه فخدرت حواسه. هكذا وجدها ملتصقة به وشفتاها تنهمر بالقبلات على كل موضع في جسده، شعر بفوران عنيف وبدا له أن كل آلامه اختفت دفعة واحدة وهو يرفع جسدها الصغير إليه. أغمضت عينيها وألصقت شفاها بأذنه وهي تكاد تلتهمها "عايزاك".

ظلت الكلمة تتردد في ذهنه حتى عادا معًا إلى السرير. كررا الأمر أكثر من مرة حتى شعرت بالإنهاك "نهدى شوية.. هقوم أعمل لك حاجة تشربها"، ابتسم وأشعل سيجارة بينما ألقت إليه قبلة في الهواء واتجهت إلى المطبخ. التقط المرآة الصغيرة التي تضعها رضوى على الكومود ونظر لنفسه في تعجب مما حدث رغم ما عاناه طوال اليوم.

عاد يُفكر في أن كل ما حدث كان طبيعيًا، تذّكر ما قاله له أبوه ذات مرة عن الضغوط النفسية، والحروب التي تُصاحبها طاقة رومانسية هائلة "وغير أنك ممكن تعيش قصة حب خرافية وسط الحرب، كمان هتلاقي هرموناتك بتضغط عليك.. هتمارس الجنس بجنون أنت مش متعود عليه.. غريزة البقاء اللي موجودة جواك هتتمسك بالحياة لأقصى درجة وسط لحظات مُرعبة أنت عايشها.. تاكل، تشرب، تمارس الجنس، تحب بقوة وتتعامل بعنف.. بتكون عايز تثبت لنفسك أنك عايش".

"والثورة كمان حرب"، قالها وهو ينظر لجرح ساقه الذي عاد يشعر بآلامه وكأنه صبر عليه حتى انتهى مما يفعل، حاول أن يذهب خلف رضوى، إلا أن قدمه خذلته فتحامل على الأخرى حتى سقط على السرير من جديد.

دخلت رضوى فجأة وهي تحمل صينية "كنت عارفة أنك هتعمل كده"، ابتسمت ومسحت قطرات من العرق ظهرت على جبينه "يعني

مش كفاية اللي عملناه. أنت لازم تريّح ولو النهاردة بس"، اعتدل والتقط أصابعها وقبّلها "لازم أنزل كمان شوية.. أمي عايزاني في مشوار فشخرة كالعادة، تغير وجهها إلى القلق "طب ما تعتذر"، ابتسم وربت على شعرها "ساعتها هلاقي حراسة الباشا الوالد جاية علشان توصّلني.. هيعرف إني نزلت الاشتباكات واتصبت"، وضحك ساخرًا "وتلاقيه عِرف أصلاً وبهدل العيال الغلابة اللي باعتهم ورايا من غير ما أعرفهم".

لم ينته من عبارته حتى ارتفع رنين هاتفه بالنغمةٍ المُميزة "أنا الوحيد في مصر اللَي بيكلمني من رقم بيظهر"، قالها ضاحكًا وأشار لها بالصمت وهو يُجيب "معالي الوزير"، صمت واتسعت عيناه وقد بدا عليه الانزعاج "ومين قال إني عايز حاجة. حولتهم معاش!.. علشان ما خدوش خرطوشة مكاني.. أنا تمام.. ولا أي دكتور، هم عالجوني في المستشفى الميداني.. يووه.. أنا آسف.. طيب وماما.. حاضر.. مع السلامة"، أغلق الهاتف ونظر إليها في ضيق "حوّل الناس اللي كانوا ورايا كلهم للمعاش"، وضعت يدها على كتفه وتساءلت "لا كده بقى لازم أفهم.. هو أنت أبوك وزير الداخلية؟".

فجّرت عبارتها ضحكاته العصبية "مرة سألتيني أبوك وزير، وقلت لك من غير وزارة زي اللي بتشوفيهم، لو كان وزير الداخلية كان الموضوع بقى هيّن. كان هيبقى لواء وفي يوم من الأيام هيطلع معاش، ومحدش هيفتكره إلا لو عمل مُصيبة"، بدا في عينيها الفضول وهو يُتابع "لكن أبويا.. ده من غير مُبالغة أهم وزير في مصر.. وفي الوقت نفسه محدش يعرف عنه حاجة"، نظرت له في تساؤل ترجمه لسانها "ده اللي هو إزاي يعني.. مالوش في التلفزيون"، صمت وهو ينظر لجرحه ثم عاد يرفع عينيه إليها "فنجان قهوة وندخن سجارتين وأنا بفهّمك".

***

انصرف عبد الحكيم عامر إلى تثبيت مركزه، ليس فقط داخل القوات المسلحة، بل في البلد كلها.. وهكذا دخلت مصر أسوأ دوامة يمكن أن تدخلها. فالقوات المسلحة التي فاجأها الانفصال وهي فِي حالة عدم استعداد زاد فيها الإهمال، ثم جاءت حرب اليمن، فبدلاً من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال.. ولم يكتف عامر بهذا، فلكي يثبت أقدامه في جميع المجالات سعى إلى أن يعهد بالمؤسسات من الضباط السابقين، ونفس الشيء بالنسبة لرؤساء المدن وجميع المراكز الحساسة في البلد، حتى الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش في توزيعها..

كان عبد الحكيم عامر يتصور أنه بهذه الإجراءات يثبت نفسه عند الشعب، ولكنه لم يكن يعلم أن العكس هو الذي حدث.. فقد زادت هذه التصرفات من سخط الناس عليه وتبرمهم بالنظام بأجمعه.. وفي أعقاب الانفصال كانت البلد ممزقة نتيجة لكبت الحريات وعدم وجود الديمقراطية بأي شكل من الأشكال.. مما شجع العناصر غير الراضية على أن تتحرك وهكذا ازداد تململ الشعب وقلقه.. وقد صوّر كل هذا إلى عبد الناصر على أنه ثورة مضادة، وبناء عليه فرضت الحراسات على السياسيين القدامى.. ولكن لم يكن هذا الإجراء كافيًا لامتصاص غضب الناس وتذمرهم، بل على العكس ربما زاده وعمّقه.

"البحث عن الذات" 1978 – أنور السادات

"هذا، وقد انحلت عقدة لسانه بعد الكأس الرابعة، وبدا حديثه أكثر تبسطًا. وعند استخدام أساليب الاستثارة من قِبل المصدر المتعاون معنا بدأ المذكور في الحديث عن قمعية الدولة، وانعدامِ العدالة، وتخريب العلاقات بين أبناءِ الوطن ممن وصفهم بيهود مصر، والأجانب المقيمين الذين تم ترحيلهم، إضافة إلى أنه سخر من نظام الدولة واصفًا إياه بالفشل.. وقد أضاف المصدر، وهو رفيقته، بأنهما أثناء تدخينهما مخدرِ الحشيش وممارسة الجنس ارتبك أداؤه وشابه الاضطراب، وقام مشعلاً سيجارة حشيش وهتف (الله يخرب بيتك يا عبد الناصر)، واتبع حديثه بألفاظ تنال من شخص السيد رئيس الجمهورية".

ألقى صفوت التقرير الذي كان يقرأ منه بصوت مسموع أمامه على مكتب التحقيق، ونظر إلى الشاب المُقيد المنهك الجالس أمامه بسخرية "ها يا نبيل.. تحب أكمّل لك التقرير، ولا نتكلم شوية مع بعض"، نظر له الشاب بعينيه الغائرتين من فرط التعذيب وحاول الابتسام "وأنت محتاجني أتكلم في إيه.. ده أنت عارف لامؤاخذة أدائي ع السرير"، أطلق صفوت ضحكته العالية وأشار بإصبعه "ولو عايزني أقول لك أبوك كان بيعمل إيه مع أمك لحد ما ربنا افتكرهم ممكن أقول لك".

"يا بيه بلاش الخوض في سيرة الأموات من فضلك"، قالها وهو يحاول أن يرفع رأسه إليه، تجاهله صفوت والتقط قلمه وبدأ يعبث به بصوت يُثير أعصاب الشاب "عايز تراعي حُرمة الأموات يبقى خليك لطيف. يا راجل أنا كل اللي محتاجه منك حاجة بسيطة.. امضي".

"هتفرق معاك؟".

"لأ.. لكن هتفرق معاك أنت.. متهم اعترف غير متهم تمت إدانته"،

بدا شبح ابتسامة على وجه نبيل "طالما جيت هنا يبقى في الحالتين ميت"، أومأ صفوت مؤكدًا قوله وأعطاه سيجارة وأضاف "بس خد بالك، لو بقيت لطيف أيامك هنا هتبقى أهون، هوصيهم يقعدوك بعيد عن الكهرباء. يقللوا مرات الجلّد"، صمت الشاب فاقترب ونظر له "يا أخي أنت مش عارف إن جهنم برضه طبقات. خليك في الطبقة الخفيفة بدل ما تكون في الدرك الأسفل اللي صدقني مش هتستحمله".

"صدقني بقى أنا مش خايف".

"بس أنت لازم تخاف"، قالها صفوت وهو يثبت عينيه المخيفتين في عينيه فنظر له بدوره "اللي يخاف يكون عنده أمل في حاجة.. أم ياخد باله منها.. وظيفة محترمة ممكن تضيع منه.. حبيبة ضحكتها بتخلي يومه أحلى"، صمت لحظات أشعل خلالها السيجارة ونفث دخانه في وجهه "تقدر تحريات سيادتك تقول إن عندي ولو حاجة من دول.. مفيش"، هز كتفيه وأطلق أدخنته وابتسم "يعني ولا مؤاخذة، أنت اللي لازم تخاف".

بدت على ملامح صفوت الغضب الشديد وصاح فجأة "نُصحي". دخل الشاويش الضخم إلى الغرفة فأشار إلى نبيل "يتحط في الانفرادي لحد ما يعقل"، همّ الرجل بتنفيذ الأمر فاستوقفه وهو يهمس في أذن الشاب "وبعدين زي ما قلت.. أنت مقطوع من شجرة، لا عندك أهل يسألوا ولا صاحب راجل يقدر يقرب من هنا ويقول اسمك حتى. صدقني يابني. قضى أخف من قضى".

سار الشاب ببطء مع الشاويش في الممرات القاتمة، دار بذهنه أن كل واحدة من تلك الغرف المقبضة التي يمر عليها لا بد وأنها تحمل قصة مُشابهة لقصته، لا بد وأن هناك آخرين رفضوا بصوت مسموع فكان نصيبهم هذه المقبرة؛ لم تكن الأساطير التي سمعها من رفاقه عن الاستجوابات والتعذيب حقيقية. كانت أقل من الواقع الذي اختبره جلده المُهترئ من كثرة عبث السجانين به. تساءل عمن كان السبب فيما أتى به إلى ذلك الجحيم حقًا، أهي كلماته مع تلك العاهرة، أم أن الأمر يسبق هذا. ربما منذ ارتفع صوته في الجامعة لأول مرة عقب انتهاء الوحدة مع سوريا. عادت ذاكرته لتسرد

عليه تفاصيل ذلك اليوم وكأنها تعبث به بدورها.

"وآدي آخرتها.. رجّعوا المشير في طيارة بالبيجامة".

يومها قالها بحنق وصوت مرتفع وسط زملائه في الجامعة، أسرعت مجموعة من المحيطين به في الابتعاد بينما التفتت له زميلته ليلى وهمست "الله يخرب بيتك.. الحيطان لها ودان يا مجنون"، تجاهلها وعاد يرفع صوته "يعني هو ده العقل. قاعدين يبعزقوا فلوس البلد يمين وشمال واحنا حالنا بينزل من سيء لأسوأ، وآخرتها كمان إهانة"، وضعت يدها على فمه فأبعدها "إيه.. مالك.. أومال لو إنتي مش من شباب التنظيم الطليعي وأبوكي واحد من كبار الاتحاد الاشتراكي".

"ما هو علشان كده بقولك اسكت.. اقفل بُقك اللي هيودينا في داهية ده". بدأ يهدأ قليلاً وصدره يعلو ويهبط مع أنفاسه المرتبكة "مرة قالوا لنا دي حركات التحرر الوطني. لازم نسند البلاد اللي حوالينا، واللي بعدها قالك القومية العربية، كلنا نبقى مع بعض"، ضحك ساخرًا بصوت عال، وأضاف "مكنتش أعرف إن القومية بالبيجامات"، عادت تتلفت حولها في خوف وضغطت على يده "طب خلينا نتكلم برة الجامعة".

"ليه؟.. مش هم قالوا قادة المستقبل. أهو إحنا بقى بالشكل ده مالناش مستقبل"، أمسك كتفيها ونظر لها "يمكن إنتي ما تفهميش الكلام ده.. بنت متدلعة، وأبوكي سياسي كبير، ومستقبلك مضمون. مالك إنتي ومال العّك اللي بيحصل ده. إقري يا أستاذة المجلات والجرايد الأجنبية. اسمعي راديو دمشق. شوفي بيقولوا علينا إيه".

"يا خوفي من كلامك ده".

"خش يا فاسد.. ربنا يتوب علينا من اللي شبهك"، قطع الشاويش ذكرياته وهو يدفعه في زنزانة تصلح للدفن أكثر من البقاء "هقعد هنا كتير"، سأله في وهن فأجابه باحتقار "الله أعلم.. وقت ما التحقيق يخلص هنرميك مع الكلاب اللي شبهك".

صمت وهو ينظر إليه بحنق، بينما بصق الرجل على الأرضية أمامه وهو يُغلق الباب بعنف. مع الصمت المطبق الذي ساد المكان جلس في زنزانته

يفكر . . بالفعل كان صفوت يقول الحقيقة ، سيظل لديهم إلى يوم الدين ولن يهتم أحد حتى هو نفسه ، هو يحيا وحيدًا بعد انتقال أبويه إلى جوار رب رحيم ، وعائلته تخلت عنه منذ وفاتهما . أصدقاؤه "غلابة" كما يردد أقربهم إليه وذكّره الرجل منذ قليل . ليلى حبيبته ، أو التي كانت ، تجاهلته منذ فترة طويلة لم يعد يهتم بذكرها . هي بدورها لن تُضحي بمستقبلها اللامع أو مركز أبيها القريب من رأس السُلطة . لا يوجد لديه ظهر يستند إليه . لن يهتم باختفائه سوى شخصين أو ثلاثة . سيبحثون عنه بضعة أسابيع على سبيل الوفاء ثم يصيبهم اليأس . سينسونه كما يُنسى الجميع .

شعر بأن رأسه يكاد ينفجر ، بالفعل التفكير أقسى من التعذيب ، فهو لا يستطيع إيقافه بينما من يُعذبه قد يتوقف . سالت دموعه عندما شعر أن التخفيف من مصيره الهالك لا يعني سوى الانحناء لكلمات جلّاده . حاول عدة مرّات أن يُنادي على الشاويش حتى خرجت كلماته بصعوبة «يا شاويش نُصحي» .

***

٢٥

«صباح الخير» . .

انتفض شكري من نومه لدى سماعه صوت صفوت في غرفته، التفت سريعًا ناحية رضوى العارية جواره فوجد موضعها خاليًا، فعاد ينظر لصفوت اللي هز كتفيه «أنا ما دخلتش إلا لما هي مشيت . . نزلت وسابت لك الورقة دي»، قالها وألقى الورقة أمامه «كانت ملزوقة على المرايا» .

«حاولت أصحيك لكن شكلك كان تعبان . . أنا نزلت أشوف الدنيا حوالين الميدان . . كلمني لما تصحى»، قرأ شكري الورقة وزفر نفسًا مكتومًا ووضعها جانبًا، عاد يلتفت إلى صفوت «مش عادتك تيجي الصبح»، ابتسم وقام من مقعده «بحب فيك إنك بتعدي الأسئلة الهبلة وتجيب الآخر»، بدت السخرية على ملامحه وهو يفتعل الاعتذار «معلش . . أنت عارف إني عبد المأمور، والمرة دي أنا جاي من عنده»، أشار إلى الكومود بجواره «النسكافيه أهو . . هلف سيجارة على ما تجهز» .

«أجهز؟!» .

«سيادة الوزير عايزك فورًا . . هنصطبح وننزل»، ألقى عبارته وخرج سريعًا، هز شكري رأسه بقوة نافضًا ذكريات الليلة السابقة، أسرع ودخل الحمام الصغير الذي يحمل بقايا عبثه مع رضوى، وقف تحت المياه المُنهمرة يغسل أفكاره، تساءل عن الاستدعاء شبه الرسمي الذي دفع صفوت لانتظار نزولها حتى يصعد ويوقظه .

«ما تعرفش عايزني في إيه؟» سأله محاولاً أن يُفاجئه وهو مُنهمك في لّف السيجارة، أجابه وهو مُستمر دون أن تهتز يده «ومن أمتى حد بيسأله، أنت ابنه تقدروا تتعاملوا براحتكم، لكن أنا، كفاية عليا أفندم، وحاضر، وجاري التنفيذ، وحصل سيادتك . . هو مش هيصاحبني ويحكي لي اللي

في دماغه»، تحرك وحاول أن يلتقط السيجارة من يده «شايف الموضوع يستاهل استدعاء زي ده»، أبعدها عن يده وأشعلها «ولا أي استدعاء، سيادتك تليفوناتك مقفولة، يبقى آجي أنا ولّا يتحرك هو ويقفل الشارع ساعتين، ونكلف الدولة ميزانية حرس وبنزين، والناس تدعي علينا ع الصبح»، نفث دخانه وغمز «كده أسهل»، ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي شكري وبدت له الفكرة منطقية وبعيدة عن القلق الذي انتابه لكنه تابع «دا غير إنه أصلاً ما بيتحركش لحد مهما كان. . أنت ناسي هو مين».

صمت ابن الرجل الأهم في المنظومة وأمسك بمشروبه وأخذ يرتشف منه بهدوء حتى أعطاه صفوت السيجارة فأخذ بضعة أنفاس وابتسم «ودماغك دي كلها مش فاهمة هو عايز إيه. . مش عادتك يا صفوت بيه»، ابتسم هو الآخر والتقط القداحة من على المنضدة قبل أن تسقط «وحتى لو عارف مش هقول لك. . ده اللي أبوك ربانا عليه».

«لا وما شاء الله التربية باينة. . أصحى من النوم ألاقيك في أوضة نومي».

«شكليات يا صديقي. . في شغلتي مفيش أبواب».

«ولا خصوصية!».

«احمد ربنا إنك مش واحد عادي زي أصحابك. . دول عندي ألوان ومقاسات بوكسراتهم، ياريتها جت معاهم على الخصوصية ومفاتيح الشقة».

أنهيا السيجارة سريعًا وخرجا من المنزل، وجد شكري إحدى سيارات أبيه المُميزة تقف أمام العمارة «وليه العربية؟»، أجابه صفوت وهو يتحرك نحو الباب «مش عايزين بقر يقفلوا إشارة ولا ياخدونا مُخالفة. ماليش نفس أخرب بيت حد بدري كده. وبرضه هرجع وأقول لك أوامره»، نظر له بغيظ مُتسائلاً «ع المكتب؟»، أشار له ليركب وهو يربت على كتف السائق «لأ. البيت».

أقل من نصف الساعة وكان شكري يدخل منزل أبيه. سار في الطرقات حانقًا، كان منذ طفولته يغتاظ من مظاهر الفخامة التي تُحيط به، وكل هؤلاء المُنمقين الذين يتحركون كالأشباح. طاقم الحرس الذي يكاد

يبدو من العصور الوسطى من فرط صرامته. الرهبة في العيون التي تُلقي نظراتها لذلك الجالس وحده، الذي يعلم أنه الوحيد الذي يُفتح له بابه دون تفتيش أو إجراءات مُعقدة. وصل إلى غرفة المكتب فدق الباب ودخل، فتح فمه ليُلقي التحية ولكنه تجمد في مكانه.

كان الوزير جالسًا في هدوء أمام الشاشة العملاقة التي تحتل نصف الحائط يُشاهد صورًا مُتلاحقه له مع رضوى في أكثر أوضاعهما سرية، كان يُقلبها سريعًا وكأنه شاهدها أكثر من مرة «تعالى يا شيكو. . ادخل واقفل الباب. . أمك مش هنا»، لمح نغمة السخرية في صوته وهو يُدير رأسه نحوه «راحت عشان حملة البطاطين بتاعة الجمعية بتاعتها»، تقدّم نحو أبيه الذي أشار له بالجلوس وأكمل سخريته «بنت الكلب جابت بطاطين بالسرطان علشان أطفال الشوارع اللي قاعدين في التحرير، بتغسل فلوس وتيجي تقول لي أنا علشان الغلابة. . فاكرة إن الجمارك سابتها تدخل البلد علشان معونة الشتا بنت أسرة محمد علي»، ظل شُكري واقفًا وهو يستمع إليه فعاد يُشير وانعكاس الإضاءة على ساعته الفاخرة يلمع في وجهه «ما تُقعد يابني».

جلس شكري متوترًا من هذا الاستقبال الساخر الذي أكمله أبوه وهو يُشير للشاشة «ولولا أنك بتأوي الشرموطة دي عندك كان زمانها خدت لها بطانيتين تموت بيهم. مش البطانية المورا اللي بتتلف فيها وأنت بتنام معاها»، صمت وهو ينقل نظره بينه والشاشة، لاحظ الوزير توتره فأغلق الشاشة وانحنى على المنضدة الصغيرة أمامه ليلتقط طبقًا مليئًا بالسجائر الملفوفة «خد ولّع سيجارة. . النطع اللي جابك عندي بيجيب حاجات مهببة بالنسبة للحاجة دي»، نظر له في دهشة فغمز «هتلاقي حتة حلوة في شقتك لمّا ترجع. هتحتاجها».

التقط شكري سيجارة وأشعلها «دا أنت عارف كل حاجة»، ابتسم الوزير وصمت لحظات دخل فيها أحد الخدم بصينية عليها كوبين من الشاي، انتظر حتى غادر الخادم وأغلق الباب فعاد يتحدث «وإلا مكنتش فضلت مكاني ثانية واحدة زيادة. من أول الاستقالة الهبلة اللي رمتها في الخارجية وجريت على التحرير، لحد ما صاحبتك نزلت من شوية علشان

تقعد على قهوة صالح»، وضع الطبق فمد شكري يده بالسيجارة، ولكنه أشار بالرفض «مش علشان سايبك تحشش معايا يبقى هنباصي السيجارة لبعض.. ده جو الكحيانين اللي سايبيني أنا وأمك وقاعد معاهم».

عاد شكري يضطرب. يكره طريقته رغم أنه لم يذكر أنه رآه يتعامل كالبشر. حاول أن يرد على حديثه ولكنه خاف على رضوى فآثر الصمت «أسمع.. أنت عارف إني بكلمة أمسح ذكر البنت دي من الوجود. حتى الأوراق الرسمية هتختفي منها. مش هقولك تبقى المواطن فاي. مش هتبقى مواطن أصلاً»، حاول الحديث، فأشار بالسيجارة المشتعلة ليُسكته «بس أنا جايبك البيت وبحشش معاك علشان تفهم إن بابا هو اللي بيكلمك مش الوزير المهم». اسكتان شكري في مقعده وعاد يشرب سيجارته، شعر بالاطمئنان من حديثه فأمسك بمشروبه وراح يُصغي «ما تفتكرش إني متفاجئ بالموضوع.. صحيح المعرّص صفوت كان بيعمل كل حاجة من ورايا، بس كفاية إنك بتنزل وسط البلد كل يوم».

«بتراقبني!».

«وليه ما تقولش باحميك.. أنت ابني الوحيد.. إذا كنت حاطط حراسة لكلاب السكك، يبقى المفروض أبعت لك مدرعات»، قالها وغمز بعينه «وأنت فاكر محدش لمسك طول الأحداث اللي فاتت ليه؟.. أدهم صبري حضرتك. المرة اللي اتعورت فيها كانت لأنك غشيم والبقر اللي وراك خدوا جزاءهم»، بدت على ملامحه الضيق لكن أباه استمر «حتى جوز الخولات والشرموطة المترجمة اللي لاجئين عندها محدش منهم اتلمس علشان بروح أمك لاجئ معاهم».

«وده مش استغلال نفوذ؟». فجّر سؤاله ضحكات الوزير الساخرة عاليًا. ظل ينظر إليه حتى انتهى من ضحكاته «يابني أنا النفوذ.. افهم.. أنت فاكر فرعون كان بيفهم.. هامان كان كل حاجة.. ربنا نفسه اتكلم عنه.. سيبك من جو الكتب اللي أنت وأصحابك غرقانين فيه ده». نظر في ساعته بقلق «نرجع لكلامنا»، أطلق والده ضحكة عالية، وهو يُشير بيده «مش هتلاقيها»، بهت لونه واتسعت عيناه في هلع « ما تخافش.. أنا لسه

مخدتهاش . . هي اتخانقت مع الأمن . . قفّشوا لها شوية وبعدين خدوها على القسم . . ما تقلقش . . محدش هيلمسها تاني ، بعد ما نخلص كلامنا صفوت هيكلمهم علشان تمشي» .

«ليه؟» .

«علشان هي أتفه من إني أتكلم عنها . . دي مش من قاع المجتمع . . دي من اللي شايلينه» . شعر بالضيق من عبارته ، ابتلع ريقه وأخذ نفسًا عميقًا من السيجارة نفثه بعيدًا «تمام . . اتفضل . . أنا سامع» .

«أنا معنديش مشاكل إنك تحب . . مش عيب ، حتى لو كانت شرموطة زي اللي أنت مرافقها . . دي الحاجة الوحيدة في الكون اللي محدش هيسيطر عليها ولا يقدر يغيرها» . التقط الوزير سيجارة أخرى وأشعلها مُضيفًا «وأنت ابني الوحيد . أنا مُمكن في لحظة أمسح تاريخها الوسخ كله . أغير اسمها ، وتاريخها ، وشكلها كمان لو عايز . أوجد لها عيلة ومعارف وأصحاب يعرفوا أنها بنت ناس من زمان . دي مش أزمة» .

«إيه الأزمة؟» ، سأله في برود ، فنفث دخانه « اللي أنت مش فاهمه إني مش هقدر أغير طبيعة الإنسان ، مش همسح من دماغها ذكريات الزبالة اللي هي جاية منها . القرف اللي عاشت واتربت فيه . مش هقدر أغير عقلها وخبراتها وتجاربها . دي مهما اتعلمت استحالة تنفع زوجة» .

«ده رأي مين؟» .

«ده رأي واحد شاف كل أصناف البشر وغاص جواهم» ، اقترب منه وبدت كلماته أقرب إلى الحنان «أنا بدي لك خبرة سنين في كلمتين ، مش دي يا حبيبي اللي تقدر تطمن على وجودها جوة بيتك . مش هتقابل بيها السفراء والوزراء اللي بتتعامل معاهم كل يوم . مهما اتعلمت هيطلع منها أخطاء تسوّء صورتك» ، صمت كلاهما للحظة أعادا إشعال سجارتيهما ثم تابع «عارف إن إحساس العشيقة حلو . . أفشخ من مليون جوازة ، بس أنت راجل دبلوماسي . . صورتك جزء مهم من حياتك العملية . أنا سبتك الفترة اللي فاتت دي تعمل اللي أنت عايزه . كان كفاية إني أشوفك مبسوط» .

«وإيه اللي اتغير؟» .

«صحيح أنا ماسك البلد كلها بإيد من حديد، بس ده ما يمنعش إن كل يوم فيه حاجات بتتغير. وخلاص بقى. الناس عاشت لها يومين في البراح، كل واحد بيعمل اللي هو عايزه. . بس أنا زهقت، . والجماعة زهقوا، وقريب هرجع ألمّها، وساعتها مش عايز يكون فيه غلطة عليك . . أنا النهاردة موجود. . بُكرة هتروح تدفني . . ساعتها بقى مفيش ضهر تتسند عليه، وولاد القحبة اللي شايفهم بيبوسوا الجزم دول أول ناس هتنهش فيك، حتى صداقتك بالواد المعرّص مش هتنفعك . . ده يبيع أمه علشان كرسي مطبخ مش كرسي منصبٍ» .

صمت شكري محاولاً استيعاب حديثه. كانت المرة الأولى في حياته التي يتحدثان فيها بصراحة كأب وولده الوحيد، شعر في هذه اللحظة أن القناع السيادي قد سقط عنه ليظهر وجه الأب القلق على مستقبله. ساد الصمت دقائق أنهى فيها كلاهما سيجارته، ونظر لأبيه مُستفهمًا فتابع «أنا مش هفرض عليك حاجة. . عايز تكمّل لفتك بيها شوية هسيبك تعمل ده. . بس خلي بالك إن مصلحتك في المقام الأول، وما تنساش كمية المصايب اللي هي بترميها على دماغك كل شوية» .

« ماهي برضه غلبانة ومالهاش ضهر» .

«ما تدافعش عنها، وأنت مش ضهر. . أنت لسه صغير. . أنا اللي عملت لك ضهر، وزي ما قولت لك لما أروح هتروح كل حاجة لو مش هتبني نفسك» . التقط الريموت وأشعل التلفاز مجددًا لتظهر مجموعة صور لرضوى في الشارع «عاجبك أنها كل شوية في قسم . . فرحان إنها بتتقفّش في المظاهرات من زبالة المجتمع . . مبسوط أنها كل شوية بتخليك تكلم كلب من كلابي علشان تنجدها» .

عاد للصمت مرة أخرى، لم يجد ما يرد به عليه، حتى حبه لها لا يُمكنه الدفاع أمام هذا المنطق الذي يتحدث به، شرد خياله لحظات فرأى نفسه وحيدًا كما قال أبوه «ساعات كتير الواحد بيضطر يدوس على نفسه علشان حاجة أهم. . عارف إن قلبك بيتوجع من كلامي. . بس لازم تفوق . .

كل اللي فات كان غطا البلاعة . . الماسورة نفسها لسه ما جبتش الخرة اللي جواها» ، قالها ونهض من مقعده لتعود ملامحه كالسابق «فكّر كويس . . مش هاخد منك وعد غير أنك تفكر في مصلحتك . . توعدني؟» . ظل صامتًا لوهلة وكأن يزن مُعاناته ثُم رفع رأسه إليه «حاضر . . أوعدك» .

«المُقابلة انتهت يا سيادة السفير . . مُستقبلاً» .

لم يشعر بنفسه وهو يخرج من المنزل ويستقل سيارته التي وجدها أمام الباب ، لم يفكر كثيرًا بعد الوعد الذي منح أباه إياه . أدرك أنه ينبغي أن يُنجز بعض الأمور ، أنهى بعض مهامه وهو يقود ، وحاول أن يسترخى أخيرًا في سيارته . نصف ساعة أخرى وكان زميله حسن يتصل به . تجاهل الرد مرتين وأجاب في الثالثة «أنت فين»؛ تجاهل سؤاله «قدّم لي على أجازة» .

«إيه اللي حصل؟» .

«سبتها» ، قالها وأنهى المكالمة . . مسح دمعة ، ثم أغلق هاتفه .

***

٢٦

«نمرة 18» . .

ارَتفع صوت الشاويش نُصحي مدويًا في الزنزانة الحقيرة التي استقر فيها صادق وأكثر من عشرين شابًا ، كرر الشاويش الرقم وهو ينظر إليه بغضب منتظرًا رده . رفع يده بهدوء وهو يستند على كتف أحد رفاقه لينهض فهتف الصول بغلظة «ما اقطع لك تذكرة للترام علشان تيجي على راحتك . . أسرع يا مُعتقل» ، تجاهل الجسد الذي أرهقه الصعق المتواصل بالكهرباء نداء الرجل الغليظ عن غير عمد ، ما اضطر الرجل إلى أن يجذبه خارجًا بعنف ، ويدفعه حتى بلغا مكتب قائد المعتقل . دق الشاويش الباب باحترام مُبالغ فيه أثار الدهشة في نفس صادق ، لكنها سُرعان ما تبددت عندما لمح وجه خاله جالسًا فوق المكتب ، خطا للداخل ببطء بينما أدى الرجل التحية وغادر وهو يُغلق الباب .

«عامل إيه يا صادق؟» ، أثار السؤال في نفسه موجة ضحك منعها الألم ، فاكتفى بالإشارة إلى مظهره الرث وهو يقول في هدوء «زي ما أنت شايف . . قصدي زي ما سعادتك شايف» . حاول صفوت أن يُبدي بعض الود تجاه ابن شقيقته الذي ألقاه بيده في هذا الجحيم «أنت لو بتتعاون كان زمانك قاعد في البيت . . بذمتك مش مشتاق لأوضتك ، ما وحشكش فاروق ونجيب إخواتك» .

«بلاش دور الخال لو سمحت . . لو ده حقيقي مكنتش رميتني هنا» .

«روابط الدم حاجة والواجب حاجة تانية . . أنا اتصرفت زي أي مسئول بياخد قرار علشان أمن البلد» .

«سيبك من الكلام ده . . أنا وأنت عارفين إن كلٍ ده علشان منصبك الجديد» ، أثارت العبارة ضيق صفوت الذي أتى محاولاً التخفيف من بقايا

الشعور بالذنب، قوله أصاب حقيقة ما يفعله في مقتل، بالفعل كل هذا من أجلِ الحفاظ على مكتسباته بعد نجاح الثورة، لولا ما يفعله لظل ضابطًا مجهولاً يأمل في الترقي الطبيعي حتى ينتهي به الحال في رتبة العميد على أقصى الظروف؛ بل لو كان أقل ذكاء أو مندفع الحماسة لكان شقيًّا في جحيم تحديد الإقامة مع نجيب وغيره من الضباط الحمقى الذين صدقوا الظواهر وتغافلوا عن ميزان القوة الحقيقية داخل الحركة. نظر إلى الفتى الذي يُغير من جلسته بين برهة وأخرى بسبب الألم اليومي، بينما استعاد ذهنه بداية الطريق إلى القوة المُطلقة.

«أنا بقالي فترة متابعك»، لم ينسَ عبارة صبري التي أقلقت أحشاءه حتى طمأنها بابتسامة صفراء وواصل حديثه «عندك قدرات غير عادية، معلومات مش موجودة إلا عند الرتب الكبيرة اللي تم إقصاؤهم بعد نجاح الحركة، دا غير ملفات تقييم كانت موجودة عند الحرس الحديدي بتقول إنك متميز في طرق جمع المعلومات وتقدير للمواقف على الأرض». لم يجد صفوت ردًا لما اعتبره ثناء من أحد قيادات الحركة فابتسم بخبث «أنا دايمًا رهن الأوامر يا فندم»، ابتسم صبري بدوره وربت على كتفه «واحنا واثقين من ده».

نهض صبري من مقعده ففهّم صفوت بدوره للنهوض لكن إشارة من رئيسه أوقفته، دار الرجل ليجلس في المقعد المواجه للثعلب الشاب وابتسم «طبعًا سمعت عن المشكلة اللي حصلت بين الناس في الحركة، خصوصًا الصفوف الخلفية، بعد اللي حصل ما بين جمال ونجيب»، أومأ برأسه وواصل الصمت مستمعًا بدقة «لمّا اتكلمت مع جمال وبقية الناس اتفقنا إن الخلافات دي ممكن توسع.. ممكن تنزل للشارع كمان، إحنا مش عايزين ده».

«كلام عاقل.. خصوصًا إن العالم كله كمان عينه علينا ومستني لنا على غلطة».

«بالضبط.. المؤامرات على البلد ما بتخلصش.. بس المؤامرات اللي برة شغل بتاع حد تاني مش بتاعنا»، ارتفع حاجبا صفوت في دهشة متساءلة أجابها صبري «فيه جهاز جديد بيتعمل علشان يكشف المؤامرات دي..

حاجة زي المكتب التاني في بريطانيا. دي مسئولية زكريا محيي الدين لو تعرفه».

«طبعًا أعرفه.. ده شيء عظيم».

«بس ده مش شغلك»، قالها واقترب منه أكثر «انت موهبتك ليها فايدة أكبر هنا.. جوّة الجيش.. في الشارع.. إحنا بنعمل جهاز تاني، في رأيي هو الأهم علشان الحركة تنجح.. يا ترى معانا؟».

«ودي محتاجة سؤال يا فندم».

«يبقى مبروك»، قالها صبري ونهض عائدًا إلى مقعده الوثير «من النهارده أنت واحد من مكتب حماية الثورة.. ده اسم مؤقت.. عندنا صلاحيات بلا حدود علشان نحمي الإنجاز اللي وصلنا له.. مش عايزين نسيب واحد أو حتى فكرة ممكن تهدد نجاح الثورة أو توقف إنجازاتها على الأرض.. مكتبنا تبعيته لجمال نفسه.. يعني تعاملك معايا وأنا باخد أوامري منه».

سادت لحظة صمت نهض بعدها صفوت وأدى التحية العسكرية بنفاق واضح «تحت أمر سيادتك»؛ راقت التحية للبكباشي حديث العهد بالسلطة فأضاف بغرور «أهم حاجة السرية يا صفوت.. دي أساس الشغل كله.. إحنا تقريبًا هنسيطر على كل مؤسسات البلد من غير ما حد يجزم بوجودنا.. اعتبرنا الأشباح اللي بتحمي البلد».

راقت العبارة الأخيرة لصفوت الذي أعاد تكرارها لنفسه وهو يُغادر مكتب صبري إلى مكتبه الجديد بعد أن تلقى منه كافة التفاصيل اللازمة لبدء عمله الجديد، يذكر أنه أقسم يومها أن يرتقي في هذا المكتب حتى يصل إلى قمته مهما كلّفه ذلك من تضحيات.. تذكر حينما كان في مطلع شبابه وكان الجميع يعتبرونه لا شيء، شفافًا في جلساتهم لا يستحق الذكر، كانوا يتحدثون بمنتهى الأريحية بينما ذهنه المدرب يلتقط كل التفاصيل ويحتفظ بها.

الآن – بعدما صار الأقوى – بات الجميع ينحنون أمامه في دهشة وهو يذكر لهم كل هذه الأشياء. كانوا لا يتذكرونه وأذهانهم تكاد تنفجر من

الدهشة والخوف، وكان يبتسم لأن سنوات الانزواء هذه لم تذهب سُدى.

«مش كده برضه يا صفوت بيه؟!».

انتزعه سؤال صادق من ذكرياته فرفع إليه عينيه في ضيق دون أن يُجيب، كان لا بد لخطوته القادمة من كبش فداء، وسيلة ذكية يُخبر بها القائمين على الأمور بأنه على استعداد لفعل أي شيء من أجل احتفاظ النظام بالسيطرة المُطلقة. حقًا الشاب هو ابن شقيقته الوحيدة، لكن لا مانع من إلقائه في السجن بضعة أشهر حتى يُثبت للجميع إخلاصه.

«سيادتك عايزني ولا هترجّعني الحبس؟!».

عاد صادق يقتحم أفكاره فالتفت إليه بحدة وكأنه يُعاقبه على هذا الاقتحام. تأمل نظراته المتحدية وجسده المنهك من الكهرباء بينما تركت الحبال الغليظة آثارها على يديه وقدميه البارزتين من بنطال تهالك بفعل أيام الاعتقال «اخرس.. الكلام هنا بإذن.. أنت فاكر نفسك في البيت وإحنا بنتكلم لحد ما الست أمك تخلّص الغدا.. فوق يا شاطر.. أنت هنا مُعتقل.. نمرة.. وأنا واحد من المسئولين عن استجوابك».

«قصدَك تعذيبي..» قالها صادق بالإنهاك الذي لازمه منذ دخل المُعتقل. شعر صفوت ببعض العاطفة حتى كاد يخبره بأن الأمر مؤقت لتعزيز موقفه، لكن حماسة الفتى المظلوم وأدت الفكرة عندما أضاف «وكأن فعلاً الكلام الفارغ المكتوب في المحاضر ده حقيقي. وكأنك قتلت عشرات الشباب هنا وأثناء الاعتقال لأنهم أعداء مش ناس بتقول رأيها. وكأن المؤامرات اللي الجرايد والراديو غرقانة فيها دي حقيقية مش من تأليف سيادتك أنت وزملائك اللي مفيش وراهم غير إثبات الولاء عن طريق أكبر عدد من المعتقلين. و..».

«نُصحي» قاطعه صفوت بصرخة هادرة استدعى بها الشاويش الضخم الذي هرول إلى داخل المكتب «أوامر سيادتك»؛ صمت وهو ينظر لابن شقيقته بينما جال بذهنه تدليله له إبان طفولته، نفض الصورة سريعًا وأسرع يُعطي أوامره قبل أن يشعر بعاطفة نحو الفتى المُنهك «تاخده انفرادي لحد ما تاخد أوامر جديدة.. ممنوع عنه الشمس أو الخروج من الزنزانة.. الأكل

مرة واحدة في اليوم» قالها ومال نحو صادق «بالمناسبة. أنا دخّلت فاروق الكلية الحربية. بكرة هو كمان هيبقى ظابط زيي، ونجيب لمّا يكبر برضه هدخله الكلية الحربية. أنت بقى هتفضل كده لحد ما تموت، وأنا هبقى أطمن أمك عليك.. في كل الأحوال يمكن ما تشوفهاش تاني».

«يلّا معايا يا نِمرة»، ارتفع صوت الشاويش وهو يجذب صادق بعنف لينهض وهو يؤديَ التحية العسكرية لصفوت الذي أشار إليه بالانصراف مُتشاغلاً في أوراق على مكتب قائد السجن. صمت صادق بينما يدفعه نُصحي في الممرات الخانقة حتى وصل به إلى إحدى زنازين الحبس الانفرادي التي ألقاه داخل أحدها صامتًا، مع آخر ضوء قبل إغلاق الباب استعاد قول أرماني في إحدى جلساتهما «جعان السلطة زي النار اللي بتاكل كل حاجة في طريقها».

***

٢٧

«آخد من وقتك دقيقة» . .

قاطع حسن زميل شكري أفكاره وهو مُنهمك في عمله . . التفتٍ سريعًا حتى كاد يُسقط قدح الكابوتشينو ، فأسرع حسن وأنقذه ضاحكا «جرى إيه . . سمعت سرينة مطافي» ، فأجاب سريعًا «ألشك رخيص . . لخّص علشان مشغول» .

عاد حسن وأغلق الباب وجلس وهو يُخرج علبة سجائره ويقدم له واحدة فرفع يده وأخذها ، ما جعل الآخر يرفع حاجبه «طب خدتها ليه؟» ، فأجابه وهو يُشعلها «ما أنت طالما قفلت الباب يبقى ناوي تطوّل . . وأنا عارف إنك مش هتمشي إلا وتكون بخّيت كل اللي في عبك . . ودخلتك فصلتني . . يبقى نشرب السيجارة ونكمّل الكابوتشينو»؛ ضحك حسن وسحب بضعة أنفاس من سيجارته «بس الموضوع سخيف» .

«لخّص وحياة أبوك» .

«المدير بيسأل على الصورة دي» ، قالها وهو يضع أمامه الـTablet الخاص به ، فالتقط نظارته الطبية وألقى نظرة قصيرة وحسن يُكمل "الأمن طلب منا الاستعلام ، هو عايز يعرف علاقتك بالناس دي . . خصوصًا إن معظمهم بقى عليه قضايا سياسية . . وأنت الحركة الجاية ممكن تبقى مستشار في أي سفارة" .

"وهو مش عارف إن المواضيع دي في إيد الوالد ولّا إيه؟" ، سأله ساخرًا فارتبك حسن "أنت عارف ، أنا بنفّذ التعليمات اللي عندي ، والمدير كمان" .

"المدير بينفذ تعليمات اللي أعلى منه . . ما تشغلش بالك" ، قالها ليُعفيه من حرجه ، موقنًا أن الوزير أمر بهذا ليُدرك كم هو ضعيف دونه ، عاد ينظر

إلى الصورة التي تجمعه بأكرم وفؤاد وجميلة مع طبيبة بالمستشفى الميداني ومخرج أفلام مُستقلة و . . رضوى . .

"عارف إني ممكن أكون بضايقك بس".

"قول له إني ماليش علاقة بحد فيهم دلوقتي . . وأنا هتصرف"، قالها وهو ينهض ويجمع أشياءه. نهض حسن مرتبكا والتقط الجهاز، وبينما يهمّ بالحديث قاطعه بإشارة من يده "وطالما بقت ماشية رسمي يبقى ياريت تخلص لي إذن انصراف قبل ما تمشي".

دقائق وكان يُغادر المبنى مُتجهًا إلى سيارته. ارتطم بزميلين وابتعد دون أن يعتذر، كان ذهنه قد عاد بالفعل إلى لحظة انفصالهما. يومها لم يتوقف عن التفكير ولو للحظات مُنذ غادر قصر أبيه. . كانت الضغوط تتزايد من حوله. كان يعلم أن الانفصال هو القرار الصائب، في الوقت ذاته لم يعلم كيف سيحيا بعد إبعادها عن حياته.

لم يكن يتخلى عنها، هكذا فكّر. . حتى مع وجود صفوت الذي كان يُلبي رغباته دون مناقشة كان رصيدها من الأخطاء قد فاق ما يُمكن تلافي تبعاته، يجد نفسه في مواجهة مع المحيطين به كل يوم. يضطر لإجراء عشرات المكالمات، واستغلال نفوذ أبيه من أجل إصلاح ما تفعله، حتى كاد صفوت نفسه يتركه وينفذ أوامر الوزير.

يومها عاد من القصر وظل واقفًا أمام شرفة مكتبه الخاص المُطلة على ميدان التحرير ما يقرب من خمس ساعات دون حركة سوى إشعال سيجارة تلو الأخرى. انتبه على صوت الباب. . يعرف أنها الوحيدة التي تستطيع دخول مكتبه دون أن تطرق بابه، قرر أن يكون قاسيًا حتى ينتهي الأمر سريعًا "من النهارده أنا ماليش دعوة بيكي . . استحملت عمايلك كتير وأنتي حتى مش في دماغك . . عيشي حياتك واعملي اللي عايزاه بعيد عني . . ولو احتجتي حاجة كلميني . . لو عرفت أساعد مش هتأخر . . بس علاقتنا انتهت"؛ قال كلماته دون أن يلتفت إليها حتى لا ترى دموعه الموشكة على الانفجار.

بدأت دموعها تسيل وهي تنظر إليه "بس . . بس أنت وعدتني أنك موجود . . ما قولتليش ده".

"ولا كان اتفاقنا إن يحصل كل ده . . أنا مكنتش طالب منك غير حضن . . ودن تسمع . . إيد تطبطب"، وابتسم بسخرية وعيناه تلمعان من دموعهما المحبوسة "النوم معاكي كانت آخر حاجة بالنسبة لي . . كان فيه حاجات مهمة كتير . . أنتي مش هتعرفي ده".

"قلت لي إنك هتفضل معايا" كررتها وهي تهتز منذرة بالانفجار في البكاء.

"إحنا الاتنين قلنا . . وأنا كمان كنت ساكت طول الوقت".

"أبوك والراجل الغريب اللي شغال معاه طبعًا هم السبب".

"مش بس كده . . كتير كنت بصلح وراكي من غير حتى ما أعاتبك، يمكن كانت دي غلطتي".

"قلت لي هفضل جنبك" . . صرخت بها بصوت عالٍ فالتفت إليها، انحنى على كفها فقبله لتسقط دمعة، أسرع يمد يدها ليمسحها ورفع رأسه و . .

"حاسب" . .

التقطت أذناه الصيحة التي أعادته لعالم الواقع، لمح حجر في الهواء يقترب من وجهه فابتعد في اللحظة المُناسبة، واستدار ليرى الفاعل فوجدهم مجموعة من الأطفال يخرجون ألسنتهم وهم يجرون بعيدًا عن متناوله.

"خرة"، قالها واندفع نحو سيارته، أدار مُحركها سريعًا، وانطلق في الشوارع بلا هدف، كانت مجرد رؤيتها في تلك الصورة القديمة يدفعه نحو استعادة تلك الأيام، التي يعترف – رغم كل ما اقترفته بحقه فيها – أفضل أيامه بلا مُنازع، كانت رؤيتها في تلك الأيام العصيبة كفيلة بأن تجعل تعاملاته وردود أفعاله تُثير الشفقة، خاصة أمام من يعرفون الحكاية.

ساعده أن اليوم إجازة في جعل الشوارع مُناسبة لانطلاقة سريعة، تحرك قاطعًا طريق الكورنيش كله في دقائق حتى أفاق في إحدى إشارات وسط البلد، أرخى ذراعه المُمسكة بعصا السرعة وطفق يتأمل وجوه البشر، رأى عدة قوافل صغيرة تتكون أكثرها من بضع فتيات وشاب أو شابين، تحوّل سخطه إلى الناس.

«وسط البلد وكائنات سينمات وسط البلد»؛ همس بها لنفسه مبتسمًا في سخرية وهو يتذّكر أيام المُراهقة، عندما كان يقنع حارسه بالتجول في الشوارع؛ لفت نظره شاب يُحيط بذارعه فتاتين ويُشير بالأخرى إلى السيارات الواقفة من الأساس.

«تصرفات أوفر. الله يخرب بيت الدش». عاد يهمس وهو يرى التحول الذي طرأ بعد انتهاء الأيام العصيبة، لا يمكنك أن تسير في الطريق أو تركب هذه المواصلة أو تلك بدون أن تقابل هذا الطراز السخيف، الفتاة وصديقتها اللتان تضعان الأصباغ بكثافة وتتظاهران بالإغراء بينما جوارهما ذلك الشاب الأحمق المتظرف، كل ما يقوله دعابة يضحك عليها هو وفتاتاه فقط. دائمًا انتقاده تافه يتظاهر بأنه لاذع، ولا بأس كذلك من استعراض القوة على بائع يظهر البؤس على ملامحه فلا يجرؤ على الرد، والفتاتان كلتاهما غير بعيدة عن هذا.

مع صافرة عسكري المرور أدرك أنه يُجهد نفسه في أفكار سخيفة ليُخفي ما يعتمل ذهنه، شعر فجأة بأن ضغطه ينخفض، أدار المقود واتجه إلى شقته واتصل بفؤاد في شبرا طالبًا منه المجيء «مش عايز أفهم حاجة خالص. أنا دماغي قربت تفرقع من التفكير»، قالها وأنهى المكالمة فوجد فؤاد يعاود الاتصال «طب تعالى أنت بقى طالما عايز الدح. مش هدب مشوار وأقعد في غير مالي»، ضحك «وأنت حيلتك حاجة أصلاً؟».

«يا عم تعالى. بس بقول لك إيه. المشوار ده بعيد عن أكرم وجميلة. كأنه ماحصلش»؛ هز رأسه وكأنه يراه بالفعل وأغلق الهاتف، عاد يركب سيارته لكنه وجد نفسه غير قادر على القيادة، فأشار لتاكسي توقف أمامه بتهّور.

«شبرا؟»؛ سأل السائق الذي يبدو تحت تأثير المخدر فأشار إليه بالركوب «وماله مش عيب. اركب». ألقى نفسه في المقعد الخلفي ذاكرًا العنوان وأراح رأسه للخلف فابتسم السائق في ذكاء وهو يُشغّل أغنية «أنا مش عارفني» لعبد الباسط حمودة، ثم بدأ في الثرثرة في موضوعات لا تتعلق ببعضها، جملة من هنا أو هناك كانت كافية لتصيب شكري بالضجر.

أغلق عينيه محاولاً إيهام نفسه بأنه لا يسمع كليهما – السائق والأغنية – إلا أن السائق لم يتوقف، كان بالفعل قد كوّن نظريته عن أمثاله.

أحدهم، ذلك الكائن الهُلامي الغامض. الشخص الذي تجدونه أمامكم فجأة، ثم يصير بعد ذلك بشكل ما واحدًا من المجموعة، فيكون من أول الحاضرين في أي موعد دون دعوة، تجده في زفافك ولا تدري كيف عَرف أنك تزوجت أصلاً. تجده يمر من الكاميرا أثناء التصوير حتى يُفسد الأمر باعتباره حنكة. . الذي يطلب الزواج من صديقتك التي رأته أول مرة منذ ربع ساعة. . الخبير في كل شؤون الحياة عدا الدورة الشهرية – فقط لأنه لا يستطيع أن يدّعي هذا – حتى إنه كان واحدًا ممن أشرفوا على إنشاء القاعدة العسكرية في قليوب، وهو نفسه الذي يصطاد السمك ببراعة تُنافس قدرته على الإخراج التلفزيوني، بينما كان في الوقت ذاته لا يترك ميدان التحرير لأنه مُنسّق عام الميدان وقاهر موقعة الجمل وقائد طابية الثورة. هو كذلك صديق الجنرالات وكاتم أسرارهم، والأستاذ المُثقف الذين تستعين به السُلطة في حل مشاكلها، حتى إن رئيس الوزراء الأسبق كان يتلهف على سماع أخباره وتحركاته. كان يعتقد أن هذا الطراز في الحلاقين والحمقى والمدعين ممن قابلهم في وسط البلد، إلا أن القائمة يُضاف إليها اليوم الكثير من سائقي التاكسي.

«وصلنا يا بيه». كانت كلمة الخلاص مع توقف السيارة لهما مفعول السحر، ألقى إليه بحسابه وأسرع نحو البيت فوجد فؤاد واقفًا بالخارج وعلى وجهه ابتسامة عريضة «تعالى. . هنروح مشوار الأول قبل ما نرجع هنا»، حاول التساؤل في دهشة لكن فؤاد لم يُعطه الفرصة وأسرع مُشيرًا إلى تاكسي آخر وهتف «الحسين».

سرعان ما كان يعبر مع فؤاد أزقة الحسين الضيقة. لم يستطع تذكر كم مرة دخل يمينًا أم يسارًا، فقط انتبه حينما انحرفا نحو مدخل قديم وضيق للغاية بين محلين يصل إلى درجات عتيقة «هنا الورش اللي بتعمل الشغل اللي أنت شايفه تحت»، قالها فؤاد وهو يصعد «ده مكان باختفي فيه لما أحب. أنت أول واحد يجي معايا».

«يا ابن الجنية» صدرت منه وهو يتأمل المكان بإعجاب. توقفا أمام محل صغير رآه يدق بابه «هعرفك على عم فكري». فتح الباب رجل في العقد الخامس يرتدي بول أوفر وتحته قميص أنيق مبتسمًا «جيت على رزقك يا واد.. ادخل».

دخلا إلى غرفة صغيرة للغاية بها آلات صقل الأحجار الكريمة، على الحائط أيقونات العذراء ويجلس فيها خمسيني نحت الزمن وجهه بدا و كأنه لم يرَهما فيما يتصاعد صوت أم كلثوم «الأولة في الغرام» من سماعات قديمة متصلة بمحمول من الجيل الأول «تشربوا قهوة؟» سألهما فكري وهو يستوقف مراهق يحتك به ليمر من السلالم الضيقة، فهز فؤاد رأسه «أنت شايف إيه؟» فأجابه «مش شايف». أشار العامل العجوز إلى الفتى ليحضر الطلبات وعاد يجلس موضعه «اقعدوا.. أهلاً يا أستاذ»، تأمل شكري المكان بعينيه «اتشرفنا يا عم فكري». ضحك فؤاد وهو يشير إليه بطريقة هزلية «الأستاذ ابن أهم راجل في مصر.. وعم فكري أهم راجل في شغلته»، توترت ملامح شكري للحظة ثم ابتسم بدوره «كل واحد أهم حد في شغلته».

«يعني أبوك بيشتغل مصر» ألقى فكري الدعابة، فارتفعت ضحكاتهم حتى سعل الرجل الخمسيني وقال بأنفاس متقطعة «يعني أسطى زيك يا أسطى فكري»، انفجر فؤاد ضاحكا بشدة وأشار إلى الرجل مؤمنًا على كلامه «ومش أي أسطى يا عم الأسطى. ده بيلفنا لامؤاخذة كلنا على صباعه»، عادت ضحكاتهم تتفجر ومعهم شكري الذي ارتاح لبساطة المكان والموجودين «ما أنا على صباعه معاكم يا أسطى».

«لا عشان الحلاوة دي خد ولّع أنت» قهقه بها الأسطى فكري وهو يُناوله سيجارة ملفوفة فأشعلها وجذب بضعة أنفاس ثم ناولها له. اكتفى أغلب الجلسة بالصمت وتبادل الأنفاس وهو يُتابع حديث الرجلين الذي يتناول مشاكلهما وحكاياتهما اليومية البسيطة، بينما انهمك فؤاد في لف عدة سجائر أخرى. شرد ذهنه طويلاً في حكاياته المؤلمة حتى انتبه على يد فؤاد وهي تربت على كتفه لينهض «مش يلا»، هز رأسه موافقًا وألقى سلامًا خافتًا على الرجلين ونهض.

«حاسب راسك يا أخينا» ، نبهه فؤاد وهما يهبطان الدرجات المتهالكة في حذر حتى وصلا إلى المدخل الضيق . فوجيء كلاهما بصفوت يستند إلى الجدار القديم ويدخن سيجارة في هدوء «سهرة سعيدة . . معاليه عايز يشوفك حالاً» ، نظرا إلى بعضهما في دهشة فنفث دخانه في وجه فؤاد وألقى السيجارة بعيدًا «أنت عارف إنه ما بيحبش يستنى» .

«لا معلش . . المرة دي خليه يستنى» . فوجيء صفوت برده فبدت عليه علامات الدهشة بينما التمعت عينا فؤاد وكأنه يتحداه بدوره ، نظر له صفوت باحتقار ثم عاد يلتفت لابن مخدومه بهدوء «أنا ما انصحش بده» ، أشار له بيده وأخرج علبة سجائره «مش عايز نصيحتك . خليها لك ولمعاليه» .

«يعني إيه؟» ، عاد صفوت يُكرر سؤاله بهدوء أشد فاندفع فؤاد وحاول دفعه «يعني تتوكل» ، قبل أن يلمس صفوت فوجيء بأصوات جلجلت في الزقاق الضيق لعشرات الأسلحة تستعد للإطلاق فتجمد مكانه ، نظر شكري للرجل في دهشة بينما ابتسم صفوت «عيب يا شاطر» ، همّ باستكمال حديثه لكن رنين هاتفه ارتفع فجأة فالتقطه وأجاب دون النظر إلى المتصل «أفندم . . تعليمات يا فندم» . أغلق هاتفه ونظر إلى شكري مُبتسمًا «كمّل سهرتك . الولاد دايمًا حواليك لو احتجت لحاجة . . تصبح على خير» .

لم يُضف كلمة واحدة وابتعد بخطواته الواثقة دون أن يلتفت لكليهما ، نظر كل واحد منهما إلى الآخر في دهشة بينما تتسع ابتسامة فؤاد «إيه شغل إعلانات المعجون ده» ، سأله فكرر ابتسامته وهو يُشير إليه بالصمت « رغم شوية الأكشن دول أقدر أقول لك رزقك في رجليك . . دا أنت النهارده هتدلع يا زميلي» . يلا نرجع عندي . أسرعا يستقلان تاكسيًّا أعادهما إلى منزل فؤاد الذي أخذه من يده ليصعدا بهدوء «هششششش . . الجيران» ، قالها له ساخرًا بصوت عالٍ وهو يفتح الباب .

«إيه رأيك؟» ، بادره وهو يدفعه إلى الداخل . . تحرك ببطء شديد ليجد فتاتين يبدو عليهما احتراف الرذيلة ، التفت إليه فضحك «إيه رأيك يا ابن البشوات؟ مش قلت لك هنفرغ الكبت يا زميلي . . أهو . . حسيت إنك مضايق من قعدة عم فكري الناشفة فعملت اتصالاتي ع الفيسبوك . على ما

وصلنا بقى فيه إزازة شيفاز وربع حتة وأهي نسوان قدامك. . روق دماغك زي ما أنت عايز. بذمتك أفرق إيه عن الأخ اللي رفع علينا سوق السلاح من شوية ده» ابتسم وأجابه «أنت معرّض لنفسك وهو معرّض للدولة». ضحك مشيرًا إلى المنضدة الصغيرة وهو يجذبه من يده، لم ينظر شكري إلى الفتاتين والتقط سيجارة ملفوفة من الطبق وأشعلها، ثم أمسك الزجاجة وملأ كأسه واستدار ليواجه النافذة.

«ملّاكي»، قالها وهو يبعد يده عن الفتاة التي احتكت به وهي تمد يدها لتأخذ السيجارة، فنظرت إليه باستغراب والتفتت إلى الآخرين «ياختي هو ماله ده. . إيه يا عم. . ما بتحبش المشاركة»؛ تجاهلها ونفث الدخان في وجهها، خطر له أنها تشبه رضوى كثيرًا، بينما نظر له فؤاد بدهشة ثم تظاهر بالمرح «نفك بقى من الجو ده. . يلا ننشط يا بنات. . هشغل لكم مزيكا»؛ قرن قوله بالفعل، والتقط هاتفه، وشغل أغنية رخيصة، قامت الفتاتان وبدأتا في الرقص بينما استمر في الشرب ناظرًا إليهما ببرود، خطر بباله أن رضوى كانت تحب هذا النوع من الأغاني رغم كل ما فعله لتحسين ذوقها.

«لا مؤاخذة». قالها وأخرج كل ما بجوفه.

***

وكانت حرب اليمن لا تزال مستمرة. ولقد أدت هذه الحرب إلى عملية إفساد لعدد كبير من الأجهزة الرسمية التي شاركت في إدارتها، فقد كانت الحرب بعيدة تمامًا عن كل رقابة، ثم إن المجهود الحربي كان بطبيعته متحررًا من القيود التي تطبق على غيره من أنواع النشاط الذي تقوم به أجهزة الدولة العادية. ثم إن الاعتمادات لحرب اليمن كانت سخية، فقد كان الهدف هو الوصول بالمعارك إلى نتيجة مقبولة بأسرع ما يمكن. ولقد أضرت حرب اليمن ضررًا بليغًا بشخصية عبد الحكيم عامر، وعكست هذه الأضرار نفسها بطريقة مأساوية على سلوكه في حرب يونيو 1967.

محمد حسنين هيكل– خريف الغضب

٢٨

«حلوة الفيلا الجديدة يا صفوت» . .

صدرت عن صبري نجم بإعجاب وهو يتجول في منزل صفوت الجديد، فانحنى في نفاق «من بعض ما عندكم يا فندم»، ابتسم صبري وأشار إلى الطابق العلوي «وأنت بقى سهراتك بتبقى فوق ولّا تحت»، ضحك صفوت في خبث وهو ينحني مرة أخرى «سيادتك ممكن تجرب الاتنين وتقول لي إيه الأحسن». ضحك كلاهما وهو يربت على كتفه وصفوت يُشير لأحد رجاله «يا عماد. . قهوة صبري باشا في الجنينة»، قالها والتفت إلى رئيسه «ولّا سيادتك تحب القهوة على السطح».

«لا خلينا في الجنينة أحسن»، أجابه وغمز «على الأقل نتكلم بعيد عن ودن الزملاء»، عادا يتشاركان الضحكات مرة أخرى وهما يتجهان إلى الحديقة التى وضع صفوت منضدة وبعض المقاعد وسط أشجارها الكثيفة. استمر صفوت في نفاقه وأزاح مقعده المفضل لرئيسه ليتمكن من الجلوس ثم دار وجلس في مواجهته «لازم أخلي النهاردة أجازة رسمية للطقم اللي شغال معايا بمناسبة زيارة سيادتك».

«كده كتير. . خلي شوية للقيادات الأعلى» قالها وظل يضحك بشدة رغم امتقاع وجه صفوت بعض الشيء، وأضاف «أومال لو جمال أو عبد الحكيم جالك هتعمل إيه، هتغيّر اليوم على اسمه»، هز صفوت رأسه في ارتباك وحاول أن يبدو طبيعيًّا «أنا تلميذك يا صبري باشا، لا يُمكن أنسى أفضالك عليا».

«علشان كده اختارتك. . عارف مقامك ومقام اللي حواليك». صمت كلاهما عندما اقترب عماد حاملاً القهوة، وضعها في صمت وراقبه صبري حتى ابتعد ثم التقط فنجانه وارتشفه باستمتاع «حلو البن ده»،

ابتسم صفوت وأشار إلى رجله الذي اختفى داخل الفيلا «عماد بيعمل طلب مخصوص من البن اليمني، النهارده يكون كيلو عند سيادتك تجربه»، ضحك صبري وأشار إلى الفنجان «أهو يبقى اسمنا طلعنا من اليمن بحاجة بدل ما هي عاملة زي البلاعة بتشفط كل اللي بنبعته».

«صحيح يا فندم.. أخبار المعارك هناك إيه؟». تكدر وجه صبري عند سماعه السؤال فأحنى صفوت رأسه مُتراجعًا «لو تجاوزت حدودي بعتذر سيادتك»، هز رأسه نافيًا «لا أبدًا»، صمتا لحظات ثم عاد يتحدث ببطء «الكلام ده هفضفض بيه معاك كصديق. لو حد تاني قاله ممكن يتسجن تاني يوم، لكن أنا عارف إنك الراجل بتاعي»، هز صفوت رأسه مؤمنًا فتابع «جمال طول الوقت بيستعجل نتيجة العمليات، حلم القومية والقضاء على كل الأنظمة الرجعية في العالم العربي خلّوه بيتصرف من غير وعي أحيانًا، موارد البلد بتضعف في الوقت اللي محدش متوقع إن أي بلد ترد لنا الجميل قريب. الجزائر ودول إفريقيا لسّه طريقهم طويل علشان يعملوا دولة حقيقية».

«بس اللي أعرفه إن قواتنا مسيطرة على الوضع هناك. دي التقارير اللي بتترفع لسيادة المشير».

«جرى إيه يا صفوت. أنت هتعمل زيهم وتكتفي بالتقارير»، أحنى صفوت رأسه ثانية في خجل وكأنه تلميذ أخطأ أمام معلمه فابتسم صبري «عبد الحكيم هو كمان مستعجل. محتاج لأي انتصار يدعم صورته قُدّام نفسه قبل أي حد. ضربة الوحدة مع سوريا لسّه أثرها جوّاه. ده خلاه يرّكز في اليمن وينسى إن الإسرائيليين ممكن يكرروا هجومهم في أي وقت».

«وسيادتك شايف إيه؟».

«بصراحة.. كان رأيي من البداية إننا برّه الملعب ده، لكن حماس جمال كالعادة لأي حركة تحرر كان فوق الحدود، كمان أوعى تنسى إن عبد الحكيم والسادات شجّعوه. ودول أصحاب عمره»، ارتشف من فنجانه الرشفة الأخيرة وأضاف «الظاهر إن السادات نسي العسكرية بعد ما بقى رجل دولة. خلاص بقى أفندي». صمت صفوت وكأنه يزن حديث

رئيسه ثم عاد يسأله «وبالنسبة للجبهة الداخلية، صحيح التقارير بتقول إن الناس مليانة حماس مع كل قرار، لكن اللي أعرفه إن فيه حالة تخبط كبيرة في الرأي العام».

«ومن إمتى يابني بيهمنا كلام الناس. اللي عايز يقول حاجة يقولها»، ارتفع حاجبا صفوت في دهشة فابتسم صبري في خبث «واللي يقول حاجة يشيل وزرها، طالما الناس شايفين نفسهم رجالة على القهوة يبقى يشرفوا عندنا ونشوف مين فيهم هيطلع راجل، ولمدة أد إيه». قهقه كلاهما بصوت عالٍ ولكزه صبري في كتفه «سيبك بقى من الكلام ده، هو إحنا قاعدين في المكتب»، فهم صفوت ما يرمي إليه واتسعت ابتسامته الخبيثة «الممثلة اللي سيادتك سألتني عليها في بيروت. أول ما ترجع هنعمل حفلة بمناسبة رجوعها»، ابتسم صبري في رضا فأضاف «وتبقى فرصة مناسبة سيادتك تختبر الدور اللي فوق. هيعجب سيادتك صدقني».

«واضح إنك عملت اختباراتك».

«تلميذك يا صبري باشا»، عادت ضحكاتهما ترتفع، ثم نظر صبري في ساعته «أنا لازم اطلع الرياسة دلوقتي. عندي معاد مع جمال»، نهض صفوت في احترام وأزاح كرسيه لينهض فربت على كتفه «إحنا كمان عندنا اجتماع كمان ساعتين علشان نشوف لو محتاجين مننا تكليفات. ما تنساش، تكون في المكتب قبل كده».

سار صفوت معه حتى باب سيارته الذي أسرع حارسه يفتحه. وقف مُشيرًا بيده حتى غادرت السيارة وأغلق رجاله بوابة الفيلا ثُم التفت إلى عماد «التسجيل واضح»، أومأ عماد برأسه وهو يُشير بأصابعه علامة الجودة «ممتاز يا فندم.. تحب سيادتك أضمه للأرشيف بتاعنا»، أومأ برأسه إيجابًا «وخلي على الشريط ده علامتين. مين عارف يمكن نحتاجه قريب، وساعتها مش هنقعد ندوّر عليه». أسرع عماد لتنفيذ الأوامر، بينما التفت صفوت إلى باب الفيلا وهمس «تلميذك يا صبري باشا».

***

٢٩

«صباح الخير يا صفوت بيه» . .

قالها قائد حرس الوزير الذي استقبله أمام البوابة «معالي الباشا في أوضة المكتب ومنتظر سيادتك» ، أشار صفوت له بالتحية فابتسم الرجل «مش ناوي تجيب سواق بقى . . الشوارع بقت زفت» ، ابتسم صفوت ابتسامة صفراء «أنت بتشوفها زفت بعيد عن موكب معاليه في يومين الأجازة . . ما تبقاش تاخدهم» امتقع وجه الرجل فأمسك عصا السُرعة وابتسم ثانية «وبعدين دي اسمها قيادة ، وأنا مش هخلي حد يكون قائد عليا . . يا قائد» .

تحرّك سريعًا وسط تحيات العاملين حتى وصل إلى باب المكتب . شد قامته ودق الباب فسمع الصوت الواثق يأمره بالدخول «إزّيك يا وسخ» هزّ صفوت رأسه فأشار إليه بالجلوس «ينفع تحبس الراجل علشان بنته عاجباك . . إيه الافترا ده . . تربية وسخة . . نجس» حاول صفوت الحديث فأشار بيده ليُخرسه «وبصراحة برضه هو مُغفّل ويستاهل . . مين قال له يخلّف مومس . . هو كمان معرّص بصحيح» . .

«يمكن ربنا عاقبه سيادتك» قالها وانتظر رد الفعل . . نظر إليه الوزير بوجه خال من التعبير ثُم انفجر ضاحكا «لا مؤمن أوي سيادتك . . من جُند الله وأنا ما أعرفش» ، زفر صفوت بهدوء حتى لا يلمحه الوزير وابتسم «ويمكن ربنا بيضرب الظالمين بالظالمين» ، تعالت ضحكات الوزير مرّة أخرى «مُخلص في شغلك صحيح أنت كمان» . .

«بنحاول نتعلم» . .

«يمكن اللي مخلّيني سايبك تعمل اللي على راحتك إنك مش ناوي تبُص لفوق . . أنت سعيد بوضعك ده . . شايف إنك مش هتكبر إلا لو أنا كبّرتك . . لو حبيت أحطك مكان عماد أو شريف هتشتغل . . ولو سبتك

بقية عُمرك مكانك برضه هتشتغل . . كل ده علشان تتعلم» صمت صفوت وأصغى إليه «علشان لو يوم حظّك وصّلك للمكان اللي أنا فيه ده تعرف تكون شبهي» ، وأشار إليه مُحذّرًا «وده مش هيحصل . . المرحلة الجاية محتجاك مكانك فترة طويلة» ، هزّ صفوت رأسه مؤمنًا على كلامه ، صمت الوزير ثُم أخرج سيجاره الفاخر «عارف أنا اخترتك ليه؟» ، أطلت نظرة مُتساءلة من عينيه فأشعل الوزير سيجاره وتابع «علشان أبوك كان بوسطجي» قالها وغمز «زي اللي قبلك» . .

صمت صفوت وسط ضحكات الوزير الذي التقط سماعة الهاتف الداخلي فجأة «اتنين شاي منهم الشاي بتاعي يا محمد» ، أغلق الهاتف وعاد يلتفت نحو صفوت «إيه بقى الهبّل اللي سايبينه يحصل في وسط البلد ده . . العيال طايحة . . طبيعي . . الدنيا شغّالة وكل حاجة ماشية زي ما محسوبة بالحرف . . ماشي . . اعتقالات من غير سبب . . مش هيكلفونا غير أكل وشُرب» ، واصل صفوت صمته وهو يتطلع إليه فتابع «ده مش شُغلك بشكل كامل . . عارف . . لكن ، اللي مش فاهمه فعلاً إنك توقّف الداخلية أكتر من مرّة علشان جوز الخيل والمومس اللي شكري سارح معاهم . . ترفع تليفونك في كل مرة بنت الوسخة اللي كان ماشي معاها بنقبض عليها . . تطلّع عيال مُعتقلين الداخلية هتموت وتسيبهم جوة» .

«أتصل أنا أحسن من إن شكري هو اللي يتصل سيادتك» نطقها وتردد أن يُكمل فأشار إليه الوزير بالاستمرار «هو هيعمل ده . . بعيد عن إنه ابن معاليك ، هو صاحبي لو كنت تمنحني الشرف . . وهو لسه ما خلصش من البالونة بتاعة الثورة . . فاكر إنه ممكن يعمل حاجة رغم إنه عارف إن سيادتك مش هتسمح بده» ، وابتسم بينما تصاعدت طرقات مُنتظمة على الباب ، أشار إليه الوزير بتجاهُلها فأكمل «ويكون كمان سيادتك تحت عيني بمزاجه ، بدل ما نبعت ناس يدوّخهم وراه هو وأصحابه» ، أومأ الوزير برأسه موافقًا بينما تصاعدت الطرقات على الباب في حذر . . ارتفع صوت الوزير آمرًا بالدخول . . برزت من الباب صينية الشاي على يد شاب مُتأنق .

صمتا لحظات وضع فيها الشاب الشاي وأسرع يستبدل المطفأة بأخرى

كريستالية لامعة، حاول الشاب أن يرفع عينيه إلى الوزير مُستفسرًا عن أوامر أخرى، ولكنه عاجله «وأنت خارج قول للحراسة تجهز»، أحنى الشاب رأسه أكثر وعاد بظهره وخرج سريعًا، أشار الوزير بيده إلى صفوت فابتسم «سيادتك عارف إني بشربه بارد شوية»، ضحك الوزير «دايمًا غير بقية البشر»، قالها وأراح ظهره إلى المقعد «وفؤاد.. ناوي تعمل معاه إيه؟»..

«سيادتك مُهتم بالواد ده؟».

«مش أنا.. بس اللي فاهمه إنه طول الوقت جنب شُكري».

«تمام سيادتك.. ده جنب حاجات تانية».

امتدت يده تلتقط سيجارًا جديدًا فأسرع صفوت يُحاول إشعالها، ولكنه أشار إليه بالتوقف «عارف إني ما بحبش ده»، أحنى صفوت رأسه اعتذارًا وعاد إلى موضعه بينما تابع الوزير وهو يُشعل سيجاره «عماد قال لي انطباعات غريبة شوية عن الولد ده».

«زيّه زيّهم.. دماغه طقّت من الثورة».

«طيب».. صمت لحظات عبث فيها ببضع أوراق أمامه، استجمع خلالها صفوت شجاعته «فيه حاجة كنت حابب أطلِع سيادتك عليها»، رفع عينيه إليه وابتسم ساخرًا وهو ينفُث الدخان في وجهه «عارف يا معرّص» نهض من مقعده فأسرع صفوت يتبعه «عايز تقول لي إن شكري قابل مومس شبهها في شقة صاحبه، وإنه سكر ورجّع في وشها وقام نام مع صاحبتها»، ارتفع حاجبا صفوت من دقة المعلومات التي لا يمتلكها هو نفسه ولكنه حافظ على صمته «أنت دايمًا غرورك بسبب سيطرتك بيخليك تنسى حاجة مُهمّة.. إنك جزء من المنظومة.. ترس داير في مُفاعل نووي»، التفت والتقط الشاي «عارف.. أنا هقول لك حاجة هتفخر بيها».

«كلام سيادتك ليَّ أصلاً فخر».

«بلاش تعريص.. أنا رايق شوية وهدي لك حكمة»، التفت والتقط الشاي «أنت كمان مذكور في القرآن»، صمت صفوت وتغيّر وجهه والوزير يبتسم «طبعًا.. ربنا قال إن فرعون وهامان وجنودهما.. أنت واحد من الجنود.. يمكن مش أحسن واحد.. لكن أفيَد واحد»، ارتشف

من الشاي ونظر إليه وهو يومئ برأسه فوجد عينيه لامعتين من الفكرة «يبقى شرف جديد مكنتش أحلم بيه» .

ابتسم الوزير في إعجاب «وشرفك القديم فين؟» قالها وعاد يضحك ، فابتسم صفوت «في خدمة سعادتك» ، عاد الوزير يضحك ثُم نهض «يلّا روح جهّز لي تقرير اتجاهات رأي وتقدير موقف وابعتهم لي على طول . . أنا رايح اجتماع . . أمّا نشوف اللي بيقولوا هيحلّوها شكلهم إيه» .

«سيادتك بتصدق الكلام ده . . خليهم يتسلّوا» .

عاد الوزير يبتسم وأشار إليه بالانصراف «وأنت ماشي أكّد على الحراسة . . ممكن الغبي اللي كان هنا نسي» ، بدأ صفوت في الخروج بظهره «محدش يقدر ينسى أوامر سيادتك» .

***

٣٠

تقلّب جسد حلمي على البلاط العاري في الزنزانة التي تجمعه مع صادق ونبيل وزميلهم العجوز عبد المسيح . كان برد الشتاء القارس قد أحال البلاط لقطعة من الثلج لا يحتملها جسده النحيل . أغلق عينيه وتذكّر أيامه خارج هذا الجحيم ، بينما البرق يضرب النافذه ذات القضبان الحديدية ليشق عقله نافذًا داخل ذكرياته . .

نسرين الجميلة وجولات كورنيش الإسكندرية . . مقاهي وسط البلد . . الأحاديث الخافتة الممتزجة بالبلل . . الميكانيكي الذي يُقسم أن سيارة أبيه المُتهالكة لم تُخلق لهذا الطقس . . جولات الشوارع الخلفية بحثًا عن الحشيش . . أولجا الوافدة وزجاجة الفودكا الروسية التي تعقبها مباراة في الجنس العنيف . . الكوفية الرمادية التي اشترتها أمه يوم دخوله الجامعة .

صوت الرعد يكاد يصم آذانه رغم جلوسه في زنزانة مغلقة . . لا بأس . . صوت الذكريات أعلى . .

الأحلام . . رغبة التفوق على أبناء الكوسه . . النشاط . . كواليس العمل الطلابي . . الرفض . . خداعه لنفسه بأنه الأقوى . . الزنزانة المغرقة في المياه في طقس يُشبه ما هو فيه الآن . . صفوت ذو الصوت الرخيم والنبرة الآمرة وجراب السلاح المتدلي من إبطه . . عرض لا يستطيع رفضه . . أبناء الناس الغلابة الانكسار .

«أنت كويس؟» ، سأله صادق فهز رأسه إيجابًا ونهض ، تلفت حوله وجسده تغمره ارتجافة خفيفة «هو عم عبد المسيح فين؟» ، سأله حلمي فابتسم «النهارده دوره في المطبخ . جهّز نفسك لشوية عدس زي السُكّر» ، ضحك كلاهما ونظر حلمي إلى نبيل النائم «عارف ينام إزاي ده؟» ، تساءل مندهشًا فأشار صادق إلى رأسه «زينا كلنا . . نايم بالذكرى الحلوة» ، بدت نظرة

متساءلة في عيني حلمي فأجابه مُبتسمًا «ليلى . . بقاله ساعة بينطق اسمها» .

بدآ يتسامران بهمس حتى لا يوقظا زميلهما الغارق في أحلامه . كان يرى نفسه في إحدى الحفلات التي كان يُقيمها طالب من الأثرياء ويحرص على دعوة الجميع لينبهروا بمدى ثرائه ، يومها استعار نبيل حلة زفاف جاره التي تبدو أنيقة ، وسار من منزله ببولاق حتى فيلا زميله في الزمالك كي لا تفسد البدلة من ركوب الأتوبيس ، راقه انبهار زميلاته اللواتي همست إحداهن في أذن زميله فوزي وهي تُشير إليه .

«ما تقف معانا شوية يا نبيل» ، قالها فوزي وهو يستوقفه فهز رأسه بالموافقة بينما كانت عيناه تجولان في المكان بحثًا عن ليلى ، كانت أغلب الأحاديث مملة كالعادة ، لكنه لم يكن يرغب في إظهار لهفته ، هكذا وقف يستمع لثرثرة رفاقه التي لا تنتهي حول السياسة وأوضاع البلاد .

«تفتكروا الحال هيوصل لفين؟» .

«أنا شايفة إن مشروع السد هيوفّر فرص عمل كتير . . ده لو عرفنا نربطه بمشاريع الإصلاح الزراعي» .

«سمعت إن الشيخ الشعراوي هيعمل حلقات منتظمة مع أحمد فراج» .

«بيقولوا إن عبد الناصر . . .» .

«بعد إذنكم» ، قاطعهم مُستئذنًا في الانصراف وبدأ يتجول في المكان ، لم يكن يعنيه الحديث عن عبد الناصر أو السياسة ، فهو جاء بحثًا عنها . دارت عيناه في المكان حتى لمحها تجلس بعيدًا عنهم ، ترتدي فستانًا أسود قصيرًا بدا في نظره غاية في الروعة ، كانت جالسة واضعة ساقًا فوق الأخرى وجسدها منحنٍ إلى الأمام قليلاً فبدت كإحدى فاتنات الإغريق . أجهزت على ما تبقى من أعصابه عندما أزاحت شعرها الأسود الطويل لتظهر رقبتها الطويلة الناعمة ، وأخرجت علبة سجائرها . . تعلقت عيناه بشفتيها وأسنانها البيضاء اللامعة وهي تدس سيجارة وتشعلها . . ود لو يقوم ليقبّلها أمام الجميع لكنه تمالك نفسه واتجه نحوها «وحشتيني» ، صدرت منه بعفوية فارتبك ، لكنها نظرت إليه ثم ابتسمت ليظهر بياض أسنانها أكثر وأشارت إليه بالجلوس «اسكت لحظة . . غمّض عنيك من فضلك» ، قالتها وهي تضع

إصبعها فوق عينه اليسرى فامتثل مندهشًا ولكنها تابعت دون أن تكترث بدهشته «أتمنى أمنية في سرك» .

«اتمنيت اتنين» .

«افتح عينك وانفخ رمشك اللي على صباعي» ، فعلها ونظر إليها مُبتسمًا ، فقد كانت تتعامل كالطفلة التي يراها في خياله دومًا «ها . . اتمنيت إيه؟» .

«أول حاجة . . نفضل مع بعض على طول» ، نظرت إليه وابتسامتها تزداد اتساعًا «والتانية؟» .

«إن عيني ما تبعدش عنك أبدًا» .

قطع ذكرياته صوت باب الزنزانة الصدئ الذي جعله يستيقظ فزعًا ، التفت فوجد الجنود يُلقون بعبد المسيح العجوز على الأرض وجسده ينزف من عدة مواضع ، أسرع إليه مع صادق وحلمي فوجده يبتسم ، نظرا إلى بعضهما في دهشة فكرر ابتسامته «أول مرة أعمل حاجة غير الكلام» ، تحولت الدهشة إلى تساؤل فأجاب «وقّعت الأذان الكبير بتاع العدس على الشاويش نُصحي» ، شهق نبيل وحلمي في دهشة بينما صاح صادق «ليه يا عم عبد المسيح . ده عبد المأمور» .

«ده راجل نجس» ، قال وحاول النهوض فساعدوه حتى استقر في موضعه بالزنزانة . بدأ حلمي يمسح الدم عن جسده وأخذ العجوز يحكي «كل ما أصب طبق يقول لي سمّي عليه ، أسمّي في سري وأنا ساكت . مرة في التانية في التالتة لقيته بيقول لي خليني أسمعك بتسمي ، بقول له باسم الأب والابن والروح القُدُّس ، ولسّه قبل ما أقول إله واحد ، ألاقي الوسخ يضربني بالقلم ويقول لي بتعزّم على الأكل بتاعنا يا كافر ، ما استحملتش ، رحت شايل الخشبة اللي ساندة الأذان . وقع عليه والعدس شوى جتته» .

«يا خبر أسود» ، قالها صادق فربت عليه بصعوبة مُهدئًا «دخل العقيد سعيد وسأل إيه اللي حصل ، قلت له ، وقلت هو علشان أنا مسيحي يبقى تعذيب واضطهاد في المعتقل كمان ، كان معاه الراجل الغريب ده وقال له خسارة إنهم يموتوني ، كفاية عليه خمسين جلدة» .

«مين الراجل ده؟» .

«بيقولوا له صفوت بيه» .

«أعوذ بالله» ، صدرت من نبيل الذي انتبه لوجود صادق فانفرجت شفتاه بالاعتذار ولكنه سبقه «هتقول إيه يا صاحبي ، أنا ابن اخته وقاعد معاك . ده أنجس من الشاويش نُصحي» . فجأة عاد باب الزنزانة يُطلق صريره المُزعج ويبرز منه وجه الشاويش محمود . التفت أجسادهم الهزيلة لا إراديًّا حول الرجل العجوز وكأنهم يودون حمايته فبدا شبح ابتسامة على وجهه «قوم يا صادق . . سعيد بيه عايزك» .

«سعيد بيه ولّا صفوت بيه؟» سأله متهكمًا ، فعاد وجه الشاويش إلى عبوسه «أنت هتهزر يا نِمرة؟ . . قوم فز بدل ما تنجلد زي الشايب اللي جنبك» . لكز عبد المسيحَ صادق مُشجعًا فنهض ببطء يتقدم الشاويش الذي أعاد إغلاق الزنزانة في ضجر . هرش نبيل رأسه متسائلاً «لعله خير . ولو إن العالم دي مفيش من وراها خير أبدًا» ، هزّ عبد المسيح رأسه «مفيش حاجة أسوأ من اللي إحنا فيه . الباقي كله كلام» ، أسند رأسه على الحائط وتابع «إحنا يابني مفيش حيلتنا غير شوية كلام وأفكار بنديهم للناس . كنت أبيعهم في كتاب . . أقولهم على قهوة . . أفك بيهم وسط العيال وإحنا بنتعشى» ، صمت لحظات ثُم أضاف «حتى عبد الناصر نفسه طلع مفيش حيلته غير الكلام ، ولما طلع الكلام مش قد القول والبلد حالها انضرب برضه سابوا الكبار اللي خاربينها وأنا وأنت قاعدين هنا . يعني لا هم سابونا ولا البلد حالها انصلح» .

«إلا أنت انقبض عليك ليه يا عم عبد المسيح؟» ، سأله نبيل في فضول وأضاف حلمي «صحيح . . محدش فينا عارف أنت جيت ليه ولا إزاي» . شردت عينا الرجل وكأنه يسترجع الذكرى القاسية «أنا عندي محل بقالة صغير يدخل لي قرشين ، لكن غير كده أنا كنت موظف في هيئة الكتب ، مرة جت واحدة زميلتنا في الشغل وطلبت مني أحل محلها علشان تلحق تروح ترضّع الواد ، قعدت تتحايل عليا وتقول لي ربنا يخليك يا عم عبد المسيح ، قلت لها وماله . وأنا قاعد جه واحد شكله تافه قعد يزعّق ويهلل

علشان بيدور على نشرة الاتحاد الاشتراكي ومش لاقيها في الفاترينة. قلت له بحُسن نية إنها مش فارقة وكلها كلام، افتح الجرنال هتلاقي كلام عبد الناصر هو نفسه كلام المشير هو برضه كلام صبري، وكلها كلام. وحياتك يا ابني ده اللي قلته».

وبعدين؟».

«ياريتني ما فكيت بالكلمتين، وأنا طالع من الشغل لقيت اللي بيكتفني وبياخدني على هنا. قال إيه، متهم بإهانة رئيس الدولة. الكلام ده يجي من سنتين، طبعًا اعترفت باللي هم عايزينه، أنا عندي بنت في معهد السكرتارية، زمانها اتخرجت دلوقت، والغلابة اللي زي حالاتنا معندهمش غير شرفهم وعيالهم»، دمعت عينا الرجل وهو يُكمل حديثه «وآديني أهو، قاعد مستنى أجلي، عارف إن حتى ملايكة العذاب أرحم من الكلاب اللي هنا».

«أدخل»، عاد صوت الشاويش محمود يتعالى وهو يفتح الباب ويدفع صادق داخل الزنزانة، بدا منشرحًا على غير عادته منذ تم اعتقاله «خير يابني»، سأله عبد المسيح فألقى جسده بجواره والتقط نفسًا عميقًا «أول مرة خير من ساعة ما جيت هنا يا عم عبد المسيح».

«هتخرج»، سأله حلمي بلهفة فضحك «مش للدرجة دي يا عم. الحكاية إن صفوت بيه كان عايز يغيظني، جه يقول لي إن أخويا فاروق اتخرج وبقى ظابط في الجيش. فاكرني هتحسّر وهزعل». ابتسم عبد المسيح رغم ألمه وربت على كتفه «ألف مبروك يابني»، وأشار إلى الباب «بس يا رب ما يطلع زي خالك».

***

هي الرجولة كنز ابن آدم..
لا تقول لي نجمة ولا كتّافات..
على الرصيف أنا صاحبي مات.

عمرو شوقي– قصيدة غير منشورة

انطلقت تظاهرة من شبرا باتجاه مبنى الإذاعة والتلفزيون ضمن فعاليات يوم الغضب القبطي، ردًّا على قيام سكان من قرية المريناب بمحافظة أسوان بهدم كنيسة قالوا إنها غير مرخصة، وتصريحات لمحافظ أسوان اعتبرت مسيئة بحق الأقباط..

تحولت التظاهرة إلى مواجهات بين المتظاهرين وقوات من الشرطة العسكرية والأمن المركزي، وأفضت إلى مقتل بين 24 إلى 35 شخصًا أغلبهم من الأقباط، فيما عُرف إعلاميًّا بـ«مجزرة ماسبيرو».

تقارير صحفية

٣١

«رأفت» . .

ارتفع صوت مريم وهي تدخل الجريدة منهكة فالتفت إليها الجميع في دهشة وهي تُلقي حقيبتها الكبيرة على مقعدها وتقترب من رأفت الذي أسرع يُنهي مكالمة ويلتفت إليها «مالك يا بنتي؟» ، ألقت جسدها على المقعد المجاور في إنهاك «شباب ماسبيرو نظّموا نفسهم ورايحين عند التلفزيون . . هات الكاميرا وتعالى معايا» . نظر إليها لحظات محاولاً استيعاب الأمر ثم هز رأسه «ثواني . . هاطلع أجيبها من المونتاج ونتحرك» ، قرن قوله بالفعل وأسرع يُغادر المكان فأشارت إليه «ووصي لي على نسكافيه وأنت طالع» .

«أنتي رايحة فين» ، باغتها مجدي بسؤاله فانتفضت بعنف وهي تُدير رأسها إليه «إيه قلة الذوق دي»؛ صوتها المرتفع جعل الجميع ينظرون إليها في دهشة مرة أخرى ، بدا على مجدي الإحراج فحاول رسم الابتسامة على وجهه المحتقن «أنا آسف مش قصدي . . أنا بس حبيت أساعدك» ، نظرت إلى لحيته غير المهذبة ومدت يدها والتقطت من حقيبتها سيجارة أشعلتها ونفثت دخانها بالقرب منه وخفضت صوتها «وبعدين يا مجدي . . قلنا مش هينفع . . لا أنت هتقبل تتجوزني على حالي ولا أنا هرضى أعمل اللي أنت عايزه» ، بدت خيبة الأمل في عينيه فنفثت دخانها مرة أخرى وتابعت «ولا إحنا حتى هينفع نتصاحب يا شيخ . . ولّا إيه؟» .

«استغفر الله» ، أسرع يقولها بينما عيناه تستقران على صدرها البض «يا مريم أنتي عارفة أنا بحبك أد إيه . . وكان نفسي يعني» .

«تهديني! . . لا يا عم . . لكم دينكم ولي دين . . ولّا . . أنت ليك اعتراض على النص لا سمح الله؟» .

«لا طبعًا استغفر الله . . بس الشيخ يحيى» .

«خليك ورا الراجل ده لحد ما هتروح في داهية وراه . . يابني أنت صحفي قديم وعارف مين يحيى ده وعلاقاته شكلها إيه» . صمت كلاهما لحظات وعامل البوفيه يضع أمامها النسكافيه ثم تابعت «وفي كل الأحوال يا سيدي أنت حر . . شيلني من دماغك بقى» . همّ مجدي بالرد عليها ولكن استوقفته نغمة الرسائل القصيرة فأخرج هاتفه بينما تظاهرت مريم بالانشغال عنه في وضع السكر ، اتسعت عيناه وهو ينظر إلى الشاشة ، ثم عاد ينظر إليها «طب بقولك إيه . . بلاش تنزلي التغطية دي . . كفاية رأفت ينزل يصور» .

«أنت بقيت مدير تحرير . . ولّا عبد الرسول حطّك مكانه لحد ما يرجع؟» .

«يا ستي لا ده ولا ده . . بس اسمعي كلامي» ، قالها وبدأ يخفض صوته أكثر «جت لنا تعليمات أننا ننزل ماسبيرو ندعم الجيش . عارفة ده معناه إيه» ، هزت رأسها نافية في سخرية فتابع «ممكن تحصل مجزرة» . صمتت لحظات وأشعلت سيجارة أخرى وهي تنظر إليه في بطء «يعني أنت عندك استعداد تضحي برأفت! . . يا أخي أنا كنت عارفة أنكم زبالة صحيح . . لكن أنت تفوقت على اللي علّموك» .

«مريم . . أنا مش هسمح» .

«تسمح إيه . . اسكت . . أنا مش عايزة لسانك يجي على لساني تاني» ، صرخت بها في الوقت الذي عاد فيه رأفت ونظر إليهما في دهشة «فيه إيه يا جماعة؟» ، نظر له مجدي بازدراء وغادر المكان بينما التفتت مريم إلى زميلة أخرى «نزلي يا بنتي عاجل على الموقع . . الجماعة تحشد أنصارها لمساندة الجيش في مواجهة التظاهرة القبطية» ، أسرعت زميلتها تكتب الخبر على الجهاز أمامها والتفتت إليها في تساؤل «المصدر؟» ، أجابتها وهي تلتقط حقيبة صغيرة من داخل حقيبتها الضخمة «اسألي الشيخ مجدي» .

في الوقت نفسه كان سعيد يتحرك وسط الشباب الذين يحملون الصلبان ويهتفون في حماس متجهين نحو مقر التلفزيون الرسمي ، كان مليئًا بالحماس رغم اكتفائه بالمشاركة في تأمين المظاهرة وعلى يمينه فؤاد الذي ظل يتلفت حوله «مالك يا عم . . إيه القلق ده» ، سأله وهو يمسك

ذراعه «إيه . . خايف الشرطة العسكرية تقفشك تاني؟» ، ظلت ملامح فؤاد جامدة ومال على أذنه «بص يا سعيد . . الطريق السالك ده مش طبيعي» ، ارتفع حاجبا سعيد في دهشة ومال نحوه بدوره «قصدك إيه يا صاحبي؟» ، أشار فؤاد إلى الشوارع الجانبية التي بدت شبه خالية في طريق المسيرة «من إمتى وهم بيسيبوا كل الشباب دي تمشي مسافة طويلة زي اللي اتحركت من شبرا لحد ما قربنا نوصل ماسبيرو من غير أي مشاكل . . إيه . . فجأة بقى عندهم حرية تعبير؟» .

«مش يمكن مش عايزين مشاكل؟» .

«تفتكر؟» ، قالها فؤاد ساخرًا وأشار إلى كتفه «وحياة الجثة اللي متعلّم عليها دي فيه حاجة غلط» .

«أنت اللي بقيت موسوس يا فؤش . . اسمع مني» .

لم يكد يتم عبارته حتى هزت الشوارع أصوات بنادق الخرطوش وهي تُطلق قنابل الغاز المسيل للدموع على المسيرة «مش قلت لك» ، قالها فؤاد وهو يُشير إليه ليتحركا بعيدًا فأسرع بجواره «بومة . . أنت بومة . . كانت ماشية زي الفل لحد ما حركت لسانك» . أسرع فؤاد يُخرج مفاتيح شقته ويدسها في يده «خد المفتاح . . لو اتعكشت روح أنت» .

«ولو تمام؟» .

«نتقابل ع القهوة . . انجز» .

افترقا فيما امتزجت أصوات القنابل والطلقات بصيحات الشباب العالية وهم يحاولون التقدم ، حاول بعضهم الوصول إلى المبنى فيما أسرع آخرون يحاولون حماية النساء والأطفال ، فوجئ هؤلاء بالعديد من ذوي اللحى يطبقون عليهم من الشوارع الجانبية ويحاولون الاشتباك ودفعهم للخارج مرة أخرى . لم يدرِ فؤاد بنفسه إلا وإحدى القنابل التي تم إطلاقها عشوائيًا ترتطم بظهره فيسقط بينما ترتفع أصوات سارينة الأمن المركزي المميزة ، حاول النهوض ليجد عشرات الأقدام تدهسه في محاولة للفرار وهم يصرخون «الجيش» ، حاول رفع رأسه ثانية فوجد سيارات عسكرية ترتطم ببعض الشباب وتزيحهم عن طريقها في عنف .

لم يدرِ فؤاد كم بقى على الأرض ، حاول النهوض متحاملاً على نفسه فوجد مجموعة من الملتحين يضربون رأفت المصور الذي عرفه إليه أكرم ذات مرة ، جال ببصره وهو غارق في السعال من الغاز ، معتقدًا أن صديقه جاء بدوره ، ظل يتخبط حتى تعثر في أحد الراقدين على الأرض وسقط بجواره .

حاول فؤاد التقاط أنفاسه مرة أخرى وسط الأدخنة التي تغطي الرؤية ، فاخترقت أنفه رائحة دماء عنيفة ، ظن أنه أصيب مرة أخرى فبدأ يفتش في جسده ليتأكد ، حانت منه التفاتة إلى الجسد الذي تعثر فيه ، لمح سلسلة مفاتيحه وأصابع الرجل قابضة عليها . فرك عينيه عدة مرات وهو ينظر إلى الجسد الغارق في الدماء ، أسرع يمسح الدماء التي تغطي الوجه بكمه وهو لا يكف عن السُعال فوجد ما تبقى من وجه سعيد وعليه ابتسامه هادئة ، بينما غطت ملامحه آثار إطار سيارة ضخم . ظل صامتًا وهو ينظر إليه بينما أصوات سيارات الشرطة والجيش تقترب . احتضن الجثمان وأطلق صرخة عالية أثارت خوف من يضربون رأفت ، فتركوه ولاذوا بالفرار .

***

في الخامس من حزيران/ يونيو 1967 شوهد على شاشات الرادار الأردنية سرب طائرات في طريقه من مصر إلى إسرائيل. وبعد أن أقنع المصريون الملك حسين بأنّ هذه الطائرات هي طائرات مصرية، أصدر الملك حسين أوامره بالمهاجمة على الفور- في القدس، وبالفعل كانت هذه الطائرات طائرات إسرائيلية في طريق عودتها من مصر حيث وجّهت ضربة مدمّرة لسلاح الجو المصري الذي فوجئ بالغارة، فبعد السخر من رابين لم تكن مصر مستعدّة لوصوله.

نتائِل لورْخ- مؤرخ إسرائيلي

لم يكن على «هود» سوى الابتعاد عن هذه الساعة الخطرة من وجهة النظر المصرية، التى تبلغ فيها الدفاعات المصرية الثابتة والمتحركة أقصى مدى لها.. وهذا ما فعله بالضبط؛ فقد ابتعد عن تلك اللحظة الحرجة بالنسبة لطياريه، التى يحتمل أن يواجهوا فيها طائرات الحماية والاعتراض التى تحلق فى الأجواء المصرية عقب أول ضوء ثم تهبط إلى قواعدها عند زوال الخطر كما تتصوره قياداتنا السابقة، كما أن الجنرال الإسرائيلى استفاد من تقارير الأرصاد الجوية التى أكدت أن الممرات التى كان قد حددها كمسار لطائرات الموجة الأولى من موجات الضربة الجوية، وتقع فى المدخل الشمالى للدلتا من ناحية البحر الأبيض، ستكون مغطاة بضباب لن ينقشع قبل الساعة الثامنة صباحًا، وسيكتمل انقشاع هذا الضباب بعد ذلك بنحو نصف الساعة، فإذا بدأت الموجة هجومها فى التاسعة إلا الربع، فإن طياريها سيضمنون رؤية واضحة تمامًا لأهدافهم من ناحية، واسترخاء مداهم الجوى الذى تحكم قياداته نظرية بالية من مخلفات الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى.

مذكرات الفريق طيار حسني مبارك

٣٢

انتفض جسد فاروق عدة مرات مع تعدد الانفجارات في الموقع الذي كان منذ أقل من ساعة قيادة وحدته. كان لا يصدق الكابوس الذي يحيا فيه منذ ساعات بعد أن باغتت المفاجأة الجميع. أمر مفاجئ بالانسحاب بينما كانت أحاديث القادة كلها تؤكد أن الأمر هذه المرة لن ينتهي سوى في تل أبيب. كانت خطابات عبد الناصر الحاسمة كوقود نووي يدفعهم نحو هاوية لم يدركها الآن بينما قذائف الصهاينة تهوي على رأسه.

«بيهددوا بالحرب اليهود.. بنقول لهم أهلاً وسهلاً.. إحنا مستعدين للحرب».

أزيز الطائرات يشق السماء كالرعد بينما تشبثت يداه بخوذته وكأنه يريد صم أذنيه عن كل هذا. طلقات الرصاص القادمة من الهليكوبتر التي تمرح في السماء تمزق رفاقه الذين كانوا يثرثرون قبل قليل حول النصر والصلاة في الأقصى والسبايا من فاتنات الجيش الإسرائيلي. كانت بقايا خطاب عبد الناصر تتصاعد من المذياع الذي اندهش كيف لم يتحطم رغم ما يحدث. حقًا كان يتوقع هدير الطائرات بين لحظة وأخرى، لكن الهدير جاء في الاتجاه المُعاكس. كان المفترض أن تدوي الانفجارات في النقب، أن تتصاعد الصرخات بالعبرية، أن يحترق العلم البغيض ذو النجمة السُداسية الزرقاء التي يمقتها. كان يسهر الليل متخيلاً مُعاناته التافهة في الحصول على تعيين أكثر للمسافة الطويلة بين وحدته وأقرب مستعمرة لليهود، كان يتخيل إيلا، أو ليلى كما كانت سيدات الشارع يُطلقن عليها، أسيرة لديه، بينما يضع سلاحه في وجه إفرايم أخيها المتغطرس الذي رماهم بنظرة احتقار قبل أن يُغادر إلى الأرض المحتلة.

«كل قائد في سيناء يعرف الأوامر كويس، وبعد انتهاء المعركة الجوية

هتلاقوني من غير شغل» .

الجملة التي تفاخر بها المشير وتناقلها الجيش كله ذهبت أدراج الرياح ، ودّ لو استطاع أن يسخر منه في وجهه مباشرة أو أن يكون هو وقادته في موضعه. كانت رائحة الدماء، إضافة إلى أصوات الألم المُتصاعدة قد جعلت التوتر يدفع وجبته الأخيرة لمحاولة الخروج مرة أخرى من أمعائه التي فتكت العصارة الحارقة بها . الأنين الذي لا ينتهي جعله يبدأ في التساؤل عن سبب بقائه في هذا الكابوس .

فجأة صمتت الأصوات حوله إلا من هدير الطائرات الذي بدأ يخفت حتى تلاشى تدريجيًّا ، بعدها لم يدرك كم لبث حتى استطاع الوقوف على قدميه . نظر حوله وقد عجزت حنجرته عن الصراخ من فرط بشاعة ما شاهده . أدرك أن مشهد المذبحة لن يُمحى من ذاكرته ما بقي له . عندما بدأ في التحرك أدرك أنه لم يخرج سليمًا تمامًا ، ألم فخذه لم يكن سوى شظية أو رصاصة طائشة مزقتها ، تعجب أنه لم يشعر بهذا طيلة فترة الرقاد الطويلة «وسط كل الدم ده» ، همس بها سخر من نفسه ، وتحامل ليبدأ زحفه نحو المجهول .

لم يدرِ عدد الأعوام التي سارها حتى وجد نفسه في مواجهة رفاق اللواء المجاوِر المقيدين بينما تضحك «مجندات جيش الدفاع» كما يصفن أنفسهن ، ورفاقهن يطلقون النار احتفالاً وإرهابًا للأسرى الذين بدورهم لم يفهموا كيف بدأت الحرب وانتهت بينما أفرغ أحدهم مثانته . كاد يعدو إلا أن واحدة من الفتيات شاهدته وصرخت بالعبرية في جذل «**יש עוד אחד שלא .. להביא לו**» .

رغم إدراكه أن الفرار لا يعدو إلا ضربًا من العبث مع هذه الفخذ المصابة فإنه تحامل عليها مُعزيًّا إياها بأنها على الأرجح آخر دقائق خدمتها في هذا العالم . بدأت طلقات الرصاص تتناثر في جنون حوله مع صيحات بالعبرية لا يُميز منها إلا سبابًا كانت تستعمله أم ليلى عندما يُعاكسها أو ليلى أحد المارة . سأل إفرايم يومًا عن معناه فتقلص وجهه بسخافة "لمّا تكبر هبقى أقول لك" ، كان يُدرك أنه يكرهه منذ التحق بالكلية الحربية وصار واحدًا

من "العساكر اللي بيحكموا البلد"، كما كانت ليلى تُطلق عليهم.

قطعت ذاكرته رصاصة عشوائية استقرت في ساقه الأخرى التي هوت به فجأة قاطعة خيط الدماء الذي رسمه على الرمال طول فراره، اقترب منه جنديان قاما بجره نحو الباقين. سرعان ما كان واحدًا من الطابور. أعوام أخرى من السير مستندًا على واحد من رفاقه حتى انتهوا إلى نقطة بعيدة، عندها أمروهم بالحفر. لا يدري كيف وصله هواء البحر المالح، أدرك حينها أن نهايته مميزة، كان دومًا يحب البحر ويطلب من أخيه صادق أن يتوغل معه فيه.

***

"كل سنة وأنتي طيبة يا جيجي" . .

انتفضت جميلة وهي تجد أكرم وشكري وفؤاد يقفون على السلم أمام شقتها ويهنئونها بعيد ميلادها ، فابتسمت في ارتباك واندفعت لتحتضنهم "دا أنا نسيت" . أسرعت تفتح الباب وأكرم يلتقط أكياسًا سوداء لم تلحظها وضحك "وهي دي مناسبة تتفوّت" ، ضحكت ونظرت إلى فؤاد الذي تحسس جيبه "لو طلّعت هديتي ع السلم هنتحبس" .

أسرعوا بالدخول وأضاءت جميلة الردهة ، وجدت المكان مليئًا بالزينة وباقة ورود موضوعة على المنضدة بأناقة فالتفتت إليهم مندهشة في سعادة ، بدت في عيني أكرم وفؤاد حيرة بددتها ابتسامة شكري "مرة من نفسي أستغل سلطة الوالد" ، تركته وأسرعت تلتقط الباقة فوجدت بطاقة صغيرة مكتوبة بأناقة "كل سنة وأنتي مُزّة" وتحتها توقيع صفوت ، امتعض وجهها ونظرت إلى شكري الذي التقط البطاقة ببساطة ومزّقها "ده التاتش بتاعه . . أنا آسف" ، هزّت رأسها مُتفهمة "مش مهم . . الورد حلو . . تسلموا لي يا جدعان يا حلوين" .

دخلت غرفتها لتُبدل ملابسها بينما بدأوا في إعداد الاحتفال ، أخرج أكرم من الأكياس زجاجة نبيذ فاخرة وبعض زجاجات البيرة بينما وضع فؤاد يده في جيبه ليُخرج قطعة حشيش فأشار إليه شكري "المرّة دي الحكومة بتمسي . . خلي حاجتك معاك يا أخ" ، قالها وأخرج من جيبه قطعة ضخمة التقطها فؤاد وقربها من أنفه "يا أخي برضه الناس دي مدلعة نفسها" ، ضحكوا وهم يكملون استعداداتهم . خرجت جميلة واتسعت ابتسامتها وهي تشاهدهم يتحركون بجد لإسعادها "ربنا ما يحرمني منكم . . يا رب أطمن عليكم" .

"بلاش جو أبلة الناظرة ده وحياة أمك"، تعالى صوت أكرم بها وهو يفتح زجاجة النبيذ فضحكت "أنا غلطانة يا موكوس.. شكلكم هتفضلوا معتّقين كده زي الإزازة اللي في إيدك"، ضحكوا جميعًا وغمز لها فؤاد "كل واحد مستني واحدة أصلي في حياته.. حاجة مش مغشوشة بدل السبرتو اللي مالي السوق"، ابتسم شكري وأضاف "مين عارف.. يمكن في يوم حد يلاقي حاجة تفرح".

مع ذكر الفرح تجمد أكرم في موضعه وترك الزجاجة على المنضدة دون أن يمسها، ارتبك شكري الذي حاول الحديث إلا أن جميلة لم تمهله واقتربت من أكرم "على فكرة.. فرح رجعت مصر"، قالتها بصوت خافت فالتفت إليها فؤاد في عتاب، فأشارت إليه وأكملت "كان هيعرف أول ما يفتح الفيس.. الموضوع مش سر.. إمبارح نزّلت على الـwall عندها صورة في المطار"؛ ظلّ أكرم على صمته لحظات ثم نظر إلى شكري الذي خفض عينيه "وطبعًا كنت عارف"، أومأ برأسه إيجابًا بينما افتعل فؤاد المرح "وهو حد يدخل ولّا يخرج من البلد دي من غير أوامر أبوه.. أديك شايف.. جه يجامل البت في عيد ميلادها جاب لها حشيش يديها إعدام مرتاحة"، ظهرت على شكري ملامح الضيق فربتت جميلة على كتفه "أنت عارف صاحبك.. مش هيبطّل الإفيه ده"، هز رأسه ببطء ثم نظر في ساعته ونهض "أنا مضطر أمشي".

"اقعد ما تبقاش زي العيال"، قالها فؤاد وهو يقترب منه فرفع كفه ليوقفه "في كل الأحوال أنا كنت همشي"، وغمز "الباشا عازمني على العشا.. أروح أنا بدل ما يبعت يجبني هو"، نغمة السخرية في صوته لم تفلح في إخفاء مرارته وهو يحتضنهم ويهمس لأكرم "حكم القوي يا صاحبي"، عاد ينظر لجميلة وتظاهر بالمرح "وعيد ميلاد سعيد يا مُزّة".

ساد الصمت مع إغلاق شكري الباب خلفه. التقط أكرم هاتفه بينما نظرت جميلة إلى فؤاد بغضب وفتحت فمها فأسرع يُقاطعها "اللي عنده دم أحسن من اللي عنده جوافة.. عارف أنك هتقوليها".

"والبعيد ما شاء الله معندوش لا ده ولا ده"، تجاهل فؤاد سجائر الحشيش

التي أعدها وأخرج علبة سجائره وألقى إلى أكرم واحدة أشعلها وعاد ينظر إلى هاتفه، وألقى الأخرى إلى جميلة التي عادت تُلقيها في وجهه، شعر بالغضب فصاح "جرى إيه يا جميلة. . أنتي هتطلعيهم عليا ولّا إيه؟"، أشارت إليه وهي تخرج إحدى سجائرها وتشعلها وتنظر إلى النافذة المغلقة "يا عم لا تطلعهم ولا أطلعهم. . كل واحد يحبس عفاريته بمعرفته".

"أنا بقول كده برضه"، قالها وأسرع نحو الباب وفتحه ثُم عاد يلتفت إليها "بشوقك يا بنت عمّي. . اللي عايز أخوه يدوّر عليه".

"وأنت طيب يا ذوق"، لم يجب صرختها وأغلق الباب بعنف وتعالى صوت خطواته الغاضبة، التفتت نحو أكرم الصامت الذي اكتفى برفع عينيه إليها وهمس بهدوء "إيه. . أقوم أمشي أنا كمان؟".

التقطت زجاجة النبيذ وشربت منها بعنف ثم التفتت إليه "أنتوا هتجننوني. . يعني هو أنا كنت قلت لحد يمشي؟. . أنتو جايين تفرّحوني ولّا تنكدوا عليا. . هي هدية عيد ميلادي. . تمام. . وصلت خلاص"، لم يرد واكتفى بهز رأسه وهو يلتقط سيجارة حشيش ويشعلها فصرخت "أنا بنت كلب إني طول الوقت خايفة عليكم. . واحد خارب الدنيا وعمّال يطلع من حفرة يقع في شرموطة. . والتاني يا عيني كل ما يعرف واحدة أبوه يخفيها من على وش الأرض".

"وأنا!" سألها، فعادت تشرب. . نظرت إليه بعينين بدأتا في الاحمرار وارتفع صوتها "ملك الاختيارات الغلط. . طول الوقت تختار اللي ما ينفعش وفاكر أنك الـsuper hero اللي هيعدل الدنيا. . اشتغلت في جرنال كبير وأنت مالكش في التعريص. . حبيت واحدة أبوها الفساد نفسه وفاكر أنك هتخطفها من عالم المشكلة فيه أنت مارينز ولا عجميست. . حتى لّما كلنا جينا نقول يا ثورة كنت واحد من اللي اختاروا الفريق الغلط. . وآخرتها زي ما أنت شايف".

"وأنتي؟!"، سألها وهو ينفث دخانه بقوة، بدت وكأنها تجمدت في موضعها. اقترب منها والتقط المرآة الصغيرة التي تضعها على المنضدة دومًا ورفعها أمام وجهها "بصي كويس. . لو أنا بتاع الاختيارات الغلط فأنتي ملكة

الخسارة. . خسرتي شغلك واكتفيتي تكوني مترجمة بالحتة في نفس الجرنال المعرّص. . خسرتي أهلك علشان حريتك. . خسرتي الوحيد اللي حبتيه علشان زينا راهنتي على ثورة مسروقة من يوم ما اتولدت. . حتى أصحابك شكلك هتخسريهم واحد ورا التاني لمجرد إن أعصابك مش قادرة تستحمل".

استمرت في صمتها فقرّب المرآة من وجهها أكثر "بُصي على ملامحك كويس. . تجاعيد عنيكي اللي زادت من قلة الفرحة. . نظرتك اللي مليانة قلق. . شعرك اللي ظهرت فيه خصلة بيضا"، سقطت من عينها دمعة فألقى المرآة ونظر لها "بتستهلكي نفسك في إيه. . آخرتها حفرة كل واحد هينام فيها بالدور. . مفيش مقاسات. . اسألي كمال وسعيد وكل اللي سبقونا لو تقدري".

ظلت في موضعها ودموعها تتساقط فأطفأ السيجارة والتقط هاتفه فاستوقفته "إيه. . هتسيبني وتنزل أنت كمان"، التفت إليها دون حديث فاقتربت منه واحتضنته "يا جدع افهم بدل ما تعمل زي الجحش اللي رفّص وجري ده. . أنتوا العيلة اللي اخترتها لمّا جت لي فرصة الاختيار. . إيه. . مش من حقي أعمل فيكم كده. . فرقتم إيه عن أهلي لمّا مش هتستحملوني"، ضمها إلى صدره فبدأت تبكي وهي تواصل حديثها "من حقي أخاف. . معدش فاضل لي غيركم. . فؤاد مش هيسكت إلا لمّا يحصّل كمال وسعيد. . شكري هيجي اليوم اللي أبوه يحكم عليه ينسانا أو يخفينا زي ما عمل في رضوى. . وأنت حكاية فرح اللي بتروح منك كل شوية وبعدين ترجع دي دبحتك. . أعمل إيه. . أرجع لوحدي تاني. . يا أخي حرام عليكم".

لم يرد. . ربت على كتفها في هدوء وأجلسها على المقعد "كل سنة وأنتي طيبة"، قالها وقبّل رأسها وأطفأ الأضواء ثم تركها وغادر.

***

٣٤

«نمرة 15» . .

ارتفع صوت الشاويش محمود الغليظ مدويًّا في زنزانة حلمي الانفرادية الضيقة، فانتفض جسده المُثخن بالجراح مع صوت المزلاج الصدئ والشاويش يفتح الباب بعنف كعادته رافعًا صوته لإرهاب الباقين في الزنازين الأخرى «يلّا يا خويا . . عندك تحقيق»، ابتسم بضعف ونظر إليه «هي الساعة كام يا عمّ محمود»، تلفت الرجل حوله وأخرج ساعته الكاتينا ونظر فيها وهمس «تمانية . . الليل دخل يابني»؛ رفع جسده الضئيل ببطء وبدأ يستند على الجدار القذر فرفعه الشاويش وعاد يرفع صوته بغلظة «جرى إيه . . وهو البيه الظابط هيستناك لمّا تاخد حمامك ولّا إيه»، قالها وغمز له وهو يقول بصوت منخفض «أنت عارف يابني . . الحيطان لها ودان».

سار ببطء مُستندًا إلى ذراع الشاويش نحو غرفة التحقيقات وهو يتلقى التحية من الزنازين المُغلقة التي كان ينهرها الشاويش بين الحين والآخر حتى لا يُعاقبه العقيد سعيد، مرّا بطريقهما بغرفة الاستقبال التي تخرج من بابها الصرخات دومًا «هو فيه وارد جديد يا عمّ محمود»، سأله حلمي فأسرع بخطواته ليبتعدا سريعًا وهمس «وقاعدين يحلفوا أنهم مش عارفين جايين ليه . . طب بذمتك أنت مش عارف؟»، عادت ابتسامته الضعيفة تنتصر على آلامه ونظر إليه «عارف يا عمّ محمود . . عارف».

استعادت ذاكرته المُنهكة ثورته القصيرة في مكتب شؤون الطلاب بالجامعة؛ يومها لم يتحمل أن يجبروه على أن يُجاهر بالذل الذي عاش فيه طوال عمره ويستخرج شهادة فقر حتى يستطيع استكمال دراسته بالجامعة، كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير . .

«قلت لك لازم شهادة فقر».

«يا أستاذ هو فيه فقر أكتر من كده. . دا أنا جاي بطالب بالمجانية».

«هو القانون كده» قالها الموظف وهو ينظر في أوراقه بروتينية مستفزة جعلته يشعر بالدونية أكثر فهتف «قانون!. . سلامات يا قانون. . أنتوا عايزين دماغنا في التراب لحد فين. . ارحمونا يرحمكم ربنا»؛ رفع الموظف عينيه إليه ونظر إلى ثيابه التي بدأت في التحلل من طيلة الاستخدام «احمد ربنا أنك عرفت تبقى طالب في الجامعة بظروفك دي. . ده عمره ما كَان يحصل قبل الثورة».

«ثورة. . سلامات يا ثورة. . لو الثورة دي هتخليني أذل نفسي يبقى كان لازمتها إيه. . فرقت إيه. . يبقى طظ»؛ تكهرب الموقف من عبارته الأخيرة وتلفت الموظفون حول أنفسهم، وصاح به رئيس المكتب «وطّي صوتك»، قالها وخفض صوته فجأة «الحيطان لها ودان. . بدل ما تروح في داهية»؛ كان الانفعال قد بلغ به مداه فصرخ بأعلى صوته «مش هوطي صوتي. . تذلونا وتقولوا ثورة!. . ثورة إيه يا كلاب العساكر يا ولاد الكلب. . مين استفاد غير شوية الضباط واللي في ديولهم. . قولي أنت ثورة إيه اللي تخليني علشان أكمل تعليمي أذل نفسي وأتمرمط في مصالح الحكومة علشان أكمل حياتي وأبقى بني آدم. . لكن حتى الفقر عايزين له شهادة. . ولازم اللجنة تيجي. . ويتأكدوا إن أبويا ميت. . وإن أمي دايرة تخدم في البيوت علشان نلاقي اللقمة. . وبعدين يتكرموا ويقولوا هنخليك تكمّل تعليمك. . انظر حولك أخي المواطن. . هتلاقي زمايلنا العرب بيتعاملوا كأنهم من الحاشية العسكرية. . عندك الواد العراقي الصايع اللي اسمه صدام بتاع الانقلابات. . علشان شبههم خدوه في حضنهم. . كل يوم بمشكلة بس عايش مرتاح وفلوس الحكومة مغرقاه. . فلوسنا. . يجي حد يكلمه يقولوا ده تبع عبد الناصر. . حتى صاحب البيت مش قادر عليه. . وإحنا اللي يفتح بقه بكلمة يلاقي نفسه في زنزانة تحت جزمتهم. . وتقول لي ثورة. . أحا».

«خلي بالك. . سعيد بيه مش رايق النهارده. . طاوعه وأنت ساكت». قطع الشاويش محمود تفكيره بعبارته الخافته وهو يدق الباب ويدلف

به إلى الداخل، كان العقيد مُتحررًا من زيه الرسمي مكتفيًا بقميصه الأنيق الذي يكاد ينفجر من الشحوم التي يضغطها تحته. بدا وجهه مُكفهرًّا وهو يُشير إلى الشاويش بتركه والانصراف «تعالى يا حلمي.. قرّب»؛ اقترب من طاغية السجن بخطواته الضعيفة متوجسًا فأشار إليه بالجلوس «اقعد.. عايز أتكلم معاك في حاجة»، جلس بنفس التوجس فنهض سعيد وأشار إليه أن يبقى جالسًا واقترب منه «أنا اخترتك من كل السجن علشان عارف أنك أكتر واحد غلبان هنا.. كلمتين بصوت عالي خلّوك معانا»، حاول حلمي الحديث فأشار إليه «أنا يابني مش نيابة.. عذّبتك وعارف إنك مظلوم.. دي أوامر.. حتى النيابة نفسها بتاخد أوامر».

شعر حلمي بالتوجس وأن هناك شيئًا غير عادي «وحضرتك عايز مني إيه؟».

«أفضفض.. اللي زي حالاتي ملوش أصحاب.. ملوش حد.. أنت مرمي في الزنزانة وأنا مرمي في مكتبي.. إحنا الاتنين بنتعذب»، قالها وتأكد أن باب مكتبه مُحكم الإغلاق ثُم عاد إليه «سمعت عن معركتنا مع اليهود اللي دايرة بقالها كام يوم».

«بيقولوا في الراديو وقّعنا يجي تسعين طيارة»؛ صمت الرجل وبدت على وجهه ملامح حزينة لأول مرة «مش حقيقي»، صُدم حلمي من الرد السريع وارتفعت عيناه إليه في دهشة بينما واصل العقيد حديثه «أنت مستغرب إني جبتك وقاعد أتكلم معاك.. أنا بني آدم على فكرة يابني.. بحب البلد دي زيك.. لكن في الوقت نفسه أنا ضابط. عبد المأمور. رجل عسكري ملتزم بالأوامر مهما كانت»، استمر حلمي في صمته ليُفرغ العقيد انفعالاته «الحقيقة إن كلنا انضحك علينا.. أنا كنت فاكر إن بخدم البلد، وأغلب اللي هنا كانوا فاكرين إنهم بيتكلموا عن مصلحتها.. في الآخر كلنا خسرنا».

«واللي قالوه عن المعركة؟».

«مش حقيقي.. أنا ليّا زميل في القيادة كلمني وقال لي عن الكارثة اللي حصلت.. هو كمان كان نفسه يتكلم.. كل اللي قاله إن المطارات

انضربت والجيش بينسحب»، ارتجف جسد حلمي من المفاجأة واستطرد سعيد «من الفجر وأنا نفسي أتكلم. . أصرخ. . أسأل. . ليه. . إزاي. . لو الضربات دي بالدقة دي يبقى الستار الحديدي اللي عايشين فيه ليه. . الناس اللي أنا بعذبها دي علشان إيه. . الاعتقالات اللي في كل بيت، وغيرها القضايا اللي مالية المحاكم. . الإنجازات اللي هتخلينا قوة عظمى»؛ صمت وأخرج علبة سجائره وأشعل إحداها ونفث دخانه بقوة «أنا مش زي صفوت والمكتب اللي شغّال فيه. . أنا ضابط اتعودت أقوم بواجبي. علشان كده هتجنن وأنا بسأل. . أنا ساعدت في كل الظلم ده ليه طالما البلد مش قادرة تحمي نفسها لا جوة ولا برة».

«تسمح لي أتكلم من غير خوف».

«قول» زفر بقولها وعاد يتنهد «القعدة دي كأنها ماحصلتش أصلاً. . أديك شايف. . لا ورق ولا عساكر»، وابتسم بمرارة «وهتفرق معاك إيه وأنت هنا. . مفيش أوسخ من اللي أنت فيه. . هتاخد كرباج زيادة. . بناقص. . مش هعمل ده، ولو حصل مش هتفرق معاك»؛ نظر إليه بدهشة واستجمع شجاعته «الإمام أحمد بن حنبل لمّا دخل السجن سأله السجّان عن عقاب ربنا لأنه بيساعد الظلمة. . ساعتها الإمام قال له إن اللي بيساعد الظالم هو اللي بيعمل له أكل أو بيغسل له هدومه. . لكن السجّان هو كمان من الظلمة».

صمت العقيد واحتقن وجهه وهو يُفكر في كلماته. . نفث دخانه بكثافة وأخذ يهز رأسه وكأنه يزن كل كلمة وحلمي ينظر إليه متوقعًا أن يصدر رد فعل عنيف؛ فجأة ارتفع رنين الهاتف فتحرك العقيد والتقطه وقد عادت ملامحه العسكرية «أفندم. . تمام سعادتك. . حالاً يا فندم»؛ أغلق الهاتف واستدار إلى حلمي «هترجع على زنزانتك العادية. . فيه خطاب للريس جمال هنشغله على الميكروفونات كمان شوية»، قالها وضغط على زر مكتبه فهرع جندي الحراسة إلى الداخل فأشار إليه «رجّعه مع زمايله».

عاد حلمي إلى الزنزانة مُستندًا على الجندي الذي ألقاه بالداخل وأسرع يغلقها؛ استقبله نبيل وصادق وعبد المسيح في لهفة «حمد لله ع السلامة يابني»، استند إلى ذراعي صادق وحلمي وجلس ببطء بينما ربت عبد

المسيح على رأسه «منهم لله الكفرة»، ابتسم بإرهاق مُتمنيًا لو استطاع أن يفضي إليهم بما عرفه.. بدأ عبد المسيح دعاءه المُعتاد على النظام ورأسه، الذي لم يقطعه سوى ضجيج مكبّرات الصوت «عبد الناصر هيتكلم» قالها صادق وأشار إليهما بالصمت «طالما شغّلوا السماعات يبقى هيقول حاجة».

ظل حلمي صامتًا بعد أن تلقى المفاجأة قبلهما.. استمع إلى الإطناب الأول في الخطاب وقد أدرك أن كل ما يُقال ليس حقيقيًّا سوى الإقرار بالهزيمة.. تابع كلمات الزعيم المُبعثرة التي تبحث عن طريقة ما لدفع الشعب لتقبل الهزيمة حتى وصل الخطاب إلى ذروته «وأقولها لكم بصدق.. ودون أية عوامل أكون قد بنيت عليها موقفي في الأزمة.. بإني على استعداد لتحمُّل المسئولية كلها.. ولقد اتخذت قرارًا أريدكم جميعًا أن تساعدوني عليه.. لقد قررت أن أتنحى تمامًا.. ونهائيًّا.. عن أي منصب رسمي.. وأي دور سياسي.. وأن أعود إلى صفوف الجماهير.. أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر».

اندلعت عشرات الصراخات مع قرار الزعيم حتى غطت على بقية حديثه.. اختلطت الأحاديث بالسباب والدعاء ومناشدته بالبقاء.. لم يُصدق أحد، حتى هؤلاء الذين ألقاهم في سجونه ما حدث ورغبته في الابتعاد بعد أن تسبب نظامه في ضياع البلاد؛ تناهت إلى الزنازين أصوات السجانين وهم يصرخون كأنهم ثكالى.. جنون.. فوضى.. تضرع.. بكاء..

قطع الصرخات صوت طلقة رصاص شقت السكون الخارجي المُعتاد.. انطلقت فجأة صفارات الإنذار في السجن كله وأشعل الحرس جميع الأضواء.. سمعوا أصوات عشرات الأقدام فأسرع صادق ينظر من قضبان الباب حتى وجد الشاويش محمود يهرع أمامه فاستوقفه «فيه إيه يا عمّ محمود».. تلفّت الرجل حوله ثم اقترب منه «العقيد سعيد انتحر.. ضرب نفسه بالنار في مكتبه».

***

٣٥

تصاعدت أنفاس جميلة المُرهقة وهي تصعد سلالم منزل فؤاد في الطابق الأخير، قبل أن تصل بعدة درجات توقفت لالتقاط أنفاسها، فثبتت ونظرت بدهشة إلى الدخان المُتصاعد من أسفل الباب، كان يبدو وكأن حريقًا خفيفًا يتصاعد من داخل الشقة، أسرعت بإخراج مُفتاحها، وفتحت الباب، هرعت إلى المطبخ لتطمئن على اسطوانة الغاز فوجدتها فارغةٍ، انتبهت فجأة إلى رائحة نفّاذة، دخلت إلى غرفة فؤاد فوجدته جالسًا مُمسكا بجوزة صغيرة يضبط حجرها، وإلى جواره طبق به عِدة سجائر ملفوفة.

«اثبت يلا».

انتفض فؤاد لدى سماع صوتها، قفز من موضعه وكاد أن يكسر الجوزة «يحرق رزالة أهلك»، تصاعدت ضحكاتها فقفز يكتم فمها، وهي لا تزال تضحك «مايبقاش مخدرات وآداب.. الجيران هتنفخني»، أبعدت يده واستمرت في الضحك ولكن خفضت صوتها «وعامل لي فيها قلب الفجلة، وراس البخاخة.. فيه حد يتخض كده؟ ولا علشان عامل حاجة غلط».

«إيه اللي جابك؟» سألها وهو يُلملم ما سقط منه، تجمدت الابتسامة على وجهها «السؤال ده ليا؟!»، ارتبك وشعر بأنه أخطأ، فربت على كتفها «تشربي شاي»، ابتسمت ابتسامة خفيفة وأشارت إلى الطبق «حشيش؟»، أشار إلى الشباك المُغلق خلفها «بانجو. أومال أنا مقفل الشبابيك ليه»، عادت تبتسم وخلعت معطفها ووضعت حقيبتها على الأرض، والتقطت سيجارة وتحركت نحو المطلبخ «هعمل أنا الشاي وأنت نضّف حتة من الزريبة علشان أقعد فيها».

لم تمضِ لحظات حتى سمع صوتها تسعل بقوة، أسرع فوجدها مُمسكة بالسيجارة وَتكاد روحها تخرج من السُعال، ضحك عندما وجدها لم تُفلت

السيجارة وسط عُنف السُعال فأخذها من يدها «ما هي الدناوة دي هي اللي هتجيب أجلك» ، ظلت تسعل لحظات فأسرع يصب كوب ماء «قُلنا الحاجات دي مش للرهيفين بتوع دادي وفادي» ، نظرت له بعينين حمراوين «أنت اللي باصص لي فيها يا ضيق» ، تلفت فوجد مياه الشاي قاربت الغليان «طب روحي أنتي وأنا هكمل الشاي» .

عادت إلى غرفته ، ووقفت عند الباب مُتأملة الفوضى التي يجلس وسطها «هيفضل معفن» قالتها لنفسها وهي تُحرك عينيها . . أوراق بالية . . ملابس متسخة . . الهاتف مُعلق من السقف . . الكمبيوتر الشخصي يكاد يسقط ، هرعت إلى الكمبيوتر لتحميه ، أمسكت به وكادت تُغلق الشاشة ، ولكنها لمحت صورة فؤاد مع رنا ، جلست دون أن تنتبه لموضع جلوسها ، أخذت تتفقد الصور والنوافذ المفتوحة . . صورة جماعية في اعتصام يوليو . . صورة لها بجواره في نقابة المحامين . . صور لعيد ميلاد جميلة . . صور في منزلها .

« كده مش صح على فكرة» .

انتفضت هي هذه المرة لسماع صوته ، وضع صينية الشاي وأخذ منها الجهاز «محدش قال لك إن ده اسمه تجسس على حياتي» ، كان تصاعُد نبرة الغضب في صوته جعلها تضطرب «أنت عارف إن ده مش طبعي . . أنا بس كنت بشيل الجهاز» ، بدأ يحتد بنفس الهدوء الظاهر «وبعدين؟ . . لقيتي الصور . . تنحتي فيها ليه؟ ما أنتي في نفس الصور؟» ، واجهته بحدة مُماثلة «وأنت ارتبكت ليه؟ . . خايف أعرف أنك بتحنّ لها . . مش عايز تبان أنك موجوع من اللي حصل ، بس مش قادر تشيل الذكرى الحلوة . . تبقى غلطان لو افتكرت إن ده يقل منك يا صاحبي» ، صمت من كلماتها وجلس مكانه ، أشعل سيجارة وأَمسك بكوب الشاي «أضحك عليكي . . أكدب لو قلت إني مش موجوعٍ منها . . طبعًا هي مكانتش الحب اللي أدفع عمري فيه زي رنا ، بس أنا فعلاً حبتها . . تعبان يا بقرة» .

«لولا أن أنت حبيبي فعلاً كان زماني اتعاملت معاك بطريقة تانية» .

«ده اللي هو إزاي يعني؟» .

«يا جدع انشف شوية. . لا أنت أول حد ولا هتكون آخر حد»، فتح فمه ليرُد عليها فعاجلته وهي تضع يدها على فمه «مش هقولك مستغربة علشان أنت موجوع كده. . فاهمة أنك حبيتها فعلاً»، والتقطت بدورها سيجارة أشعلتها وأكملت «وأنا كمان مش هعرف أعمل لك حاجة. . مش هقعد أمسك قلبك وهو بيتوجع لما تشوفها. . اللهفة اللي بتبان في عينيك لما بتسمع كلمة عنها. . العصبية اللي بتكون فيها لما بتلاقيها أون لاين وأنت موجود».

«بحب فيكي أنك عاقلة. . مالكيش في الحاجات السخيفة اللي الناس بتفتكر أنها بتواسي بيها».

«علشان زيك حبيت واتوجعت. . جربت كسرة القلب مرة واتنين، وعارفة أنها أوسخ من كسرة النفس ألف مرة. . عشت حالتك، وكانت كل كلمة بسمعها بتقطع قلبي»، احتضنها بشدة وقبّل رأسها وهي تُكمل «فاكرني مش عارفة أنت لما بتاخد تليفوني بتعمل إيه، بكون متأكدة أنك بتشوف صفحتها من عندي. . أنت بتتوجع وأنا زيك. . بس بحمد ربنا إننا موجودين سوا»، رفع رأسه فنظرت إلى عينيه «ما تخافش. . بطّل تدوس على نفسك. . إحنا لوحدنا. . ابكي».

«أنا؟!».

قامت تدور حول نفسها «ولو مش هتبكي في حضني هتبكي في حضن مين يا عبيط. . أُومال ربنا خلقنا وخلانا سوا كده ليه. . عاجبك عينيك اللي هتفرقع من كُتر الدموع المحبوسة. . أنا زيك. . معنديش حد أبكي في حضنه غيركم»، صمت لحظات مُحاولاً التفكير في حديثها الذي أذاب مقاومته، حاول كبرياؤه السيطرة عليه، ولكن قطرات دموعه بدأت تنساب مع حديثه وكأنما فتحت كلماتها قفل عينيه «كنت مش قادر أفكر ولا أعمل حاجة من ساعة ما عرفت. . أقولَ لك على حاجة أوسخ. . لما أكرم قال لي اللي حصل وإحنا في السجن فكرت أطلب وكيل النيابة وأمضي على كل اللي هم عاوزينه. . حسيت إن القعدة في السجن أرحم من إني أخرج وأشوفها مرافقة اللي رمانا في السجن»، صمتت وهي تضع يدها على كتفه، فاندفع لحضنها وبدأ في البكاء بصوت عالٍ «اللي زي حالاتي مالوش

بخت يا جميلة . . يوم ما واحدة ملكت دنيتي أبوها فرقنا لحد ما ماتت بسبب جبروته ، ويوم ما ضحكت على نفسي واختارت واحدة تعوضني عن جزء من رنا طلعت شمال . . ياريت بس خانتني بعد ما اترميت في السجن ، دي سابت الدنياَ كلها وراحت مع اللي ضرّني» .

«لا أول ولا آخر وجع» .

«بس أوسخ وجع . . أنا فعلاً حسيت معاها حاجة مُريحة ، مكنتش مُجرد واحد بيتعمل وخلاص ، ده اللي حرقني . . بس أنا اللي غلطت لما افتكرت إن فيه واحدة في الدنيا ممكن تحبني بعدها ، على إيه يا حسرة . . ابن ناس غلابة ، وماليش ضهر ، وبيطلع عين أهلي علشان أجيب سبوبة أعيش منها كل كام شهر ، وأنا لا حليوة ولا الشاب العضلات ، عمرك شفتي حد فقري زيي . . يا شيخة دا أنا كمان زملكاوي . . يعني حتى الفريق اللي بشجعه بيخسر طول عمره . . عمرك شفتي كده» .

«كفاية أنك واقف على رجليك» .

«المرة الجاية هيقطعوها . . بقولك إيه . . إحنا خرجنا بمعجزة ، لولا شكري ومعارفه كان زمانا عفّنا جوة ولا حد حتى كان عرف يوصل لمكان جثثنا . . أنتي فاكرة الموضوع قانوني ، إحنا لا دخلنا بورق ولا خرجنا بيه . . مفيش محاضر . . تليفون بقينا برة» .

عادت جميلة تحتضنه بقوة ، ظل يبكي وهو يحاول التماسك ، أدار وجهه فوقعت عيناه على صورته مع رنا التي لا تزال في موضعها منُذ طبعتها وأهدتها له في عيد الحب . . ظل ينظر إلى الصورة بينما عاد عقله إلى لقائهما الأخير .

لا يزال يذكر دموعها الصامتة ويديها الصغيرتين وهما تُحيطان بكفيه ، بينما كان يحاول إبعاد نظره عنها حتى لا يبكي مثلها «يا رنا مش هنضحك على بعض . . عارفة والدك المحترم بعت يقابلني ليه . . إداني اختيار من تلاتة . . يا أختفي من حياتك . . يا تليفون واحد وأتشطب من النقابة واحتمال كمان أدخل السجن . . يا إما يضربني بالنار وكلاب الفيلا تاكل جثتي» .

«وهاتسمع كلامه؟».

«أنا ابن ناس غلابة دفعوا اللي حيلتهم علشان أبقى محامي.. وإحنا مش في الستينات علشان فجأة نتجوز ويبقى أمر واقع.. أبوكي عنده استعداد يدبحك أنتي نفسك لو هتعملي حاجة مش عايزها.. سيبك من صورته قدامك وجو بابي والدلع اللي أنتي عايشة فيه.. ده واحد بيتاجر في دم الناس.. تفتكري هيفرق معاه جثة زيادة».

«أنت بتبالغ!».

«لأ.. أنا شفت عيّنة.. أول ما خرجت من الفيلا عندكم أمي اتصلت بيا.. قالت لي إن فيه أمناء شرطة بيلفوا في الشارع يسألوا عليا.. كلمت أمين معرفة قال لي إن فيه توصية من أمن الدولة إني أكون تحت عينهم على طول، وفي أي لحظة ممكن يجيبوني».

«هتسيبني يا فؤاد؟».

«قصدك هسيب نفسي علشانك أنتي وأهلي.. لا هستحمل ضرر حد منهم، ولا هقدر أشوف أبوكي وهو بيأذيكي.. ساعتها اللي هعمله هيضرك أكتر».

قطع ذكرياته صوت جميلة وهي تهمس في أذنه «ارتحت شوية يا صديقي؟»، رفع رأسه ونظر إليها ثم قام وقبّل رأسها «ما يحرمنيش منك.. لولا إني أصلاً معيش جنيه كنت دفعت لك كشف الدكتور النفسي»، ضحكت وقامت لتُشعل سيجارة «دكتور.. الله يرحمه كان عايز يدخلني هندسة.. صحيح رسيت على كلية ألسن، بس..»، قاطعها مُبتسمًا «بلاش والنبي تاريخ فشلك في المدرسة.. هي مش ناقصة فشل»، أطلقت زغرودة خافتة «أخيرًا ضحكت يا ابن الفقرية.. دا أنا كده أطمع بقى»، ضحك هذه المرة بقوة وأمسك يدها يُقبّلها «ربنا يخلي وجودك يا جميلة»، ربتت على كتفه بحنان، وهمت بالحديث عندما رن هاتفها المحمول، التقطته دون أن تنظر «ألو.. حبيبي.. والله مش ناسية»، نظر إليها فؤاد في تساؤل، فأشارت له بالصمت وهي تنظر في ساعتها «لأ تمام.. حلو ده.. نُصاية مثلاً.. ماشي.. See You».

أنهت المُكالمة ونهضت تُلملم حقيبتها وترتدي معطفها، فنظر إليها فؤاد مُتعجبًا "الله.. بقى لينا جوّ أهو وبنلم حاجتنا ونخلع"، قذفته بعلبة سجائر فارغة كانت بجوار الحقيبة وهي تتحرك نحو الباب "ما هو الخيالات المريضة والنية اللي مش سالكة هي السبب في اللي أنتوا فيه.. ده معاد شغل.. حد جايب لي كتاب جديد أترجمه"، صفق بكلتا يديه "والعة يا برنس"، فتحت الباب وأدارت وجهها إليه "سيبك من الكلام ده.. خليك كويس على ما أرجع لك"، وأشارت له بالتحية وأغلقت الباب خلفها.

كلماتها الأخيرة أعادته إلى حالة الألم الأولى.. بحث عن الطبق الذي وضع فيه السجائر الملفوفة، وعاد يجلس أمام صورة رنا.. التقط الكمبيوتر المحمول وأدار أغنية فيروز "أديش كان في ناس"، ثم عاد لذكرياته.

***

٣٦

تظاهرات غفيرة للطلبة وسط مُطالبات بمُحاكمات عاجلة لقادة الجيش". .

"عبد الناصر: حديث الشعب ليّ أمر لا يُرد". .

"تحقيقات موسّعة مع العديد من المسئولين". .

ألقى صفوت صحف الصباح على الأرض في شقة أبيه التي استولى عليها من عائلته بعد وفاته وقرر الإقامة بها بعد إقالته. التقط طبق الحشيش الموضوع بجواره. . شرد ذهنه في أحداث الأيام السابقة وهو يلفّ عدة سجائر، انتهى من سجائره وأشعل سيجارته الأولى، عاد برأسه إلى الوَراء. . نفث أولى حلقات دُخانها وذهنه يسترجع لقاءه الأخير مع صبري.

"إقالة!. . ليه؟".

"جرى إيه يا صفوت. . أنت نسيت نفسك ولّا إيه؟"، انتفض جسده وبدأ صوته يعلو "لا يا فندم مش ناسي. . زي ما بالضبط مش ناسي الأوامر كانت بتطلع منين. . مش ناسي إني كنت مجرد دراع بينفّذ".

"أنا وأنت عارفين إن دي مجرد شكليات".

"إحالتي للمُحاكمة شكليات. . طب إزاي. . وبعدين ليه. . لا أنا قائد عسكري. . ولا أنا وزير في الحكومة"، صمت لحظات ثم عاد يرفع عينيه إليه "ولا أنا اللي إديت أوامر للدفاع الجوي يتعطل في الوقت اللي اليهود بدأوا فيه طلعات الطيران".

"اسكت" ارتفع بها صوته فجأة فاقتحم حارسه الباب مُتسائلاً، ولكنه أشار إليه بالانصراف وعاد يلتفت لصفوت وهو يخفض صوته "أنا ماليش دعوة. . دي أوامر الريس جمال. . مش أنت لوحدك اللي تمت إحالتك للمُحاكمة. . ناس كتير معاك. . يمكن أنت في آخر القايمة"،

أشعل سيجاره الفاخر وتابع "وزي ما قلت لك دي مجرد شكليات . . يعني هو جمال هيتابع كل حاجة بنفسه . . كلها كام شهر والدنيا تهدى والناس تنسى الصدمة . . ساعتها يكون الورق اتلم وترجع شغلك . . مش بعيد تاخد ترقية كمان علشان ظلموك".

"ولحد ما ده يحصل سيادتك".

"هتقعد في بيتك . . هخصص لك حراسة . . هتكمل شغلك عادي . . طبعًا مفيش ورق رسمي"، ابتسم صفوت بعد سماعه الجملة الأخيرة وكأنه عاد لمنصبه بالفعل "ومن إمتى كُنا بنشتغل رسمي".

"مش هيقدروا يستغنوا عني كتير"، قالها لنفسه وهو يُريح رأسه على الوسادة . . ابتسم عندما تذكّر كيف نجح في استعادة نفسه بلا رسميات، بالفعل هذا ما يُجيده . . فن الإثارة كما قال له مُعلّمه إبان عمله في البوليس السياسي والمخابرات البريطانية قبل الثورة، لا يُنكر أن ذلك الثعلب علّمه كثيرًا، خاصة أثناء الحرب مع هتلر، وهو السبب نفسه الذي اختاروه من أجله ليحتل هذا الموقع المُهم كما قيل له أول أيام عمله . . الإثارة . . أهم ما يُميز شخصية صفوت، وهو كعادته احترم موهبته ونمّاها باستمرار . . يعرف كيف ينتزع المعلومة من صاحبها دون أن يشعر . . يلتقط مكمن الشيطان في التفاصيل الصغيرة، ثم يعبث بما يجده حتى يحصل على ما يُريد.

إلا هيَّ . . فريدة . . فاتنة الحي القديم . . لا يزال يذكر نظراته المُختلسة لقوامها الممشوق، مشّيتها الراقية، شخصيتها القوية في التعامُل مع الجيران، وقامتها المرفوعة التي أقسم يومًا ما أن يُحنيها عندما ابتسمت له ساخرة ووصفته بأنه "ابن البوسطجي" الذي سيحيا على دراجة أبيه المُتهالكة.

وها قد فعل.

"وقد شكّل الرئيس جمال عبد الناصر لجنة خاصة للتحقيق في عمل أجهزة المخابرات، حيث تعمل اللجنة لإثبات وجود انحراف في عمل كافة الأجهزة الأمنية من عدمه".

تناهت الجمُلة إلى مسامعه من الراديو المفتوح عن آخره في الشارع . . لم تكن هذه التحقيقات هي الأولى التي بدأها عبد الناصر لإعادة السيطرة

على أجهزة ومفاصل الدولة، إلا أن الصوت العالي بدا له وكأن أحدًا ما يُغيظه.. في الظروف العادية كان سيرفع صوته إلى أحد الحراس ليُخرس الراديو، وربما صاحبه كذلك، إلا أنه لم يجد من القوة ما يدفعه لأن يتعامل مع من لا يدري أهُم حراسة له أم عليه.

نبهه تأوه خفيف فعاد إلى فريدة.. نظر إلى جسدها اللامع مُمددًا على السرير بجواره.. ابتسم عندما تذكّر يوم كانت نظرة لملابسها الضيقة تكفيه.. نظر إلى حمام الشقة الصغيرة التي أصر على الاحتفاظ بها رغم شقة أرماني الفاخرة التي استولى عليها.. طالما حَلِم بها في تلك الزاوية، لمعت أمنيته السابقة فمرر إصبعه على جسد فريدة ليوقظها "قومي.. هناخد دُشّ سوا"، انتفضت وهزّت رأسها لتنفض تشوّش الاستيقاظ فارتطمت نظرتها بوجهه الجامد، حاولت تغييره "تحب أرقص لك"، سألته بابتسامة مُنهكة وهي تلفّ الملاءة حول جسدها.. صمت وقرر تأجيل هاجسه وهو يُذكّر نفسه بأنها طوع إشارته، تجاهل عبارتها ونفث دخان سيجارته فعادت تستحثه وهي تُرخي الملاءة عن صدرها "الراديو دلوقتي مشغّل محمد رشدي"، جذب النَفَس الأخير وألقى بقايا السيجارة على الأرض" ما تبقيش بقرة.. البلد في حالة حرب.. هتفتحي الراديو هتلاقي مارشات عسكرية وأغاني حليم"، وابتسم ساخرًا "وقرآن على روح اللي ماتوا قبل ما يفهموا أن الحرب بدأت"، نظرت له مُتعجبة فأمسك بالملاءة وغطى الجزء المُثير "دا غير إني ما بحبش الرقص".

"هخليك تحبه"، التصقت بوجهه أنفاسها الحارة فابتسم "قولي إنك عايزة تهزّي جتتك"، وداعبها بإصبعه فتأوهت "يلّا قومي"، أسرعت تنهض فأشار يستوقفها "هتلاقي اسطوانة لرشدي جنب الجرامافون.. شغّليها وفرّجيني"، ابتسمت بميوعة مُصطنعة ودخلت الحمّام وفي يدها قميص نوم التقطته من حقيبتها، مع انحناءتها الأولى عادت رغبته القديمة تقفز إلى حواسه.

"إيه يا راجل.. ما تُصبر لما أرقص"، قالتها بمقاومة خافتة وهي تعلم أنها لن ترفض "الحِتة دي مستنياكي من زمان" قالها وهو يدفعها نحو ركن

أحلامه، لم يلمح نظرة الاحتقار التي رمته بها واختفت سريعًا وسط الشهوة العارمة التي ضاجعها بها. . كانت تأوهاتها العالية خافتة وسط الأصوات التي انبعثت بداخله.

"عمرك ما هتنجح. . يابني إحنا غلابة وأهالينا أغلب. . جمال نفسه سايب لي حرية التصرف. . بتبص على إيه يا مجنون. . ابن البوسطجي بقى ظابط!. . Listen to me carefully son. . ولو. . أنتوا غلطة في تاريخ الحربية المصرية. . والله ياما بُكرة هتشوفي. . Don't sleep with your leader›s women. . طول الوقت خليك عبد المأمور. . والنبي لو بقيت وزير الحربية. . إحنا بنعمل جهاز جديد وعايزينك. . Hi Hitler. . أبوك مات وعليه حق تصليح العجلة. . Excitement knew no good at many. . عايزني بصحيح!. . هدي لك الصلاحيات اللي تخليك تعمل أي حاجة. . هنرمي اليهود في البحر. . Fuck me violently. . ما تقلقش. . ياريتني كنت صدقتك. . أنا موافقة".

«آآآآآه». . انتزعته تأوهاتها الأخيرة من أفكاره بعد أن فرغ منها. . نظر إليها وهي راقدة على البلاط مُنهكة من جديد. . فرد قامته ونظر إليها «يلّا. . اتشطفي علشان ترقصي. . أنا قاعد بره».

***

٣٧

ارتفع رنين هاتف أكرم الذي تقلب في سريره باحثًا عن فرح، مد يديه ليجد الفراغ فهب فزعًا. تلفت باحثًا عنها ثم التقط الهاتف ليجدها المُتصلة فأسرع يُجيب «أنت نزلتي إمتى؟».

«أكرم»، لفظت اسمه وظلت صامتة فهتف «أنتي نزلتي ليه؟».

«أنا آسفة.. مش عايزة نتكلم أو نتقابل تاني.. أرجوك»..

«طب أفهـ...»، قطعت عبارته صفارة إنهاء المُكالمة، حاول الاتصال بها ففشل أكثر من مرة، تأكد أن رقمه صار على قائمة الرفض مرة ثانية، نهض من السرير وهو ينظر مذهولاً إلى الغرفة التي صارت خالية مرة أخرى. ألقى هاتفه الذي يحمل صورتها في الخلفية بعيدًا، نظر إلى صورته في المرآة ليتأكد من الخيط الدامع الذي انساب من عينيه.. الآن يدرك لماذا يضرب الجنرالات أنفسهم بالرصاص بعد الهزيمة. لا يمكن أن يحيا بتلك النظرة المنكسرة، بينما يتمتع الآخرون بفرصة ثانية.

نظر إلى الهاتف المُلقى على المقعد، الذي لم تُغلق شاشته فبدا وكأنه يُعانده بصورتها المتألقة «ليه؟.. دا أنا عمري ماحبيت بالشكل ده إلا لما شفتك.. المرة اللي عرفت فيها دمعة العشق كانت يوم ما نزلت وأنا بقول لك إني حبيتك.. وجع القلب ما حسيت بيه إلا من لهفتي لما كنتي بتتأخري عليا أو ما بترديش.. كسلي وإحساسي بالمسافات كنت بنساهم لمجرد إني هشوفك ولو دقيقة.. أحلى لحظات يومي عشتها بعد ما كنتي بتقولي حبيبي.. كنت بخاف على وجودك لدرجة إن كنت عايز أشيلك لو الأرض فيها تراب».

انطفأت الشاشة فدارى وجهه محاولاً السيطرة على دموعه، ألقى جسده على المقعد الآخر الذي اعتادت الجلوس عليه، وضع يديه على

مسندي المقعد كما اعتادت «طب رجعتي ليه؟ . . كنتي عايزة تخلصي على روحي للأبد؟ ما أنا كنت سكت، وكتمت، وانكتمت . . شيلت في قلبي تقل يشيله صبر أيوب»، التقط أنفاسه وتمسك بالمقعد أكثر «ساعة ما رجعتي حسيت بروحي المطفية بتقوم كأني كنت نايم وصحيت . . كنت بضحك لوحدي من كتر السعادة وكأني لقيت مُلك سليمان . . رجعت أحضن صورك بعيوني وكأنها بتملى المكان الفاضي». صمت لحظات حاول السيطرة فيها على انفعالاته. احتقن وجهه ونفرت عروقه فبدا وكأنه على وشك الانفجار وهو يصرخ بصوت اهتز له زجاج النوافذ «ليه؟».

ألقى صرخته واستغرق في البكاء . . الصدمة أسلوب حياة، هذا ما ينبغي أن يتذكره ويعلمه لأولاده إن استطاع بدء حياة أخرى. دار بذهنه سريعًا فوجد أنه الخاسر دومًا، بداية من اللعبة التي رغب فيها وعجز والده عن شرائها . . المدرسة الفاخرة التي كان يمر من أمامها وهو يذهب لمدرسته الحكومية البائسة . . الكلية التي رغب فيها ولم يساعده مكتب التنسيق . . الفتاة التي أحبها قديمًا وتزوجت بأول غني طرق الباب . . أمه التي ماتت بسبب الفقر . . العمل الذي أراده ولكنه بلا واسطة . . حتى حبه الحقيقي التي دمرته هذه المرة تمامًا. الخلاصة التي توصل إليها أن حياته مجموعة من الصدمات التي لا فكاك منها. لا يعلم لماذا يستمر، ولا يستطيع اتخاذ قرار الرحيل، عليه اعتياد الصمت مرة أخرى حتى يقضي ربه أمرًا مفعولاً.

رفع عينيه البائستين إلى المرآة فوجد النظرة المنكسرة تحتلهما مرة أخرى، فكّر كم كان سخيفًا حين ظن أنها عادت إليه. شعر بالغضب من نفسه لأنه عاد لأمل بلا طائل، بينما كانت – فقط – تمر به لترى ما إذا كان حيًّا. عاد ينظر مرة أخرى مُتناسيًا الألم الذي بدأ يعصر صدره. حقًّا لا يليق بمتألقة مثلها أن تحب شاحبًا لا همّ له سوى أحلام تسحقها الأحذية العسكرية الثقيلة يومًا بعد الآخر، هو نفسه لا يزال يشعر ببيادة الشاويش عاطف التي مزقت جلد ظهره من قبل «طب بالذمة تحبك على إيه وأنت ما بقتش تحب نفسك».

فجأة ارتفع رنين الهاتف وبرزت صورة فؤاد المُبتسمة، تردد في إجابة الاتصال ثم تذكّر إلحاحه فالتقط الهاتف «عايز إيه؟ . . البيت . . لا ما

تجيش . . أنا جاي لك ع القهوة» . أغلق الهاتف وأسرع يأخذ حمامًا سريعًا ليُزيل آثار انكساره ، نظر في دولابه وانتقى أفضل الثياب المُتاحة وكأنه يُعلن رفضه للهزيمة .

لم تمضِ نصف ساعة إلا وكان يجلس بجوار فؤاد الذي كان مُستمتعًا بالشيشة ويَحرك يديه على أنغام أم كلثوم المنتشرة في الخلفية «مالك يا عم؟» ، سأله وهو يُشير لصبي القهوة فأشار بيده بلا معنى «أنت رايق وأنا مش زيك . . خليك في حالك» . انتظر فؤاد حتى طلب شيشة أخرى من الفتى ، ثم نفث الدخان في وجهه «طب قول لي بقى ياللي مش رايق فيه إيه؟» ، حرّك أكرم يده ليُبعد الدخان «تمام يا صاحبي» .

«لا واضح عليك . . وأنا اللي قلت هنقعد نفرفش ونسمع الست» .

«أقوم أمشي» ، قالها وهمّ بالنهوض فأمسك به ليعود للجلوس «لا يا عم رايح فين . . استهدى بالله . . النهارده الخميس والست بتغني أنساك . . بذمتك مش لو كانت عايشة كان زمانا قاعدين في حفلتها» ، بدت على شفتيه شبح ابتسامة «هتعيش وتموت قديم» ، ضحك فؤاد ونفث دخانه «ما هم خدوا كل حاجة في الجديد ولاد القديمة . . أهو يبقى معانا حاجة بنروق بيها» .

عاد الفتى سريعًا ووضع الشيشة أمام أكرم ، طلب منه فؤاد أن يرفع الصوت قليلاً وهو يُدندن مع كلمات الأغنية ، نظر له أكرم في تعجب وهو يلتقط المبسم ويبدأ في التدخين هو الآخر ويحاول الإصغاء بينما يثور ما بداخله .

«كان لك معايا . . أجمل حكاية . . في العمر كله . . سنين بحالها . . ما فات جمالها . . على حب قبله» .

«مش هتقول لي بقى فيه إيه؟» ، عاد فؤاد يسأله فهز رأسه «تفتكر لو قلت لك ممكن تعمل إيه» ، حرّك رأسه نافيًا «ولا حاجة . . بس بدل النكد ما يشيله واحد هنبقى اتنين . . دي واجبات الصداقة يا أستاذ» .

«وطبعًا هتقضيها كل شوية تقول معلش» .

«لا أنت شاطر وبتعرف تمعلش نفسك لوحدك» ، قالها وضحك وعاد

يدندن مع الأغنية وهو يُشير إليه «لو جالك مزاج تقول أديني قاعد معاك» .

«سنين ومرت . . زي الثواني . . في حبك أنت . . وإن كنت أقدر أحب تاني . . أحبك أنت» .

صمت أكرم ثم هز رأسه طاردًا صورتها «عارف إيه أكتر حاجة تعباني؟» ، أجابه مدركا أن الحديث عن فرح «أنك صدقت وجودها؟» .

«لأ . . إني كل مرة اتمنيت حضنها كسرت بخاطري»؛ التقط هاتفه وعاد ينظر إلى صورتها التي لا تزال تحتل الخلفية «كسرتني مرتين» ، قالها وسحب نفس عميق من الشيشة وفؤاد ينظر إليه دون أن يتحدث فأكمل «تفتكر إني فعلاً مُغفّل زي ما قالت جميلة؟» ، لمح التماعة عينيه التي تشي بدمعة تجاهد للفرار فنفث دخانه بدوره صانعًا غيمة أخرى تُداري الدموع «لا طبعًا . . المثل بتاع اخدعني مرة واتنين وجو التنمية البشرية ده مش هنا . . مش مع واحدة حبيتها فعلا» ، سحب نفسًا آخر وأضاف «بس على فكرة . . دي مصلحة» .

«هتقول لي بقى الضربة اللي مش هتموتك تقويك ونفس كلام التنمية التحتية ده» .

«لا هقول لك حاجة أعمق شوية» ، قالها ضاحكًا وهو ينظر إلى ملامحه الجامدة ثم تابع بجدّية «بعد الكسرة دي أنت مش هيبقى عندك قلب أصلاً . يعني لو جالك حد تاني ، وطبيعي إن ده يحصل ، هيلاقي على صدرك يافطة شطّبنا . كان فيه وخلص» .

«وده عميق وحلو وكده؟» .

«لأ . . دي الحقيقة اللي عوّد نفسك تعيش معاها . بعد شوية هتبدأ تشوف الدنيا من ورا حاجز غامق . ما تقلقش ، ده بس علشان لّما تقابل تاني هتتعلم تبطل تدي كل حاجة قبل ما تعرف كل ده هيروح فين . وتقريبًا لو استنيت شوية هتعرف إن برضه هيكون بضاعة أتلفها الهوى» .

«الهوا؟!» .

«لأ . . الهوا ده أنفاس رايحة جاية . . أما الهوى فهو سبب البلاوي اللي عملت فينا كل ده ، مرة تهوى البلد فتدمر كل أحلامك . تهوى حاجة

بتحبها فتجيب لك الفقر لأنك مش من ولاد الناس إياهم. وفي الآخر تهوى واحدة وقلبك ينزف عشانها، وبعدين تلاقي نفسك ضمن قايمة الاختيارات.. أقول لك، لمّا عرفنا الفرق ما بين الهوا والهوى.. كانت كل حاجة خلصت».

«والله نكّدت عليا أكتر يا بوز البومة أنت»، قالها أكرم وألقى مبسم الشيشة، نظر إليه فؤاد بدهشة وهو يُخرج علبة سجائره ويُشعل واحدة فغمز له «أنا هقوم أشوف أي حاجة أعملها.. القعدة معاك تقفل النِفس»، أخرج حافظته وألقى بالحساب على المنضدة كعادته «هشوفك بالليل؟».

«أنت ورزقك.. أنا رايح البيت ومش عارف هعمل إيه بعد كده».

«طب كلمني»، لاحقته العبارة وهو يبتعد فأشار بيده دون أن ينظر. أسرع يستقل سيارته الصغيرة وانطلق دون أن يعلم أين يذهب، حاول السيطرة على خيالاته فأسرع يفتح الراديو ليجد صوت أم كلثوم يتصاعد ببقية الأغنية «دا مستحيل.. قلبي يميل.. ويحب غيرك أبدًا..

أهو ده اللي مش ممكن أبدًا»..

***

٣٨

«طيب . . جاي» . .

هتف بها صفوت وهو يحاول الخروج من غرفته بينما لا يزال يُعاني آثار النوم ليُخرس تلك الطرقات المنتظمة على باب منزله، التي تداخلت في البداية مع أحلامه؛ سار متخبطًا حتى امتدت يده إلى المقبض، وما إن فتح الباب حتى أزاحه صبري جانبًا ودخل ومعه أحد حراسه «اقفل الباب وتعالى»، نظر صفوت إلى عقارب الساعة التي تجاوزت الفجر بقليل ونظر إلى الحارس بقلق «خير يا صبري بيه»، تجاهل نظرته التي أدرك معناها وأشار للحارس «اعمل لنا اتنين قهوة سادة وارجع على العربية بسرعة»، زادت دهشة صفوت فارتسمت ابتسامة خافتة على شفتي صبري «أنت قهوتك بقت وحشة أوي . . واللي جاي أكلمك فيه محتاج نكون فايقين»، قالها وأشار له «البس هدومك على ما القهوة تخلص» .

أسرع صفوت يرتدي ملابسه، ولم يكد يعقد رابطة عنقه حتى سمع الحارس يغلق الباب، عاد يشعر بالقلق فتحرك إلى الكومود والتقط مسدسه في حذر وصوت صبري يتعالى «القهوة هتبرد ومعندناش وقت»، أسرع يُكمل ارتداء ملابسه وعاد إليه ليجده يُشعل إحدى سجائره من أخرى دفنها في المطفأة بعنف فشعر بالتوتر «فيه إيه يا فندم؟» .

«الريس جمال مات» قالها وسحب نفسًا عميقًا من سيجارته وتابع دون أن يُبالي بتجمد صفوت في مكانه «مفيش مؤامرات أو اغتيال لو ده اللي جه في دماغك . . الراجل تعب بعد ما خلّص المؤتمر . . الياور قال إنه بعد ما ودّع أمير الكويت كانت رجليه مش شايلاه . . رجع على البيت . . قضاء ربنا نفذ» .

ظّل صفوت متجمدًا في موضعه وكأنه لم يتخيل أن تأتي لحظة الرحيل قط؛ كان يعلم تدهور صحة الزعيم، بل ورافقه في إحدى رحلاته العلاجية إلى

الاتحاد السوفيتي قبل إقالته الرسمية؛ لكنه بالتأكيد لم يتوقع أن تسير الأمور على هذا النحو «البقية في حياتك»، قالها صبري وأشار إليه بالجلوس «هنطلع من هنا على قصر القبة.. هنشتغل في ترتيبات الجنازة وإجراءات تأمين الدولة».

«بس أنا مش موجود بشكل رسمي».

«الوضع اتغير»، بادره وهو يخرج ورقة مطوية «ده قرار بإعادتك لمنصبك بتوقيع النائب أنور السادات.. الراجل بصراحة ما اعترضش وقال لي إنه لمّا بقى نائب اتكلم مع المرحوم على وضعك، وإن جمال الله يرحمه كان عارف أنك كبش فدا»، أغمض صفوت عينيه وهو يشعر بالجميل للزعيم الراحل الذي برأ ذمته أمام الرئيس الجديد «اشرب قهوتك علشان تبقى فايق وهنتحرك على طول».

لم تمض سوى دقائق حتى كان كلاهما في الطريق إلى القصر، ظل صفوت يتأمَل الطريق وعقله يموج بالتساؤلات حول العهد الجديد.. كل يُدرك أن كل الفرقاء الذين جمعتهم السلطة لم تكن تجمعهم سوى قبضة الزعيم الراحل وشعبيته الجارفة التي مكنتهم من البقاء رغم كل ما حدث، وأن كلاًّ منهم الآن يرى نفسه الأجدر بالجلوس في موضع الرجل الذي لم يوارِ جسده التراب بعد.. دار في ذهنه كل المعلومات التي يعرفها عنهم جميعًا، والصراعات التي يُمكن أن تحدث في الأيام المُقبلة، خاصة السادات الذي أعاده إلى منصبه ويستعد الآن للجلوس على عرش البلاد مكان صديق عمره.

«ما تحطش أمل على السادات أوي» قالها صبري وكأنه يقرأ أفكاره فالتفت إليه بدهشة بينما تابع «ده راجل جه بالصدفة علشان كان آخر واحد المرحوم بيثق فيه فعلاً.. لكن الديناصورات اللي ماسكين البلد من وسطها مش هيسمحوا بحد يلعب عليهم دور الرئيس.. يحمد ربنا لو سابوه على الكرسي شوية»، ارتفع حاجبا صفوت في دهشة «ده تحليلك؟»، ابتسم صبري في ثقة «دي تقريبًا معلومات.. أراهنك أنهم هيسكتوا شوية علشان ما تحصلش بلبلة خصوصًا في الجيش، لكن الكهنة اللي سندوا عبد الناصر مش هيقبلوا إن أضعف واحد في المجلس يبقى على كرسي الفرعون».

«انقلاب؟».

«أبسط من كده. . لو اتفقوا على واحد فيهم تاني يوم هيقولوا للراجل متشكرين. . اللجنة المركزية مش عايزاك. . استفتاء من اللي متعودين عليهم. . رئيس جديد بشرعيته»، وغمز بخبث «هي دي الديمقراطية اللي عملناها»؛ هز صفوت رأسه بدون اقتناع وغمغم «السادات مش سهل زي ما أنت فاكر. . ده الوحيد فيهم اللي اتمرمط على حق. . جابها من تحت لفوق».

«والوحيد فيهم اللي خرج من المولد بلا حمص. . أصحاب عمره الاتنين واحد بقى رئيس والتاني قعد وزير حربية لحد اللي حصل. . هُمّ ادوا له جرنال الجمهورية، ولمّا عبد الناصر حس أنه ظلمه ادى له مجلس الأمة. . ولولا أنه لقى كلهم طمعانين في مكانه ماعدا هو مكنش جابه نائب».

«صدقني الراجل ده تعلب».

«الأيام الجاية هتبيّن كل حاجة»، قالها صبري وأشاح بوجهه ليسود الصمت بينهما حتى وصلت السيارة إلى قصر القبة؛ لاحظ صفوت تشديد الإجراءات الذي بدا له طبيعيًّا للغاية في ذلك الظرف وأخذ ينقل بصره بين الحرس الجمهوري حتى توقفت أمام المبنى الرئاسي، فغادرها كلاهما وانتقلا بخطوات سريعة ليستقبلهما كبير الياوران وملامحه مكسوة بالحزن فبادره صبري «البقاء لله يا فندم»، هز رأسه وصافحهما وهو يُشير إلى مكتب السكرتارية «استنوني هنا لحد ما سيادة النائب يسجّل البيان».

«قصدك سيادة الريس» صدرت من صفوت الشارد، فرمقه الرجل بحدة وهم بالحديث لولا أن قاطعه صوت هادئ «النائب يا صفوت. . لمّا الاستفتاء يتعمل ابقى قول لي يا ريس»، التفتوا إلى السادات الذي بدا على وجهه حزن بالغ وهو يُصافحهم ويسأل الياور «الكاميرات جاهزة؟».

دقائق أخرى وكانت مصر كلها تستمع إلى الخطاب المقتضب الذي نعى فيه السادات إلى الأمة العربية فقدان زعيمها لتنفجر موجات الحزن في المنطقة من المحيط إلى الخليج، لم يفارق صفوت مشهد المحيطين بالسادات وقد تفجرت دموعهم في حزن، حتى إن أحد المصورين قد انهار من البكاء

واضطروا إلى استبداله؛ أما هو فكان طيلة الوقت صامتًا حتى انتهى السادات من تسجيله الذي استعان في قراءته بنظارة وزير الإرشاد القومي بعد أن نسيَ نظارته وسط الارتباك الذي ساد الموقف.

«في حياتك الباقية يا صفوت»، همس بها السادات مقاطعًا أفكاره وهو يربت على كتفه أثناء مغادرته القصر عائدًا إلى منزل صديقه الراحل «ومبروك عليك رجوعك مكانك».

***

٣٩

«أنت هنا؟» . .

انتفض أكرم عند سماعه سؤال جميلة التي فوجئ بوجودها خلفه في الشرفة، نظر لها صامتًا وهو يُشير بزجاجة البراندي الرخيصة في يده «لأ لسه ما جتش»، جذبت الزجاجة شبه الفارغة ووضعتها على الإفريز «ما فكرتش كتير لمّا فؤاد قال لي إن تليفونك مقفول . . ركبت تاكسي وجيت».

«وهو فين الحيلة؟»، سألها ساخرًا فأبعدت وجهها من رائحة الكحول النافذة «سافر لأمه . . تعبانة شوية»، هز رأسه بلا مُبالاة وأزاحها وتحرك ليرتمي على أقرب مقعد «يجي بالسلامة».

تجاهلته وجلست على المقعد المجاور وهي تخرج سيجارة من علبتها وتُشعلها «أنت تمام يا صاحبي؟»، تلفت حوله حتى عثر على بقايا زجاجة أخرى شرب ما بها مرة واحدة وهو يُشير بإبهامه، ثم مد يده والتقط منها السيجارة؛ شعرت بشرخ كبير داخله يختلف عما اعتادت عليه طوال الوقت. نظراته الواثقة تلاشت ليخرج من بينها شبح دمعة متجمدة، صوته القوي بنبراته الهادئة صار خافتًا، مالت نحوه ووضعت يدها الحانية على كتفه «أنت سكران طينة».

ألقى الزجاجة وارتمى في حضنها دون أن يتحدث، شعرت بأن الموضوع يتجاوز مجرد مزاج سيء، ضمته إلى صدرها أكثر بينما تربت يدها على شعره الثائر، قبّلته في جبينه وعادت تحضنه بقوة «طب ما تحكي لي»، قالتها وهي تمد يدها لتأخذ السيجارة، فأبعد يده بعيدًا ونفث دخانه «أول ما عرفت فرح كنت شايف أحلى صفات ممكن الواحد يحبها . . الحب اللي مفيش زيه . . حضن يدمع من كتير العشق، مش مجرد احتواء وكأنها جزء منك، بالعكس، فرح بتملك الروح . . حاجة مش عارف

أوصفها حتى بالكلام . . كانت العشق اللي مفيش زيه» .

«فاهمة» .

«ده كان في الأول» ، قالها وكأنه لم يسمعها ، تابع بحسرة بدت في ملامحه وهو يسحب نفسًا آخر «الأيام عدت والنظرة بدأت تتغير . . القلب اتوجع منها مرة واتنين ، بدل الطبطبة بقى كسر ، بدل الحضن بقى فيه حاجز ، دمعة العشق بقت انكسار وعجز ، حتى النظرة اللي كانت بتطمن بقت مؤلمة . . اللهفة قلبت وجع» .

«ليه التحول الغريب ده؟» .

«سنة الحياة . . مش هم برضه بيقولوا كده . . مش عايزين تغيير . . أهو . . تغيير من اللي يهد حياتك مش بس يقلبها» . صمتت برهة ثم التقطت منه السيجارة وسحبت نفسًا «العلاقات زي المخدرات . . دايمًا فيه تذكرة بودرة . . مهما تبعد عنها وتشرب حاجة تانية هتلف وتدور وترجع تنتكس معاها» . .

«تفتكري؟» ، قالها ساخرًا وعاد يتلفت حوله ويُشير بيديه «روحها في كل مللي في المكان ده . . هنا ضحكت لّما قلت حاجة غبية لكن عجبتها . . هنا وقفت وشاورت لي على الصالة وضحكت من وجودها في الزريبة اللي أنا عايش فيها . . هناك كان أول حمام لينا سوا . . الشباك ده كنت ناوي أقفله علشان النطع جاري اللي في ثانوي كان بيعسكر في البلكونة أول ما يلمحها طالعة . . وهنا» .

صمت لحظات وهو يُشير إلى باب غرفته وعيناه تمتلئان بالدموع «هنا كانت آخر مكالمة . . هنا كسرتني» . بدأت دموعه في التساقط فأسرعت جميلة تحتضنه ودموعها تسابق دموعه وهو ينهنه «فرح بقت ألم حقيقي كل ما أفكر فيها . . وجع للقلب قبل الدماغ» .

«وأنت ناوي تقعد شوية كده؟» .

«عايزاني أعمل إيه ، بدل الكسرة اتنين وبدل الفشل عشرة . . لا حب نفع ، ولا صاحب عايش ، ولا حتى بنت بقيت قادر أحبها» ، رفع عينيه إليها «على رأي المرحومة أمي ، خيبة الأمل راكبة جمل ، وأقول لك . . حتى الخيبة دي كانت زمان ، الجمل نفسه خدوه مننا وفشخونا بيه . . فاكرة؟» .

«وهو ده يتنسي يا صاحبي»؛ قالتها بخفوت ثم ابتعدت عنه وجلست وهي تُشعل سيجارة أخرى «بس خليك فاكر . . الوقت مش هايستنى حد، مالوش دعوة بحالتنا النفسية . . أنا زيك وأنت عارف، بايظة معايا من كل اتجاه، ورغم كده بحاول، بطلع غُلبي في الكتابة»، نفثت دخانها وتابعت أنت عارف أنا بحبك قد إيه».

«وأنتي عارفة أنتي بالنسبة لي إيه».

«إحنا مش بس عشرة، دا إحنا ياما اشتغلنا سوا . . مش حابة كل ده يضيع».

«هحاول»، صدرت منه بلهجة فشلت في إقناعه هو نفسه، فهتفت « كلام فارغ . . قبل ما آجي لك عديت على الجورنال وقعدت شوية مع عبد الرسول . سيبك من الواد الإخواني المعفن اللي مش بيبطل كلام على الناس . . أنت دلوقتي سبت كل حاجة في الدنيا واتفرغت للشتيمة . . محدش شايفك بتعمل حاجة تانية . . بتلعن أي مجهول لسبب مجهول . . بتشتم كائن خفي سرق أحلامك اللي مش شايفاك مجتهد علشان تحققها . . بتلعن الكائنات الحية بلا تمييز».

صمتت محاولة السيطرة على أعصابها ثم اقتربت وربتت على كتفه «حقك عليا . . بس آسفة إني أقول لك إنك بقيت بتتحول لدون كيشوت . . بتحارب طواحين الهوا . . بتشتم وبس . . من غير حتى ما حد يفهم ليه ومين . . أنا زعلانة لأني بقيت شايفاك زي الراجل اللي واقف عريان بيحدف العيال بالطوب في الشارع».

ظل صامتًا وهو ينظر لها في جمود فنهضت والتقطت حقيبتها واتجهت نحو الباب، ثم عادت تقف وتنظر إليه «ازعل مني لو عايز . . اشتمني أو اتخانق معايا لو تحب . . تجاهلني وده اللي بيحصل دلوقتي وأنا بكلمك . . بس ماينفعش مكنتش أتكلم معاك . . أنت عارف مكانك عندي . . ممكن تكون شايف إني قاسية معاك المرة دي . . بس أكيد أنت عارف ليه»، قالتها وفتحت الباب ثم عادت تطل نحوه برأسها «ما عنديش استعداد أخسرك».

***

٤٠

«ادخل» . .

شدّ صفوت قامته في حزم وهو يدلف إلى مكتب صبري في هدوءٍ ليصطدم بوجه رئيسه الذي أشار إليه للاقتراب وهو يصيح في الهاتف منفعلاً ويبدو على وجهه الغضب الشديد «لأ يا علي . . الكلام ده ما ينفعش . . من إمتى يعني وحد بيسألنا بتعملوا إيه . . يا راجل ده جمال الله يرحمه نفسه ماعملهاش» . أشار صفوت لرئيسه لاستئذانه في الخروج والعودة مرة أخرى فأشار إليه بالجلوس حتى يُنهي المكالمة «قال إيه . . هنبقى نشوف . . مش عايز التقارير دي . . أنتم خنقتوني . . ده رمى التقارير في وش سامي ، أنت متخيل» . عاد لصمته بينما بدأ الهدوء يعود لوجه صبري فهز رأسه وكأنه يرى محدثه «خلاص يا علي . . هنشوف . . اتفقنا . . مع السلامة» .

أنهى مكالمته والتفت إلى صفوت الذي بدا عليه التحفز «خير يا فندم؟» . التقط صبري علبة سجائره وأشعل إحداها «السادات عامل لي فيها رئيس . قال إيه . . عايز يغير طقم المساعدين وطالب تقارير عن أوضاع معينة من كل الأجهزة» ، ابتسم صفوت في هدوء وهو يُشعل سيجارة بدوره «الغُربال الجديد له شدّة» ، بدا على صبري الغضب مرة أخرى فاستدرك «حضرتك قلتها قبل كده . السادات بقى رجل دولة ، يعني نسي من زمان الأمور بتمشي إزاي» .

«وأنا بقى اللي هفكّره» . قطع حديثهما طرقات منتظمة على الباب ، دخل ساعي المكتب حاملاً صينية صغيرة «قهوة سعادتك يا صبري باشا» ، نظر إليه صبري بدهشة «أنا يابني طلبت منك حاجة» ، انفرجت شفتا الساعي ليُجيب ، ولكن صفوت بادره «أنا اللي طلبت منه قهوة سيادتك وقهوتي قبل ما أدخل» . صمت صبري وأشار للرجل بالانصراف فأسرع يُغادر وهو يُغلق الباب بهدوء .

ارتشف صفوت أولى رشفات قهوته ثم نظر إلى رئيسه «سيادتك قلقان من إيه. هو مش هيعرف يعمل حاجة. الراجل تحت عيون الناس بتاعتنا طول الوقت. ده ناقص الرجالة يسمعوا هو بيقول إيه في الحمّام»، هزّ صبري رأسه في غضب واضح «ولا هيعرف يعمل، إحنا كلنا متفقين إن المرحلة لازم تعدي بأي شكل، كنا عايزينه معانا فيها ولو حتى بشكل مؤقت. أهو يبقى رئيس سابق وياخد له تكريم كويس»، نفث دخانه بغضب وأضاف «بس شكله كده عايز يبقى زي نجيب».

«أتمنى إن الأمور ماتوصلش للدرجة دي»، قالها صفوت فنظر إليه في دهشة «قصدك إيه أنت كمان؟»، تنحنح وهو ينفث دخانه وأجاب «سيادتك عارف وضع البلد، إقالته بنفس طريقة نجيب ممكن تعمل ردود أفعال عكسية جوة الجيش. يعني، لو مفيش مفر من الاستغناء عنه يبقى نشوف طريقة أشيك من كده».

«إزاي؟»، سأله في اهتمام، فابتسم في خبث «دي بقى نقعد نفكر فيها بهدوء وبعيد عن الانفعال، ولازم ناخد رأي الجماعة كلهم»، صمت صبري وهو يومئ برأسه موافقًا، ارتشف صفوت ثُمالة قهوته ثم نهض «أستأذن سيادتك أنا. فيه حاجات لازم أراجعها وأعتقد هتفيد في تقدير الموقف في اجتماعك مع الجماعة».

غادر صفوت المكتب وشفتاه تحملان ابتسامة تحامل على نفسه لكبتها، وصل إلى مكتبه لتتحول الابتسامة إلى ضحكة ساخرة كبيرة جلجلت في أرجاء الغرفة وهو يقول لنفسه «يا عيني يا صبري»، قالها وجلس على مقعده الفاخر ومدد قدميه على المكتب وهو يسترجع تفاصيل اللقاء الذي أدرك أنه سيقوم بتغيير حياته إلى الأبد.

كان قد استيقظ على صوت طرقات خفيفة على باب منزل أرماني الذي لم يعد يذهب إليه كثيرًا منذ عودته لمنصبه، نظر في الساعة فوجدها تقترب من السابعة صباحًا. انتبه ليجد فريدة العارية لا تزال بجواره فغادر الغرفة بهدوء وحمل سلاحه متسائلاً عن الطارق الذي علم بوجوده في الشقة رغم حرصه على ترك السيارات الرسمية وطاقم الأمن في الفيلا. فتح الباب ليجد شابًا طويل القامة مُبتسمًا «صباح الخير يا صفوت بيه. آسف على

الإزعاج لكن أنا بنفذ أوامر» ، كلمة الأوامر جعلته يتشبث بمسدسه أكثر فسأله في حذر «أوامر مين؟» ، عاد الشاب ليكرر ابتسامته وهو يُخرج بطاقة صغيرة من جيبه «سالم . . من مكتب الرئيس السادات» .

زفر صفوت بقوة وهو ينظر إلى الشاب مندهشًا ، أشار إليه بالدخول لكنه كرر اعتذاره «للأسف مفيش وقت . . سيادة الرئيس طلب حضور سيادتك على وجه السرعة وبشكل سري تمامًا ، وطلب مني أبلغ سيادتك إن مفيش داعي المكتب يعرف بالزيارة دي» .

«ليه؟» .

«مفيش عندي أي فكرة . . دي تعليمات سيادة الريس وقالها لي بنفسه . هو صاحي وفي انتظار سيادتك» .

«طيب دقائق وهكون معاك» . أغلق صفوت الباب وأسرع يرتدي ملابسه والتساؤلات تملأ عقله ، ترك ورقة لفريدة يُخبرها بمغادرته ويطلب منها الاهتمام بإغلاق المنزل وكأنهما لم يتواجدا فيه ، وأسرع إلى أسفل البناية ليجد إحدى سيارات الرئاسة تنتظره ، التي انطلقت فور أن دلف إليها . كانت شوارع القاهرة الهادئة في ذلك الوقت تبدو كالوضع السياسي الراكد منذ رحيل عبد الناصر . الشعور بالخواء يملأ الأرجاء .

تضاعفت التساؤلات مع اقتراب السيارة من قصر القبة ، بدا من تعامل طاقم البوابة العادي أنهم لا يودون الإفصاح عن هوية الزائر ، وكأنهم يؤكدون ما قاله له الرجل عن سرية الزيارة . سارت السيارة في طرقات القصر بينما ذهنه يستعيد يوم وفاة عبد الناصر «مات الملك . . عاش الملك» ، همس بها لنفسه والسيارة تتوقف أمام المبنى الذي يوجد به مكتب الرئيس . ترجل من السيارة في هدوء والرجل يتقدمه إلى المكتب الرئاسي . ظلّت الأفكار تلاحقه ، خاصة كانت معرفته القوية بشخصية السادات جعلته في حيرة من طلبه لقاءه ، راودته الهواجس من حديث الرئيس معه في المكتب بينما يعلم قبل غيره أن اللقاء مسجل ، وأن حديثهما أيًّا كان سيضعه في موقف محرج .

جالت بذهنه عشرات الاحتمالات وهو يطرق الباب الفاخر الذي تدار منه مصر . سمع صوت السادات الواثق يدعوه للدخول ، دلف مُبتسمًا

وصافحه في هدوء، تبادلا بعض كلمات المجاملة والترحم على أيام الرئيس الراحل ثم ابتسم السادات وأخرج ورقة صغيرة من جيبه وضعها أمامه، ألقى صفوت نظرة سريعة على الكلمات المقتضبة «عارف إني متراقب.. هنشرب الشاي ونخرج نتكلم في الجنينة». ظلا في حديثهما الظاهري حتى وهو يسير معه في طرقات القصر التي خلت من العاملين غير الضروريين على عكس العادة، لم يستطع إبداء دهشته حتى وصلا إلى موضع في الحديقة به مقعدين وتحيط به الأشجار من كل جانب، عندها التفت إليه الرئيس وابتسم «شوف يا صفوت.. أنا راجل دوغري طول عمري» حنى صفوت رأسه مؤمنًا على حديثه، فأضاف «أنا عارف عنك كل حاجة من بدري، ما تنساش إن جمال الله يرحمه كان صديق عمري»..

«الله يطيب ثراه.. فقدناه كلنا»..

«يعني.. أنا مش راجل دولة وبس زي ما صبري فاكر.. مش أفندي يعني»، ارتفع حاجبا صفوت في دهشة فانطلقت من السادات ضحكته المميزة «وأنا أصغر منك قدرت أفلت من الانجليز والقلم المخصوص أكتر من مرة. عشت في البلد دي من فوقها لتحتها. نمت على الرصيف وتحت الكباري واشتغلت في إنشاءات الصرف. اشتغلت تاجر فاكهة وسواق نقل. وبعد كل البهدلة دي رجعت ظابط، وكمان كنت مندوب الحركة في الحرس الحديدي. أهم جهاز عند الملك»، صمت صفوت بينما أشعل الرئيس غليونه ونفث دخانه وهو ينظر إليه مبتسمًا «تفتكر واحد بالخبرة دي هيضحك عليه صبري والأفندية اللي معاه، اللي قاعدين يتحكموا في الناس من غير ما يخرجوا من مكتبهم»، ابتسم صفوت وهزّ رأسه نافيًا فاتسعت ابتسامة الرئيس «لكن أنت مش زي الأفندية دول. علشان كده أنا هعرض عليك عرض عاقل زيك لا يُمكن رفضه.. An offer you can't refuse".

"وأنا تحت أمرك يا فخامة الرئيس"..

"يبقى ع البركة"، قالها وجلس وهو يُشير إليه "اقعد علشان جلستنا هتطول شوية".

***

٤١

"الله أكبر . . ما شاء الله ولا قوة إلا بالله . . أيوة كده" . .

قالها الشيخ يحيى بابتسامة عريضة، وهو يُقلّب في شاشة الجهاز اللوحي الذي يحمله أحد رجاله مُستعرضًا صور فتيات جميلات يرتدين الحجاب، توقف أمام صورة إحداهن وسأله "ودي منين؟"؛ أسرع الرجل يُجيبه باحترام "أوزبكستان يا مولانا . . عندها 17 سنة . . أبوها اتوفى في الشيشان و . . "؛ قاطعه وهو يُشير إلى صورة أخرى "ودي؟" .

"دي من سوريا . . 19 سنة . . وصلت هنا بالسلامة من يومين" .

"جهزوها طيب . . عقد القران عليها بعد العشاء"، قالها وهرش في رأسه "لا استنى . . إحنا عندنا اجتماع المجلس إمتى؟" . فتح الرجل فمه ليُجيب ولكنه فوجئ والشيخ بمجدي يدخل لاهثًا "لا مؤاخذة يا مولانا"؛ أشار الشيخ إليه بالجلوس على المقعد المجاور له، ثم أمر الرجل بالانصراف سريعًا فحمل الجهاز، وهم بإغلاق الباب فبادره الشيخ "خلي حد من الشباب يعمل لنا اتنين ليمون بالنعناع" .

ساد الصمت إلا من أنفاس مجدي اللاهثة فمد الشيخ يده وربت على ظهره "مالك يا ابني . . خير"، همّ بالحديث فعاد يُسكته "خد نفسك الأول . . أهدى"، ارتكن مجدي بظهره على المقعد والشيخ يُخرج علبة سجائره ويُشعل إحداها فنظر إليه بدهشة "أنت مش عارف إني بدخن؟"، هز مجدي رأسه نافيًا وهو يلتقط منديلاً من العلبة الموضوعة على المنضدة الصغيرة بينهما ويجفف عرقه فنفث الشيخ دخانه بعيدًا "طبعًا أنا مخلي الموضوع ده سري علشان شكلي كقدوة عند شبابنا، لكن أنت ابني . وبعدين لازم تبقى فاهم إن مفيش حد من غير أخطاء . . ولّا إيه" .

"طبعًا يا مولانا . . الرسول قال لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم

يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم".
"الله يفتح عليك.. قول لي بقى.. إيه اللي جاييك بالمنظر ده؟"، سأله وهو يبتسم في تشجيع فأجاب "الجيش هيفض الاعتصام"، هتف بها وأخرج هاتفه ووضعه أمامه "جت لي رسالة من زميلنا المحرر العسكري". صمت الشيخ وابتسامته تتسع لتتحول إلى ضحكة ساخرة "طب ما يفض يابني.. هم كانوا من بقية أهالينا".
"يعني إيه يا مولانا؟"، سأله في حيرة وهو يلتقط سيجارة أشعلها في تردد، نهض الشيخ وضغط على كتفه ليظل جالسًا ودار حوله "جرى إيه يا مجدي.. وأنت فاكر يعني إني مش عارف إن قرار الفض صدر من شوية. يابني إحنا بنلعب سياسة، ومش مع أي حد".
"طيب والناس اللي هتتبهدل؟".
"زعلان عليهم؟"، سأله فأطرق برأسه، بدت ملامح الشيخ قاسية ولهجته وكأنه يعلمه درسًا "إيه المُشكلة.. دول ولاد كلب ومش فاهمين حاجة، سيبهم ينزلوا، منها نقيس رد فعل السلطة، ومنها لو مسكوهم ما نخسرش واحد مدرّب من رجالتنا".
"يعني إيه يا شيخ؟".
"يعني الموضوع مش صُغير، والحكومة مش هاتسيبنا في حالنا لو كسرنا أي اتفاق وقررنا نقف مع العيال دي.. يبقى نفضل في أمان وقدام الناس إحنا بنضحي.. ولّا إيه؟".
ساد الصمت الذي قطعته دقات الباب، أعقبها دخول أحد الشباب حاملاً صينية عليها كوبا الليمون فأشار الشيخ إلى مجدي المطرق برأسه "اشرب يابني وروّق دمك.. محدش يستاهل".
في الوقت نفسه كانت جميلة تزفر في ملل وهي تجلس أمام إحدى خيام الاعتصام مكتفية بتبادل التحيات مع رفاقها الذي يتجولون بين الخيام، نظرت في ساعتها بقلق ثم أخرجت سيجارة أشعلتها، والتقطت هاتفها لتتصل بفؤاد. نفثت دخانها في حنق وهي تسمع صوت الجرس الرتيب حتى أجاب فبادرته "أنت فين يابني آدم".

"أنتي جالك زهايمر . . قلنا هنجيب أكل ونيجي" .
"وأنت بتشتغل في المحل بتمن الأكل؟! . . بقالك ساعة" .
"لا ما هو صاحب المحل مش خالي . . اتقلي الله يسترك" .
"هقوم امشي . . يابني أنا عندي مصالح" .
"يا ستي يعني وراكي الديوان؟" ، قالها ساخرًا فضحكت "لأ . . ورايا أكل عيش يا سيدي . . سبت لك الديوان يا عم المهم" .
"مش هنتأخر . . الأكل قرّب يخلص" ، هزّت رأسها موافقة وكأنها تراه وأغلقت الهاتف ، عادت تنظر إلى الاعتصام الذي بدا وكأنه فقد الكثير من قوته . حقًّا تفتقد العديد من رفاق الميدان الذين كانوا يملأون الفراغ بين الخيام بتحركاتهم أو الهتاف ، جالت بذهنها ابتسامة سعيد الخجول يوم تعرف عليهم أول مرة ، والابتسامة الأخيرة الغارقة في الدماء ، التي التقطها رأفت بعدسته قبل أن يحطمها أصحاب اللحى ، دمعت عيناها فالتقطت إحدى سجائرها وأسرعت تُشعلها وهي تخرج من الخيمة وتنظر حولها .

عادت تترحم على الغائبين ، بينما تتناهى إلى مسامعها بضع صيحات أعقبها أصوات طرقات على الأعمدة المعدنية في الشارع ، أدركت أن هناك هجومًا على المعتصمين ، أسرعت تتأكد من وجود الأشياء الضرورية معها وعادت تتصل بفؤاد الذي أجابها بنفاد صبر "هو إحنا لحقنا" .

"الجيش" ، قالتها بارتباك وهي تتلفت حولها فرأت الآليات العسكرية مدعومة بقوات الأمن تقترب من الاعتصام فأسرع يُجيبها "امشي . . امشي بسرعة" .
"وأنتم؟" .
"جايين حالاً" .

"لأ" ، صرخت بها ولكن أجابها صفير إنهاء المكالمة ، عادت تتلفت وهي تسمع أصوات الصياح الممزوجة بطلقات الرصاص التي يطلقونها في الهواء لتفريق المعتصمين . تراجعت بينما الجنود يتقدمون لتمزيق الخيام والقبض على الموجودين . لم تدرِ ماذا تفعل ، أطلقت ساقيها للريح في محاولة للهروب ، لكن ساق أحدِ الجنود امتدت لتعرقل خطتها ، سقطت

وهي تصرخ بينما الجندي يركلها بعنف في بطنها. تضاعفت السيقان والركلات مع تصاعد صرخاتها التي شقت فضاء الاعتصام الذي بات خاليًا إلا من قوات الجيش والمتعاونين معهم وبعض الضحايا. بدأت الغيوم تتجمع أمام ناظريها مع خفوت الألم. كان آخر ما رأته هراوة غليظة تقترب من جبهتها.

***

الموضوع لم يكن ثورة تصحيح بقدر ما كان صراعًا على السلطة على خلفية الكثير من الخلافات السياسية، بعضها حقيقي وبعضها مختلق، وقد سماها السادات في البداية "حركة تصحيح"، أسوة بحركة التصحيح التي قام بها حافظ الأسد في سوريا قبل السادات بعام؛ ثم حولها الإعلام إلى "ثورة تصحيح" بعد ذلك، وقد ضرب السادات خصومه من رجال وورثة عبد الناصر، وقد ضربهم في مقتل، واتخذ من قضية الحريات الديمقراطية تكأة وشعارًا في هذه المواجهة، مما حقق له تضامنًا من قطاع ما من الرأي العام، فضلاً عن تضامن الفئة التي تضررت من الإجراءات الاشتراكية.

الكاتب والمؤرخ صلاح عيسي

"افتح" . .

ارتفعت صيحة قائد حرس بوابة قصر القبة لرجاله الذين أسرعوا بفتح الباب أمام إحدى سيارات الرئاسة فور التأكد من شخصية الضيف الذي اكتسبت ملامحه صرامة عسكرية لم ينسَها رغم ابتعاده عن الخدمة لسنوات ، أدى له الضابط التحية في قوة كشفت عن أهميته؛ عادت ملامحه إلى الاسترخاء فور أن تحرك السائق؛ والسيارة تسرع في طرقات القصر ، حتى اقتربت من المبنى الذي يحوي مكتب الرئيس ، فاستدعى ملامحه العسكرية ثانية أثناء ترجله وهو يُصافح أحد أمناء الرئاسة ، الذي قاده إلى مكتب الرئيس مُباشرة ، دون المرور على مكتب السكرتارية .

لم يكن الضيف سوى صفوت الذي شد قامته وهو يطرق الباب مُرهفًا سمعه ، حتى سمع الصوت الرزين يدعوه للدخول ، ففتح الباب ليجد الرئيس السادات جالسًا يتصفح بعض الأوراق "تعالى يا تعلب" ، قالها مُبتسمًا وأعاد الأوراق إلى مكتبه وهو يضحك "حقيقي تستاهل سُمعتك" ، ابتسم صفوت وهو يقترب من الرئيس وأحنى رأسه بحركة مسرَحية "أنا بحاول أؤدي واجبي بدقة يا فندم"؛ عاد الرئيس يبتسم "وأنت فعلاً دقيق . . كل اللي طلبته منك اتعمل في وقت قياسي" ، قالها ونهض مُشيرًا إلى صحف اليوم على مكتبه "أنا قلت لهم يكتبوا عن الأدلة اللي النائب العام بيحقق فيها علشان كل حاجة تبقى واضحة قُدام الناس" ، هزّ صفوت رأسه موافقًا "ده تعزيز للشفافية اللي فخامتك مُصّر عليها"؛ تحرك الرئيس فتراجع صفوت مُفسحًا له الطريق ، ربت على كتفه وأشار له "أنا من الصبح قاعد على الكرسي . . تعالى نقعد في الجنينة نشم هوا ونتكلم" .

سار الرئيس بخطواته العسكرية مُحييًا العاملين في المبنى ، وخلفه

بخطوات سار صفوت وحارسه الخاص، في طريقهما لمح صورة جانبية لوجه لرئيس، خطر له أن هذه الزاوية هي التي اعتاد ملوك الفراعنة الظهور بها على الرسم والتماثيل الملكية. اكتفى بالخاطرة محاولاً شغل ذهنه بمصيره بعد أن أبدى ولاءه الكامل. استمر معه في السير حتى وصل إلى مكانه المُفضل في حديقة القصر. جلس السادات وأشار إليه بالجلوس "أنت عقل لازم الواحد يحترمه يا صفوت.. أنا كمان بحب اختار الناس اللي يُعتمد عليهم.. المسئوليات مش سهلة وجمال الله يرحمه ساب لي تركة كبيرة.. البلد محتاجة كل عقل يقدر يشيل معايا".

"وأنا تحت أمر فخامتك ورهن مصلحة البلد يا فندم".

أشعل السادات غليونه الشهير "أنا عارف أنك ذكي وعارف مصلحتك فين"، وابتسم غامزًا "ومش ناسي اللي حصل لك بعد النكسة.. بتفكرني بأيام ما طردوني من الجيش"، ابتسم صفوت مُجاملاً وهو يُحني رأسه "مع الفارق طبعًا سيادتك.. تجربتك علامة لأي مُناضل"؛ قام السادات من مقعده فنهض صفوت خلفه "المرة دي أنا عايز أتمشّى.. خلاص مفيش أجهزة تسمعنا تاني".

أشار السادات لحارسه بالبقاء وسار بخطوته الرصينة وصفوت يسير خلفه بنصف خطوة بروتوكولية مع انحناءة نفاق واضحة لاحظها الرئيس وتجاهلها "أنا بعد كده مش فاضي للمؤامرات والكلام الفارغ اللي كان بيحصل حوالين جمال ده"، هز صفوت رأسه موافقًا وهو يُتمتم بكلمات ترحُّم خافتة تحسُّبًا لرد فعل الرئيس الذي ابتسم، شعر بتردده فتابع "الله يرحمه كان عنده سعة صدر لكل ده، لكن أنا عندي حاجات أهم. تحرير الأرض محتاج تركيز، لازم البلد كُلها تكون جاهزة للحظة عظيمة زي دي".

استمرا في سيرهما والسادات ينفث غليونه في استمتاع وتفكير، لم يُقاطعه صفوت واكتفى بمُتابعة العقل الجبار. أدرك أنه يحيا أفضل لحظات عُمره بعد أن اقترب من الفرعون الذي ألقى الكهنة القدامى في السجن بلا ما يُضعف من أسباب القوة التي يحلم بها؛ وقف السادات فجأة والتفت إليه "كمان شوية أنا هوقّع قرار بإحالتك للتقاعد"، تفجرت الدهشة في

وجه صفوت الذي ارتجف رغمًا عنه فضحك السادات ووضع يده على كتفه "سيبك من الرسميات اللي متعود عليها. القرار بتصفية المكتب بتاعكم كله، وإحالة كل اللي فيه للتقاعد مش أنت بس. ده قرار رسمي يتناسب مع المرحلة الجديدة".

كلمة "رسمي" التي ضغط عليها الرئيس في حديثه أعادت طمأنة صفوت الذي اعتاد العمل خارج القرارات الرسمية. أدرك أن الرئيس ينوي الاستعانة به في شيء ما فاكتفى بالصمت والسادات يُتابع "أنا هوفّي بوعدي أنك هتشتغل معايا مُباشرة، المرة دي مفيش حد زي صبري هيكون بينك وبيني"، هدأت ملامحه واكتفى بالاستماع للرئيس الذي نفث دخانه من جديد "القرار التاني اللي هوقّعه هيكون تعيينك في درجة وزير.. تبعي مُباشرة"، شعر صفوت بالقوة تتدفق في عروقه.. تألقت عيناه وشفتاه تنطق بصوت غير مسموع "هامان".

غادر صفوت القصر وقد استبدل سيارة الرئاسة التي أتت به بسيارته الرسمية الجديدة، كان يشعر بخيلاء لا مثيل له، ألقى نظرة على السائق والحارس القابعين أمامه، وأتبعها بنظرة أخرى إلى سيارة الحراسة التي تتبعه كظله عبر المرآة الداخلية للسيارة. دارت العديد من الأفكار برأسه. عادت الأمور لصالحه بعد أيام طويلة من القلق؛ هذه المرة يشعر بالفعل بأنهم يحرسونه وليس يحترسون منه "نطلع على البيت يا فندم؟"، قطع السائق تفكيره مُتسائلاً فهز رأسه نافيًا وهو يُخفي لهفته بصرامة مصطنعة "على المكتب على طول.. شايفين إن فيه وقت للراحة؟"؛ لم يرد عليه أحدهما فاكتفى بأن أدار رأسه وتعلقت عيناه بالطريق وهو يسترجع العديد من ذكرياته.. رأى حياته انعكاسًا على زجاج السيارة منذ كان ضابطًا في الجيش يتعاون مع المخابرات البريطانية والبوليس السياسي وحتى صار وزيرًا للفرعون الجديد. كان في البداية يتعجب من كمية ما يراه في خبايا الناس الذين كُلف بمتابعتهم، فكما كان احترامهم الظاهر يُثير دهشته كانت تصرفاتهم تحَت الأرض تكشف عن مرضى حقيقيين يحتاجون العزل. كم مرة رأى الطيب عنيفًا. والظالم يستحق الشفقه، الشيوخ الشواذ، والعاهرات اللواتي

يُمكنه سرد قصصهن فتستحق نوبل في الأدب. . كان الجميع يتعرى أمام مراقبته المُحكمة، بينما عالم من القيئ النفسي يستمر في متابعته كل يوم. كان الاقتراب، بل والتلاصق بهذا العالم قد جعله أكثر اشمئزازًا بعد أن انفجرت كل الصور أمامه لتبرز بشاعتها.

ابتسم عندما تذكّر قراره الذي صعد به أولى درجات النجاح، أن يتوقف عن التعامل باعتبار من يُتابعهم بشرًا. لقد أصبحوا مجرد تقارير على مكتبه، أما تسجيلاتهم فهي سينما مجانية لن يطالعها سواه حتى يترك المنصب. عندها ظلّ يتدرج في أسباب القوة، يُلاعب الجميع ويتلاعب بهم، حتى جاءت فرصته للالتصاق برأس السُلطة. عندها تحوّل من مجرد كومبارس ثقيل الظل إلى بطل الحكاية كلها.

"يُعمل بالقرار ويُعتبر نافذًا مُنذ توقيع رئيس الجمهورية عليه، وينضم إلى القرارات السرية التي لا يتم نشرها في الجريدة الرسمية"، دوت الجملة في ذهنه مُسترجعًا القرار الذي وقّعه الرئيس منذ قليل وأمر سكرتيره أن يتم العمل به فورًا. كعادته بدا أن السادات أعد كل شيء قبل حتى أن يُخبره. لمعت عيناه بالقوة وهو يعاود النظر إلى مرافقيه الذين خرج من المبنى ليجدهم بانتظاره وحارسه يفتح له باب السيارة، عندها شعر بنفسه مرة أخرى.

"وصلنا يا معالي الوزير".

عاد صوت الحارس ليقطع تفكيره بالجملة التي تمنى سماعها دومًا، أسرع الرجل ينزل ويفتح له الباب ليترجّل بخيلاء يليق بكاهن الفرعون، ألقى نظرة على الفيلا الهادئة التي تم تخصيصها ليُباشر عمله وسط حراسة كثيفة تكاد تبلغ حراسة الرؤساء فعادت عيناه تلمعان بالقوة. تحرك سريعًا مُستمتعًا بمن يهرولون خلفه حتى وصل إلى مكتبه الفاخر "نوّرت مكتبك يا معالي الوزير"، ترددت الجملة أكثر من مرة حتى استقبله مدير مكتبه بالتهنئة فأشار إليه "شكرًا يا عماد، كويس إنهم اختاروك مدير مكتبي. في كل الأحوال كنت هتبقى معايا".

"بنتعلم من سيادتك يا فندم"، قالها وخرج سريعًا بينما جلس صفوت على مقعده الذي بدا وكأنه عرشه في خيلاء حتى عاد عماد يقرع الباب

مرة أخرى ودخل وبصحبته شاب ذو عينين لامعتين "صفوت الجديد يا معالي الوزير"، نظر للشاب الواقف في صمت بينما عيناه تتفحصان ما حوله "أنت عارف مهمتك شكلها إيه؟"، سأله فأجاب وهو يحني رأسه في نفاق "خدمة معاليك يا فندم . . ده الشرف الأول والأهم".

"هنشوف"، قالها وأشار إليهما بالانصراف فأسرعا بالخروج بينما شعر بالمتعة تتدفق في عروقه، اتجه نحو الراديو الفاخر الموضوع على منضدة قريبة فأداره وعاد إلى الكرسي الذي بدا له أشبه بعرش صغير إلى جوار السادات، ظل الراديو صامتًا حتى كاد يعود إليه ليتفقده، فجأة ارتفع صوت الشيخ محمد رفعت "إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ".

***

"نورت يا معالي الوزير" . .

هتف بها مدير المسرح الكبير وهو يقف أمام بابه مُستقبلاً الوزير الذي دخل محاطًا برجاله وفي صحبته امرأة أربعينية "ده نور المسرح يا كمال . . أخبارك إيه؟" .

"في نعمة طول ما معاليك موجود" ، قالها وهو يُقبل يد المرأة دون أن يجرؤ على النظر إليها "نورتي يا هانم" ، هزت رأسها محيية في رقة والوزير يضع يده على كتفها "شاهيناز هانم المدبولي . . طبعًا تعرفها" ، رفع الرجل عينيه وبدا عليه التردد لحظات ثم اتسعت ابتسامته "أأ . . طبعًا معاليك . . وهل يخفى القمر . . اتفضلوا" .

"ما قلتليش أنك خليته مدير المسرح" ، همست بها إلى الوزير الذي ابتسم وهو يربت بيده على مؤخرتها "مكافأة نهاية الجوازة . . كفاية أنك اتطلقتي منه من غير شوشرة" .

أسرع الرجل يتقدمهم حتى وصل إلى المكان المخصص للوزير ففتح الباب وهو ينحني بنفاق "اتفضلوا يا فندم . . العرض هيبدأ بعد دقائق" ، أشار إليه الوزير لينصرف ثم التفت إلى حارسه الخاص "خلي الولاد يرتاحوا في الكافيتيريا وتعالى اتفرج معايا" .

لم تمضِ دقائق حتى أظلمت القاعة ، وبدأ العرض بسيمفونية رائعة استحوذت على انتباه المرأة التي بدأت تحرك أصابعها مع النغمات . استغرق كلاهما في العرض والوزير يكتفي ببعض الكلمات الهامسة في أذنها كانت ترسم على شفتيها ابتسامات ماجنة ، ابتسم الوزير في سخرية وألقى دعابة أخرى فجرت ضحكة مجلجلة لم تستطع السيطرة عليها ، حتى إن الممثلين توقفوا عن أدائهم وأضيئت الأضواء ، فساد المسرح صمت تام إلا من

ضحكتها التي انطلقت ثانية.

"فيه إيه.. كمّلوا".

انطلقت الصيحة من صفوت الذي ظهر مع الضوء واقفًا أمام المسرح، نظر إليه المايسترو في حيرة فتابع "معاليه جاي يتفرج عليكم.. اشتغلوا". فور قوله انطفأت الأضواء مرة أخرى وعادت الفرقة تعزف نغماتها، تحرك صفوت حتى وصل إلى موضع الوزير وانحنى في نفاق "آسف إني هقاطع استمتاع معاليك".

"أي استمتاع فيهم؟ العرض ولّا الهانم؟".

"الاتنين يا فندم.. لكن.. فيه حاجة مش هتستحمل تأخير"، قالها ومال على أذنه أكثر "الشيخ يحيى بيجهز مرشح للانتخابات".

أشعل الوزير سيجاره الفاخر ونفث دخانه "مش ده الاتفاق".

"علشان كده قلت أشوف رغبة سيادتك قبل ما أتحرك وأخربها على دماغهم". بدا على الوزير التفكير العميق فتراجع صفوت خطوة ليمنحه فرصة التفكير وهمس "عندنا فضيحتين جداد ممكن ندمر بيهم سمعة المرشح الأهبل اللي هم جايبينه ده و..".

"لأ"، صدرت منه قاطعة فنظر إليه صفوت بدهشة "بس يا فندم"، قاطعه وهو ينفث دخانه مرة أخرى "لو عملت كده هتلاقي الناس بتاعتهم بيعملوا منهم أبطال. وشوية وتلاقي الشعارات التافهة بتاعة بيحاربوا الدين وبيقفلوا السكة في وش المرشح الإسلامي وكل الكلام السخيف اللي محدش فاضي له ده".

"أوامر معاليك"، همس بالعبارة منحنيًا فهز الوزير رأسه "خليهم يتسلوا"، قالها ونفث دخانه "في كل الأحوال لازم أقعد مع الجماعة علشان أعرف دماغهم فيها إيه. لحد ما نتفق على اللي هيحصل سيب الدقون يعملوا اللي هم عايزينه و.."؛ قطع حديثهما صوت نحنحة، التفت كلاهما فوجدا المدير الذي انحنى في أدب بالغ "أنا آسف يا معالي الوزير.. بس.. يعني"، بدا عليه التردد الشديد فأشار إليه الوزير بطرف السيجار ليُكمل "معاليك يعني.. الدخان.. أصل"، تجاهله الوزير بينما

نهض صفوت ووضع يده على كتفه وهو يخرج سيجارة من علبته ويشعلها "أنت بتدخن؟"، أومأ الرجل برأسه إيجابًا فناوله السيجارة التي نظر إليها في تردد "يا صفوت بيه أنا".

"خد دخن.. أنا مش هقول الكلمة مرتين"، عاد الرجل يهز رأسه وهو يلتقط السيجارة ويأخذ نفسًا عميقًا مُديرًا رأسه لينفث الدخان بعيدًا، ابتسم صفوت وهو يربت على كتفه "كنت محتاجها.. مش كده"، هز رأسه مرة أخرى بلا معنى فتابع صفوت "عيب بقى.. أتنسون أنفسكم.. خلي عندك ضمير.. ولا تحب أكلم اللي فوقك وأقول له إنك خالفت اللوائح ودخنت في القاعة ومش فارق معاك وجود معالي الوزير".

"لا يا فندم.. لالا.. وعلى إيه"؛ ابتسم صفوت في ظفر "فرصة سعيدة.. اتفضل"، قالها وهو يأخذ منه السيجارة فتحرك الرجل ليُغادر لكنه عاد ليستوقفه "بقولك"، التفت الرجل نحوه في خوف فابتسم وهو يُشير إلى واحدة من العازفات "خلي البنت دي تكلمني في التليفون.. عايز منها حاجة".

"تعليماتك يا فندم.. اللي حضرتك شايفه"، ألقاها الرجل وغادر مُسرعًا وهو يحمد ربه على نجاته. عاد صفوت ينحني على أذن الوزير الذي ابتسم "البت عادية مفيهاش حاجة يعني علشان تطلبها وأنا قاعد"، بدا في صوته رنة انتصار وهو يُجيب "بكسر نفسه مش أكتر معاليك.. هي مش مهمة أصلاً". هز الوزير رأسه في تفهّم وأشار إليه بالانصراف فعاد ينحني بنفاق واستدار ليبتعد، ولكن الوزير استوقفه ثانية "قول لي يا صفوت.. هو الجمهور اللي حواليا وقاعد بيتفرج معايا ده حقيقي؟".

"في خدمة معاليك يا فندم.. مصر كلها في الخدمة"، قالها بخبث وكرر انحناءته ثم غادر القاعة.

***

٤٤

"حمدلله على السلامة ياخويا" . .

قالها نجيب وهو يحتضن صادق بشدة أمام بوابة السجن فأبعده برفق وهو يتفحصه "كبرت يا نجيب لدرجة أنك بقيت راجل. ده أنا عرفت شكلك بالعافية"، عاد أخوه يحتضنه وهو يضحك "يا رب أبقى راجل زيك"، نظر إليه في دهشة فاقترب من رأسه وقبّلها وسار بجواره "أوعى تكون فاكر إني مصدق كلام معالي الوزير وأنك انضميت للإخوان وعملت مؤامرة على البلد، أمك الله يرحمها حكت لي كل حاجة".

"معالي الوزير؟!"، تساءل في دهشة، فضحك وهو يُشير إلى سيارة أجرة "أنت ماعرفتش إن خالك بقى وزير بعد حركة التصحيح. ده بقى وزير مهم أوي". توقفت سيارة فدلف كلاهما إلى المقعد الخلفي وصادق يقول في امتعاض "يعني من إقالة بعد النكسة للوزارة.. تصحيح إيه اللي يجيب صفوت وزير"، ضحك نجيب وهو يهمس في أذنه "أومال لو شفت كمية المسئولين اللي حضروا عزاء ماما الله يرحمها، من أول السادات نفسه لحد أصغر واحد في الحكومة، دا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بنفسه هو اللي كان بيقرا في العزا".

"الله يرحمها"، دمعت عينا صادق وهو يقرأ لها الفاتحة بصوت خافت وشاركه نجيب صمته حتى عاد يُحدثه وهو ينظر من نافذة السيارة "البلد اتغيرت كتير في الكام سنة اللي دخلت فيه المعتقل"، انتفض سائق السيارة الذي اخترقت الكلمة أذنه والتفت نحوهما في خوف فأشار إليه نجيب "خلاص يا أسطى مابقاش فيه معتقلات، أنت ماسمعتش خطابات الريس ولّا إيه، وبعدين ده بدل ما تقول للراجل حمدلله على السلامة".

"حمدلله على السلامة يا أستاذ.. ربنا نجاك من شياطين الإنس"،

قالها السائق وهو ينظر لصادق في المرآة الداخلية فابتسم "لا مؤاخذة يا أسطى بس أنا بقالي كتير جوة، أخبار البلد إيه على حسك"، ضرب السائق كفيه في تعجب "والله يا أستاذ محدش فاهم ولاَ عارف حاجة. شوية يقولوا هنحارب، وبعدين يرجع يقول لك أصل الضباب مغطي المنطقة فهنأجل الحرب شوية. والحال بقى في النازل، المجهود الحربي شغال طول الوقت والأسعار بتغلى. تتصور إن الدولار بقى بتلاتين قرش"، قالها وتنهد وهو ينظر إلى صورة جمال عبد الناصر التي يضعها على تابلوه السيارة "الله يرحمك يا ريس". لم يشأ صادق مجادلته بشأن الزعيم المهزوم الذي سمح لخاله وأمثاله بإلقائه في المعتقل وتدمير مستقبله فأشاح بوجهه وعاد ينظر إلى القاهرة التي عاد إليها وكأنه خرج من فجوة زمنية.

بدت الوجوه في الشارع كئيبة على غير ما عهد، رأى في إشارة المرور الكثير من الاحتكاك بين المارة وكأن أحدهم ينتظر فقدان أعصابه، خطر له أن هذه الوجوه العابرة تبدو أحيانًا وكأنها مشكلة أخرى تنتظر الحدوث. تنتظر لحظة ما قد تتحدث فيها، تذكّر وجه سارة الجميل الذي كانت قسماته تتحرك في عبوس وقت الزحام، فتبدو وكأنها توبخه على شئ لم يحدث، وكأن مظهره كاف لهذا. تمنى لو كانت بدورها تنتظره مع نجيب وتتشبث به فور خروجه، شعر بمتعة هذا اللقاء الذي لن يحدث كثيرًا في معتقله، رغم يقينه بأن هذه اللحظة لن تأتي أبدًا.

"وناوي تعمل إيه ياخويا؟"، سأله نجيب في اهتمام لكنه تجاهل سؤاله الذي لا يعني شيئًا بينما لا يزال في أولى ساعات حريته يتعرف على ما حوله وكأنه مولود جديد. استمرت السيارة في اختراق شوارع القاهرة التي بدأ الزحام يغزوها بينما لم يتوقف عن التفكير ولو حتى لثوان، جذب عينيه والسيارة تعبر الإشارة طفلة تنظر إليه من خلف زجاج حافلةً المدرسة، خطرت له فكرة أنه مجرد مشهد عابر ينتهي مع أول انحناءة للطريق. هكذا كان بالنسبة للكثيرين، وهكذا سيظل إن لم يستطع إجابة سؤال شقيقه.

«أنت أخبارك إيه؟»، كسر صمته بسؤال أدار به دفة الحديث فهز نجيب كتفيه «زي أي شاب. خلاص هتخرج السنة دي من كلية التجارة،

صفوت كان نفسه يدخلني الحربية بس ماما حلفت عليه ما يحصل، قالت له مش كفاية فاروق الله يرحمه. لكن طبعًا هدخل الجيش اللي الله أعلم هخرج منه إمتى. ويا ترى هخرج منه ولّا زي فاروق». سقطت دمعة من عينه فاحتضنه صادق «وماله فاروق. لسّه حي يا حبيبي. يا إما هيرجع لنا في يوم، يا إما بقى شهيد وهو حي في السما. طب هو فيه أحسن من كده»، بدأت دموع نجيب في التساقط فرفع رأسه تجاهه ومسحها «مش أحسن ما كان يبقى زي خالك». صمت الشاب وقد أدرك مدى كراهية شقيقه للخال الذي حاول الاعتناء به. لم يكن يحمل الغضب نفسه تجاه صفوت الذي تولاه بالرعاية منذ وعيت عيناه الدنيا. حقًّا كان كغيره يسمع الحكايات الأسطورية عن قسوته وظلمه، لكن الشاب لم يبدُ على استعداد لدعم هذه الكراهية.

«أخبار الجيران إيه؟»، عاد صادق يسأل فأشار نجيب إلى الشوارع «هم كمان اتغيروا زي ما كل حاجة اتغيرت. اللبس، والشوارع، والمحلات، والعربيات، والناس. حتى طريقة الكلام اتغيرت عن اللي أنت عارفه»، قالها وابتسم في ارتباك «البلد بعد النكسة كأن كلها أموات ماشيين في الشوارع، كل بيت بقى زي بيتنا، فيه واحد راح في الحرب. زي ما قبله واحد تاني راح في المعتقل».

«كأنه عالم جديد خالص»، همس بها صادق لنفسه وهو يحاول استرجاع ذكريات عالمه قبل أن يزج به صفوت إلى المقبرة التي لم تفتح بابها إلا بقرار السادات نفسه. حاول جاهدًا أن يتذكّر ملامح ذلك العالم، لكن سنوات المعتقل كانت ذاكرته الحقيقية التي شعر وكأنه يود انتزاع مخه واستبداله بآخر جديد كهذا العالم الذي تعرّف فيه أخاه بصعوبة.

«وصلنا. . حمدلله على السلامة»، قطع نجيب أفكاره وعجلات السيارة تتوقف في ميدان طلعت حرب. هاله شكل الميدان الجديد الذي امتزجت فيه المباني التي يحفظ كل شبر فيها بالمحلات العصرية التي شعر بها كجسم غريب ينفّره من الموضع الذي قضى فيه أغلب حياته القديمة، جالت عيناه بالشوارع التي كان يتسكع فيها مع حسن ويتشاجران من أجل

سارة العزيزة. تساءل عن مكانها الآن وهل استقرت في فرنسا كما يرغب أبوها، أم قادها مصيرها لتكون واحدة ممن احتلوا الأرض. نفض عن رأسه فكرة كونها واحدة من قوات الاحتلال التي سفكت دم أخيه، ورفع عينيه إلى شرفة أرماني المغلقة التي صارت من ممتلكات خاله البغيض وهمس «الله يرحمك يا عم أرماني».

***

«ولدي عطيتك بدل البالون ميت بالون..

انفخ وطرقع فيه على كل لون..

عساك تشوف بعينك مصير الرجال..

المنفوخين في السترة والبنطلون..

وعجبي»..

صلاح جاهين

ارتفع رنين شقة أكرم بأجراس متوترة جعلته يخرج من المطبخ متحفزًا، تجاهل البراد الذي أوشك ماؤه على الغليان، بعد أن أنهى لتوه مكالمة مع رئيس تحريره أبلغه فيها بأن قرارًا باعتقاله صدر من «مستوى عال جدًّا»، حسب تعبير عبد الرسول الذي كاد يتوسل إليه في الهاتف أن يبقىً بيعدًا عن الأنظار لأيام قد يستطيع فيها إقناع المسئولين بإلغاء هذا القرار؛ كان الرجل – رغم تمرغه في خدمة النظام – يحافظ على الصداقة التي جمعتهما على مدى سنوات من العمل المشترك التي تدفعه للحرص عليه.

عاد الجرس يدق بإلحاح فاقترب من الباب بحذر ليسمع صوت جميلة الخافت «آدي أخرة السرعة.. أديني نسيت المفتاح»، مع قولها فتح الباب ليجدها وفؤاد اللذين قفزا يحتضنانه فأشار إليهما بالدخول سريعًا «فيه إيه» سألهما وهو يغلق الباب، فقال فؤاد بصوته اللاهث «طلع لي أمر اعتقال يا معلم.. وأنا نازل من الميكروباص عند البيت قفشني صاحب الكشك وقال لي امشي علشان فيه كمين مستنيك.. خدت بعضي وكلمت جميلة. عدت خدتني وجينا على هنا»..

«الحال من بعضه»، قالها وهو يُلقي جسده على الأريكة الصغيرة فنظرت إليه جميلة مندهشة «أنت كمان؟!»، أومأ برأسه إيجابًا «عبد الرسول لسه قافل معايا.. بيقول إن الأمر من فوق أوي.. حد يدخل يكمّل الشاي.. المية غليت». لم يكد يتم عبارته حتى دق جرس الباب مرة أخرى فانتفض، ولكن جميلة أشارت إليه ليهدأ «ده شكري.. أنا كلمته علشان نشوف فيه إيه»، فتح فؤاد الباب بينما أغلق أكرم عينيه وهز رأسه «لامؤاخذة يعني مش بعيد يكون أبوه هو اللي عملها».

«أنت أتفه من أنه يفكر فيك»، ارتفعت العبارة بصوت صفوت الذي

دخل خلف شكري وتابع وهو يغلق الباب «ده راجل بيدوّر بلد . . تفتكر فاضي يدوّر عليك» ، نظروا جميعًا لشكري الذي أشار إليهم بالهدوء «أنا قفلت التليفون ولقيته قدامي . . قال لي آجي معاك أو أبعت حد يجيبهم . . تفتكروا كنت ممكن أعمل إيه؟» .

«نوّرت يا صفوت بيه» قالتها جميلة بسخرية فقابلها بسخرية أشد وهو يُلقي معطفه على الكرسي المجاور لها «ده نور بشرتِك يا مُزّة . . وحياتك لولا أنك غالية على شكري كان زمانك عندي في البيت» ، تجهمت ملامحها في غضب فأسرع يقول «إيه . . هُمّ بتوع الثورة مالهمش في الهزار . . دا انتوا حتى مغرقين الفيس إفيهات» . .

«تشرب إيه يا باشا؟» ، سأله فؤاد وهو يتجه نحو المطبخ فأشار بأصبعيه علامة النصر «نسكافيه معلقتين سكر زي دمك كده . . مش برضه سكرك مش مظبوط اليومين دول» ، نظر إليه بدهشة وأدار رأسه إلى شكري الذي رفع يديه مدافعًا عن نفسه «أكيد مش محتاج لي علشان يعرف ده» ، هز فؤاد رأسه ودخل المطبخ بينما جلسوا متفرقين في الردهة الصغيرة؛ خرج فؤاد بصينية الشاي وأعطى صفوت كوبًا مختلفًا فنظر إليه بغرابة «ما تخافش يا باشا . . مش مسمومة» ، ضحك صفوت والتقط كوبه ورشف منه «ولو مسمومة . . مش أول مرة» . .

«راسبوتين حضرتك» ، قالتها جميلة بسخرية فانحنى بحركة مسرحية «ربك مش بيدي الواحد كل حاجة . . أنا عندي نفس المرض اللي كان في معدته ، بس أهو ع الأقل نفع في شغلانتي دي» ، تجاهله أكرم ومال على أذن شكري هامسًا «سيبك من كل ده . . لقيت رضوى» ، هز رأسه نافيًا بحزن بينما ضحك صفوت الذي التقط السؤال «أنت عارف . . لو عايز أجيبها هعمل ده قبل ما ترمش» ، ضحك فؤاد عاليًا وأشاح بيده «عند سيدنا سليمان كان فيه الراجل اللي عنده علم الكتاب . . ده الوحيد اللي قالها»؛ ضحك أكرم بدوره وأشار إلى شكري «ما هو يا إما أبوك بقى الملك سليمان ، يا إما لامؤاخذة صاحبتك تبقى بلقيس ، وفي الحالتين أصدق إن صاحبك ده ممكن يكون عفريت من الجن»؛ صمت شكري وكلاهما غارق

في ضحكاته بينما أشعلت جميلة سيجارتها بعصبية وهي تنظر إلى صفوت الذي لم تفارقه ابتسامته الواثقة؛ ترك الصديقان حتى فرغا من ضحكاتهما ثم التف إلى شكري قائلاً «تحب تجرب؟» . .

«هتعمل إيه» ، سأله شكري وقلبه يخفق بشدة ، هّم بسؤاله مرة أخرى فأشار إليه بالصمت وأخرج هاتفه الصغير وطلب رقمًا ثم همس ببضع كلمات وأعاده إلى جيبه وهو يُشير للباب «قوم افتح . . عندنا ضيوف» . لم يتحرك شكري وظلت عيناه على الباب وكأنه سينفتح تلقائيًا ، بينما أدركت جميلة ما بداخله ، فتحركت ببطء لتفتح الباب الذي ارتفع جرسه بدقة واحدة مفاجئة ، فانتفضت لترتفع ضحكة صفوت العالية «افتحي يا شاطرة يمكن تكسبي» . . ترددت جميلة لحظات ثم فتحت الباب لتُفاجأ بأحد رجاله يُشير إلى فتاة بالدخول .

«رضوى!» . .

هتف شكري باسمها فأشار صفوت إليه بالصمت وهو يُشير بصرامته المعهودة للرجل الذي وقف منتظرًا أمرًا جديدًا «بلّغ حرس سيادة السفير إن عندهم كام ساعة راحة . . إحنا مطوّلين هنا شوية» ، أحنى الرجل رأسه وهو يتراجع ويُغلق الباب ليلتفت صفوت إلى صديقه «ويمكن يبات كمان . . هو وشوقه»؛ لم ينبس أحدهم بكلمة بينما احتضن شكري فتاته بقوة وكأنه يريد أن يُدخلها ضلوعه رغم كل ما حدث .

التفت في تساؤل لتابع أبيه فيما سقطت منه دمعه ، حاول الكلام ليُبادره صفوت «اعتبرها خدمة ماقدرتش ما اعملهاش رغم أوامر سيادته . . نزوة . . ركعتين قرر إبليس يصلّيهم رغم إنه يائس من الرحمة . . معنديش تفسير . . وحتى لو عندي مش هقوله»؛ هز شكري رأسه متفهمًا بينما أخرج فؤاد سيجارة ملفوفة وأشعلها ، نظر له صفوت بسخرية ونهض إلى معطفه وأخرج من علبة كبيرة فتحها لتبرز منها عدة سجائر محشوّة «ولّع من دي بدل تبن البهايم اللي متعود عليه»؛ تردد فؤاد وهو ينظر للعلبة ، ولكن شكري أومأ إليه برأسه مُشجعًا وهو يضم رضوى أكثر ، فأطفأ سيجارته والتقط سيجارة وأشعلها ، دخّن بضعة أنفاس وأعطاها لأكرم الذي أراد أن يُغيظه فالتقطها

وهتف «ماشي . . تدوم الاصطباحة يا جنرال»، امتعض وجه صفوت من اللقب وهو يعود لجلسته الواثقة، فأسرع فؤاد يُكمل ساخرًا «إيه . . اللقب مش قد المقام؟»، ابتسم صفوت بسخرية أكبر وانتفخت أوداجه وهو يلتقط سيجارة أخرى ويشعلها «العفو يا راجل . . الجنرالات ليهم مكانهم . . ده مش بتاعي»، قالها وأعطى جميلة الصامتة السيجارة ثم التقط منه سيجارته وتابع «لكن لامؤاخذة أنا أهم . . أنا خدّام الملوك نفسهم . . كلمتي من كلمة الوزير . . هيبتي من هيبته . . أنا الدراع اللي يتحرك قدّام الناس فيخافوا»، صمتوا لقوله بينما أخذ بضعة أنفاس مُتتابعة وأكمل «ومع كل ده أنا عندي حرية مش عند ولا جنرال من اللي صورهم بترعبكم . . هُمّ متكتفين في البدلة والنياشين . . أنا محدش يقدر يمسّني» . .

«يعني أنت كنت عارف اللي حصل النهارده؟»، سأله شكري وهو يجلس ورضوى بجواره فأومأ برأسه «يا حبيبي مفيش حاجة تحصل في البلد دي من غير تخطيطي . . وانتم فاكرين انتوا اتلميتم هنا إزاي»، قالها ونهض بأسلوبه المسرحي وأشار إليهم «طبعًا ما عدا شكري محدش فيكم يقدر النهارده يروّح بيته . . أنتم يا جوز الخيل طلع لكم أوامر اعتقال . . أظن عبد الرسول كلمك يبلغك يا أستاذ أكرم . . وأنتي يا شاطرة طبيعي أنك مش هتسيبي أصحابك في ظرف زي ده . . أما شكري فمتأكد طول الوقت إن وجوده حماية ليكم . . وطبعًا مفيش غير الشقة المعفنة دي اللي فاكرين إن محدش يعرف عنها حاجة»، ساد الصمت بينهم بينما عاد صفوت ليُشير إلى أكرم «بالمناسبة أنا اللي قلت لعبد الرسول يكلمك . . ما تنساش إنه الراجل بتاعنا» .

«طيب ليه القعدة دي؟»، سألته جميلة وهي تنظر إلى رضوى التي التصقت بشكري أكثر، فمال صفوت برأسه ناحيتها وهمس «بتسلى»، نظروا إليه بدهشة فتابع «اعتبروها تسلية . . حسد . . عاجبني إن بكل اللي بيحصل لكم وفيكم لسّه أصحاب . . بتتخانقوا ألف مرة وترجعوا تتجمعوا . . بتحبوا بعض مش طمعانين في بعض . . حتى وأنتم بينكم ابن أهم راجل في مصر ما فكرش حد منكم يطلب حتى يطلّع رخصة»، صمتوا

بينما تابع وهو يُشير إليهم واحدًا بعد الآخر «بتكمّلوا بعض وفي نفس الوقت محتاجين بعض»، خُيل لعيني شكري أن صديقه يكاد يدمع وهو يقول «لكن أنا بكل اللي عندي واللي تحت إيدي لوحدي. . لو جت لي واحدة يبقى عايزة أو خايفة. . اللي بيسمع كلامي علشان خايف. . اللي يفرح يستخبى لأني هعدم فرحته». .

«الشيطان طول عمره لوحده»، قالها فؤاد فالتفت له بحدة «حاسب جناحك يا عم الملاك. . أنا مش شيطان خالص، وأنتم مش ملايكة. . مش عاجبكم حال البلد وأنتم خاربين حالكم. . مخدرات ونسوان ولفّ في الشوارع. . ساعتين شغل في اليوم والباقي وساخة. . يا أخي دا أنتم لو حتى كنتم ملايكة كان زمانكم خربتوا الدنيا». .

«استغفر الله» صدرت من رضوى التي نظر إليها صفوت بطريقة جمدت الدم في عروقها رغم وجود شكري «مش معنى إني سمحت لك تظهري أنك هتساوي نفسك بيا وتقعدي تتكلمي معايا. . الله. . تعرفي عنه إيه يا جربوعة يا بنت سواق التوك توك علشان تتكلمي باسمه. . أنا أعرف عنه اللي خلفوكي ما فكّروش يعرفوه. . أمك الشغالة حافظة آية الكرسي بالعافية». .

«إبليس كان من أكتر أهل السماء علم»، قالتها جميلة فالتفت إليها «وهاروت وماروت كانوا ملايكة. . لمّا ربك ابتلاهم بالشهوة عملوا كل حاجة. . علشان واحدة حلوة زيك كفروا. . قتلوا. . علّموا الناس السحر. . قولي لي بقى البني آدم الضعيف اللي زيي يعمل إيه. . سلطة ونسوان وجاه ومُلك. . حرس وعبيد وخدم. . بلد بحالها تحت رجلينا»، صمتوا وجميلة تُشيح برأسها بعيدًا وهو يُشير إلى شكري «أنت لو كنت مكان أبوك كنت عملت أضعاف اللي عمله علشان يبقى الوزير. . حظك إن الوضع اتبدل ياللي اتولدت في قصر من دهب». التفت إلى أكرم وفؤاد «وأنتم بكل المبادئ اللي قارفينا بيها واللي مليتوا دماغ شكري بيها لو قعدتم يوم مكاني هتعملوا أكتر من كده»؛ التقط بضعة أنفاس وأشار إلى رضوى «الحشرة دي كان ممكن تبقى مكان صاحبتك ياللي عشقت بنت قارون. . بس نصيبها كده». .

«وأنا؟» ، سألته جميلة ، فعاد يلتفت إليها «طالما بتتكلم عن القدر والنصيب وشايف نفسك من أهل العلم . . تفتكر كان ممكن أبقى إزاي؟» ، ضحك بقوة وهو يسحب آخر أنفاس سيجارته وأشار إليها «اللي زيك ما بيتغيرش . . دايمًا فيه حد موزون . . الحضن اللي بيلم الناس كلها . . طول الوقت أنتي خط النُص زي ما بيقول بتوع الكورة . . رمانة الميزان اللي تحسس الكل إنه راضي . . رغم أن عمرك ما هتحسي بالرضا» ، قالها وغمز «زيك زي أول أولاد آدم . . نصيبك كده» .

ساد الصمت بينهم فنهض صفوت يلتقط معطفه واتجه نحو الباب وهو يقول دون أن ينظر إلى أحد «كلمتين الفضفضة خلصم . . بكره أوامر الاعتقال هتتلغي . . تقدروا تروحوا بيوتكم . . وأنا نازل هدّي تعليمات للحرس أنك هتنزل الصبح يا معالي السفير . . ليلتك حمرا» .

***

في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا صدرت الأوامر إلى رئيس هيئة العمليات بإبلاغ القيادات بنزع خرائط المشروع الاستراتيجى ووضع خرائط خطة العمليات الحقيقية، وتم إغلاق جميع الأبواب، وفي نفس الوقت توجه الفريق أحمد إسماعيل إلى قصر الطاهرة لاصطحاب الرئيس إلى المركز دون علم أي أحد، وكنت في شرف استقباله، وكانت كل أعصابي مشدودة وأنا أقوم بتحيته، حيث سيتقرر مصير تلك الأمة خلال ساعة واحدة فقط، وقلت له: بالتوفيق وبإذن الله ربنا سينصرنا فى معركتنا، فرد قائلاً وهو يشد على يدي: على بركة الله.

اللواء حسين الجريدلي – مذكرات ضابط مصري

لا شيء أقسى على نفسي من كتابة ما حدث في أكتوبر، فلم يكن ذلك حدثًا رهيبًا فقط وإنما كانت مأساة عاشت وسوف تعيش معي حتى الموت، فلقدت وجدت نفسي فجأة أمام أعظم تهديد تعرضت له إسرائيل منذ نشأتها ولم تكن الصدمة فقط في الطريقة التي يحاربوننا بها، ولكن أيضًا لأن عددًا من المعتقدات الأساسية قد انهارت أمامنا.

مذكرات جولدا مائير

«الله أكبر . . ألف مبروك يا معالي الوزير . . الحمدلله» . .

ارتفعت تحيات وتهليل العاملين في مقر الوزير وهو يتحرك بصحبة عماد وصفوت الجديد قاصدًا مكتبه ، ابتسم عماد ومال على أذن صفوت «أومال لو كنا شغالين في القيادة كانوا عملوا إيه» ، بادله صفوت الابتسامة وهمس حتى لا يسمعهما الوزير «هم عارفين إنهم في القيادة التانية . الفرق بينهم وبينا البدلة الميري» ، اقترب منه بالابتسامة نفسها وأضاف «يا أخي خلي الناس تفرح» .

بدا الوزير رائقًا وهو يُشير إليهما بالدخول ، ليدلف كلاهما ويحتلان المقعدين المواجهين لمكتبه ، أخرج سيجاره الفاخر فأسرع كلاهما يُشعل قداحته ، فاختار قداحة عماد ونظر إلى صفوت الذي شعر بخيبة أمل «you still young my boy . . بكره يجي عليك الدور" ، ابتسم صفوت ونظر له عماد وهو يُشير للوزير "بصراحة يا فندم صفوت بيتطور بطريقة تفوق كل التوقعات . كل المهام اللي تم إسنادها له نجحت بامتياز" ، اتسعت ابتسامة صفوت بينما أطلق الوزير ضحكة عالية ونفث دخانه الكثيف "مفيش صفوت بيفشل يا عماد" .

"بس . . " ، لمح الوزير في صوت مدير مكتبه نبرة خبيثة فتساءل "فيه مشكلة؟" ، شارك صفوت وزيره التساؤل نفسه بنظرته ، فأضاف عماد "موضوع البنت اليونانية اللي معاليك طلبتها لسّه ما خلصش" ، أدار الوزير وجهه نحو صفوت الذي تنحنح "كان فيه أولويات بس يا فندم . تقارير الجبهة الداخلية وطلبة الجامعة والرأي العام كانت مطلوبة على وجه السرعة ، وعماد بيه قال لي إن سيادتك طلبت إنها توصل الرياسة قبل الأجهزة التانية" .

"فعلاً . سيادة الريس كان طلب التقارير دي ، وأكيد أوامر القيادة

السياسية لها الأولوية على أي طلب تاني. خصوصًا إن البلد في حالة حرب"، قالها الوزير فتنفس صفوت الصعداء وكأنه منحه صك الغفران لكن الوزير تابع "لكن مش معنى ده إن أوامري أنا كمان تتأخر". ابتسم عماد في تشفي واضح، فتنحنح صفوت "بصراحة سيادتك.. كتير بحس إني مش فاهم".

"وهو أنت المفروض تفهم؟ أنا عايزك تنفذ يا شاطر".

"على الأقل أفهم الجزء اللي هنفذه"، نظر إليه الوزير بسخرية جعلت ركبتيه ترتطمان ببعضهما البعض، قام من مقعده واتجه نحو الثلاجة الصغيرة "سيب الفهم للي بيفهم.. أنا عايزك تعمل ده.. أعمله"، هز رأسه مؤمنًا على حديثه "البنت دي غريبة وكنت لسه بدرس ملفها"، أخرج إحدى سجائره ونظر إليه منتظرًا الإذن بإشعالها، أشار إليه الوزير بالموافقة فنفث أول أدخنته وسأله في خفوت "طب افرض سيادتك إن هي مارضيتش؟".

"تبقى المشكلة عندك.. أنا كل اللي عايز أعرفه أنها تكون عندي بكره.. زي ما ولدتها أمها.. التفاصيل دي مش هوجع بيها دماغي.. هبقى أبص عليها في الورق بعدين".

أحنى كلاهما رأسه في طاعة فأضاف "الكلام ده ما يتكررش. اتعلم تعمل ألف حاجة في وقت واحد وأنت مسيطر على الأمور كلها".

"تلامذة معاليك يا فندم"، قالها صفوت بنفاق واضح فصمت الوزير وهو يتفرس في ملامحه، ثم أشار إلى مدير مكتبه باتجاه الباب "سيبنا شوية يا عماد. عايز التلميذ الجديد في كلمتين". أسرع عماد بالخروج ولكن الوزير استوقفه "قبل ما تروح مكتبك خليهم يعملوا لنا اتنين شاي"، بدت الدهشة على وجه عماد "مش هتشرب قهوة معاليك"، هزّ رأسه نافيًا "قلت شاي يا عماد. من إمتى بكرر كلمتي مرتين".

"أوامر معاليك"، قالها في خجل وكأنه ارتكب خطأً فادحًا وانسحب سريعًا وهو يُغلق الباب خلفه. ظل صفوت على صمته بينما نفث الوزير بضعة أنفاس من السيجار "هو أنا ممكن أثق فيك يا صفوت؟"، تعجّب الشاب من السؤال فخرجت إجابته مرتبكة "أنا راجل معاليك يا فندم. دراعك اللي بينفذ

كل الأوامر"، قالها وابتلع ريقه بصوت مسموع "فيه حاجة صدرت مني ضايقت معاليك؟"، أشار الوزير بالنفي وبدا عليه التفكير "شوف.. أنت بقالك معايا سنتين تقريبًا. محدش شاف عليك غلطة أو اتلكعت في تنفيذ أمر. تقاريرك كلها ممتازة واللي برة التقارير بيقول إنك شاب موهوب وطموح".

"كلام معاليك شرف ليا".

"مش عايز تعريص"، قالها ونهض، فأسرع صفوت بالنهوض لكنه ضغط على كتفه ليعاود الجلوس "ومش عايز مقاطعة لكلامي. يمكن اللي هقوله ده يكون غريب. لكن قبل ما أقوله أنا واثق في ردة فعلك". استمر صفوت على صمته، جلس الوزير في المقعد المواجه له وتابع حديثه وهو ينظر في عينيه "بعد الحرب الأمور هتتغير. مشاكل البلد مش هتخلص، على العكس هتزيد. الناس كانت ساكتة لأن كان فيه هدف كبير محدش يقدر يتكلم علشانه. لكن دلوقتي خلاص إحنا بنحرر الأرض. الأيام اللي فاضلة بعد كده مش كتير".

صمت الوزير مع دقات الباب التي أعقبها دخول الساعي الذي وضع صينية الشاي أمامها ثم انصرف سريعًا، ظل الوزير على صمته لحظات ثم تابع "خريطة الأحداث كلها هتتغير، الناس هتبدأ تبص على اللي كانت مش فاضية تبص عليه. في الوقت ده لازم نكون جاهزين بخطة عمل جديدة. لازم نلهي الناس في حاجات تانية".

"بس الحرب هتقعد شوية".

"حتى لو قعدت.. بالونة الحرب والفرحة والزهوٍ وكل الكلام ده مش هياخد وقت كبير زي ما أنت فاكر. طلبة الجامعة مثلاً هيتخرجوا ويقعدوا في الشوارع بعد ما كانوا بيفضلوا في الجيش. دول طاقة كبيرة ممكن أي حد يستغلها ضد مصلحة البلد أو النظام، الاقتصاد منهار تمامًا ولحد دلوقتي مفيش أي كلام أو خطة مستقبلية عن تطويره. حتى بالونة الخطط الخمسية ما عدتش تنفع".

"والحل يا فندم؟" تساءل صفوت في حيرة، فابتسم الوزير وهو يلتقط كوب الشاي "هنا يجي دورنا. النظام ده لازم يستمر لأن من غيره أنا هبقى

معاش وأنت هتترمي في الشارع. لازم نفكر ونحط خططنا. لازم نبقى عارفين كويس إيه اللي هيحصل لعشر سنين قُدّام . . ده دورك".

"رقبتي يا فندم"، قالها بحماس، فابتسم الوزير بسخرية "لا وحياة أبوك بلاش الكلمتين دول . . جربناهم قبل كده والبلد كلها اتعكت فيها"، ضحك صفوت وقد فهم ما رمى إليه "آسف سيادتك. أنا عايزك تكون واثق في كلامي وقدراتي"، ابتسم الوزير وأشار إلى الباب الجانبي الذي يؤدي إلى مكتب عماد "وأوعى تثق في حد غير نفسك. فاهم؟".

"بالتأكيد"، أشار الوزير إليه بالانصراف ثم تذكر شيئًا "صحيح يا صفوت"، التفت صفوت إليه وقد شدّ قامته فأشار إليه "ما ينفعش واحد في منصبك ينزل الجمالية علشان يجيب حشيش . . ابقى كلّم الداخلية يبعتوا لك اللي يكفيك كل شهر. ابتسم صفوت في خجل وهو يُغادر "تمام معاليك".

***

أعلنت اللجنة العليا للانتخابات الرئاسية فوز محمد مرسي العياط في انتخابات الرئاسة، ليكون الرئيس الأول بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، والرئيس الخامس الذي يتولى سدة الحكم في مصر؛ وانطلقت احتفالات كبيرة في ميدان التحرير وسط القاهرة، حيث اجتمع مئات الآلاف من المصريين منذ أكثر من ثلاثة أيام لانتظار نتيجة الانتخابات الرئاسية.

وانطلقت احتفالات بشكل عفوي مع إطلاق نار في الهواء في كافة مناطق قطاع غزة فور إعلان فوز مرسي؛ وأطلق عشرات المسلحين من أسلحة متنوعة في مناطق مختلفة من القطاع النار في الهواء احتفالاً؛ واعتبر محمود الزهار، القيادي البارز في حركة حماس، أن فوز مرشح جماعة الإخوان المسلمين برئاسة مصر "لحظة تاريخية وانتصار كبير".

أخبار صحفية

٤٧

"صفوت بيه وصل يا معالي السفير".

ارتفع صوت مديرة مكتب شكري الواقف أمام نافذته المطلة على النيل لتنتزعه من أفكاره، فانتفض جسده والتفت إليها في غضب فأشارت إلى الباب "أنا خبّطت مرتين"، تراجع عن توبيخها وهز رأسه وهو يُشير إليها لتُدخل الضيف، تراجعت خطوة فاصطدمت بصفوت الذي أشار إليها في وقاحة "المؤخرة دي بتقول إنك هتبقي في مركز مهم.. ابقي كلميني"، تراجعت الفتاة وهي تغلق الباب خلفها في دهشة فأشار إليها "رقمي على تليفونك".

"سيبك من اللي شغالين معايا"، قالها شكري وهو يُشير إليه بالجلوس "خطوة عزيزة يا صفوت بيه"، أشار إليه صفوت دون أن يجلس "إحنا لسّه هنعمل مضيفة.. يلّا يا عم". نظر إليه شكري في دهشة وهو يجلس "إيه.. معاليه عايزني تاني؟".

"لأ.. المرة دي أنا اللي عايزك"، قالها صفوت ببطء فعاد ينظر إليه ليُتابع "سيبك من آخر مرة قعدنا فيها مع أصحابك. أنا وأنت بقالنا كتير ما قعدناش سوا.. أنا عارف أنك زعلان مني علشان اللي حصل، لكن أنت عارف يا صاحبي إن دي أوامر. وبعدين تيجي مني وأكون واخد بالي من كل حاجة بدل ما حد تاني ينفذ أوامره. ساعتها مش هتلاقي أثر لها بقيت عمرك". هز شكري رأسه موافقًا ونهض من مقعده "هنسهر فين بقى المرة دي؟".

"سهرة زبالة مش هتنساها".

غادرا مقر الخارجية سريعًا ليجد شكري واحدًا من رجال صفوت منتظرًا أمام سيارته، توجس خيفة لكن صفوت لم يعطه الفرصة للتفكير وهو يُشير للرجل "إدي له المفاتيح.. هيوصل عربيتَك قدام البيت"، أخرج شكري مفاتيح سيارته وألقاها للرجل واستقل مع صفوت سيارته التي

انطلق بها سريعًا وهو يُشغل الراديو بصوت عال "برضه مش هتقول لي على فين"، عاد يسأله فأطلق صفوت ضحكته المعتادة "مكان مهبب محدش ممكن يعرفك فيه".

"وأنت؟".

"أنا طوب الأرض عارفني يا صاحبي.. مش محتاج أستخبى"، قالها ونظر إليه في سخرية "على الأقل في وجودي محدش هيسأل أو هيقول لك رايح فين أو أنت مين". ابتسم شكري وأشار إلى الطريق "إجابة مُقنعة".

لم يُعلق صفوت واكتفى بهز يده مع الأنغام المُتصاعدة، بينما انطلق ذهن شكري يسترجع ذكرياته مع حبيبته التي انمحى ذكرها من الوجود. الجميع - وأولهم أبوه - متأكدون من أن النسيان ليس واحدًا ممن يتلقون الأوامر، لا يأتي حين تكفهر ملامح الوزير الغاضبة دومًا فيسرع بتلبية الأوامر. ليس مثله مغلوبًا على أمره، وليس كصفوت العاجز عن الرفض مهما أوتي من أسباب القوة.

"غريبة أنك ما سألتش عليها"، قالها صفوت مخترقًا ذكرياته وهو يوقف السيارة، أشار بيده بلا معنى ونزل من السيارة. دخلا المكان الذي بدا أقرب للكباريه منه لـNight Club، وعيناه تجوبان المكان بحثًا عنها رغم يقينه بأنها ليست هناك "عادي.. مش يمكن اكتفيت بالليلة اللي أنت حنّيت عليَّ فيها وجبتها"، أشعل صفوت سيجارة وناوله أخرى "ماشي يا صاحبي.. براحتك".

تجاهل قوله وأشعل سيجارته في شرود.. لم يكن متأكدًا ما إذا كان الأمر لا يزال يعني له شيئًا حقيقيًا، لكنه - حقًا - كان يريد القضاء على هواجسه. يرغب في معرفة الإجابة حول السؤال الذي طارده شهورًا منذ تلك الجلسة. ماذا لو رآها؟

"مالك؟"، سأله صفوت وهو يراقب ارتجافة يده الخفيفة فتظاهر بالابتسام "مرهق شوية"، أطلق صفوت ضحكة عالية وأشار إلى وجهه "آخر مرة شفتك بالمنظر ده كانت لما صاحبتك خدت طلقة في محمد محمود.. إيه؟.. خايف تشوفها؟".

"بطل تتذاكى عليا".
"بطل أنت تخاف أنك تشوفها".

قطع حديثهم ما بدا أنه صاحب المكان أو مديره وهو يستقبلهما بحفاوة مُبالغ فيها، بدا وكأنه سيُقبّل الأرض أمامهما. أسرع الرجل يُفسح لهما مكانًا خاصًا وهو يأمر اثنين من رجاله بالوقوف رهن إشارتهما طيلة الليل، تلفت شكري حوله وهو يشاهد المكان الذي ينحدر بعد التواضع بدرجات «بقى صفوت باشا اللي بأمر يحرك بلد يجي يسهر في مكان زي ده». أطلق صفوت ضحكة عالية وأشار إلى الجالسين «محدش هنا يعرف إلا اللي جنبه.. ده لو كان يعرفه أصلاً»، غمز له شكري «يمكن»، أشار صفوت إلى أحد الرجلين الذي هرول نحوه سريعًا «ويمكن الواحد بيحن لأصله.. لولا شوية حاجات حصلت كان زماني حتة تاجر معاه فلوس يرميها تحت رجلين النسوان».

«برضه مستغربك»، عاد شكري يكرر دهشته فابتسم «بصراحة حبيت أوريك حاجة عملي.. بيان على المعلم زي ما كنا بنقول زمان».

ازدادت دهشة شكري فرفع حاجبيه «خير»، ألقى صفوت أوامره إلى الرجل ثم أخرج من جيبه علبة سجائر محشوة أشعل إحداها وأعطاها له ثم أشعل الأخرى لنفسه «شايف النسوان الكسر دول»، أومأ شكري برأسه إيجابًا فتابع «من غيرك كانت صاحبتك بقت واحدة منهم».

صمت شكري وهو يتخيل رضوى واحدة من أولئك اللواتي يطفن حول السكارى فهز رأسه نافضًا الصورة «كويس إن أنا موجود»، نفث صفوت دخان سيجارته «كويس إني كنت بطاوعك في كل اللي بتعمله.. لولا وجودي كانت صاحبتك اتنحلت من التقفيش في المظاهرات».

انتبه كلاهما على صوت النبطشي الذي انهال بالتحيات على أحد الزبائن من الضباط والمؤسسة العسكرية بينما الفرقة متواضعة الحال تعزف مارشات عسكرية بأنغام راقصة، مال صفوت على صديقه «إيه رأيك»، ضحك شكري «بصراحة شايفها أكبر إهانة للمؤسسة شفتها في عمري». عاد صفوت يُطلق ضحكة عالية كادت تهز الجدران «وتخيل.. ده بيحصل

رغم إن الناس فاكرة إن الموضوع خلص».

«ما خلاص يا صاحبي.. الموضوع خلص والمرشحين بتوعكم ما عملوش حاجة.. دلوقتي الجماعة إياهم ركبوا الكرسي».

«يا راجل عيب»، قالها صفوت وهو يُطلق ضحكة أخرى «الكلام ده يقوله عيّل من اللي قاعدين ع الندوة، مش واحد زيك أبوه بيحكم البلد.. سبت إيه بقى للمحللين الاستراتيجيين».

«قصدك إيه؟.. هترجع لهم».

«هي ما طلعتش من حجرهم أصلاً عشان ترجع.. تقدر تقول إنهم واخدين أجازة، ودلوقتي بيقضوا يومين قبل ما ينزلوا الملعب»؛ عاد الرجل ووضع أمامهم زجاجة فاخرة صب منها كأسين ثم تراجع ليقف على مقربة منهما في انتظار أمر جديد، ابتسم شكري وأخرج هاتفه وشغّل فيديو للرئيس الجديد «شفت ده.. دي فضيحة.. الخارجية بتحاول تلم الموضوع لكن مفيش فايدة».

«خليهم يتسلوا.. ده المطلوب.. قرد بصديري». ارتفع حاجباه للتشبيه الصريح وأشار إلى الرئيس الذي تجاهل البروتوكول على الهواء وأخذ ينظر في ساعته متناسيًا وجوده مع رئيسة أكبر قوة في أوروبا «وهو فيه أجازة تخلي واحد زي ده يفرد رجليه ع الكرسي»؛ هز صفوت كتفيه وابتسم «الشعب المصري جاهز للديموقراطية»، وغمز بعينه «But when?.. هو ده السؤال؛ أنت شايف، ده الشكل اللي جابته دلوقتي".

أشعل شكري سيجارته وتراجع في كرسيه مُبتسمًا "صحيح أنا خسران.. بس بحترم اللعبة الحلوة"، قالها وصفق ببطء؛ ضحك صفوت عاليًا وأشعل سيجارة بدوره والتقط كأسه "خسران علشان بتخسر شوية العيال والمُزّة القديمة.. لكن في كل الأحوال أنت اللي كسبان".

"مش هكون زي الباشا الوالد أبدًا. أنت عارف ده".

"ولا تقدر.. ده مش بتاعك. اللعب مع الملوك مش شغلتك، أنت سفير، حتة بوسطجي بين الملوك مهما وصلت، حتى لو بقيت وزير الخارجية"، سحب نفسًا عميقًا وأفرغ كأسه دفعة واحدة "ومش أي وزير

يقدر يكون مكان أبوك، هنا سر اللعبة. . صفوت بيسلّم صفوت"؛ تجمد شكري لعبارته فعاد يغمز له "ما تزعلش. . دا كان أقل واحد في الخدمة، بس الظروف رفعته لمكانه بسرعة".

"وأنت عايز تبقى وزير؟".

"ما احلمش"، ضحك عاليًا لتعبير وجهه فأكمل "لو حلمت هيفعصك. . هي ماشية كده، الوزارة دي بس لا تسقط بالتقادم. . لازم الظروف الإلهية تغيرها".

صمت كلاهما وأعاد شكري هاتفه إلى جيبه، تشاغل بالنظر إلى إحدى الفتيات التي تُشبه رضوى إلى حد كبير "شبهها. . مش كده؟"، عاد صفوت يقتحم أفكاره وكأنه يقرأها بالفعل، نظر إلى الظلال التي تعطي وجهه مظهرًا مخيفًا بينما يضع ساقًا فوق الأخرى فبدا له مع الدخان المتصاعد وكأنه الشيطان نفسه "بس أنا عارف إن مهما عرفت مش قادر تنساها"، لم يجبه والتقط كأسه وملأها ثم أفرغها في جوفه دفعة واحدة "مش عارف"، عاد صفوت يسخر منه "عيل خايب"، ابتسم وملأ الكأس مرة أخرى "أنت متخيل أنا عامل إزاي!".

"لأ"، صدرت منه، قاطعه فارتفع حاجبا شكري في دهشة وهو يراه يشرب من الزجاجة نفسها ثم يُكمل "أنا اتعودت إن الصباع اللي ناوي يتعبني أقطعه".

"وتفتكر دي حياة؟".

"دي الحياة اللي المفروض عليا أعيشها. . لا أنا عندي ناس بتحبني فعلاً. . ولا أبويا دفع فيا كتير وعمل مني بني آدم يفخر بيه. . ولا البنت اللي اتمنيتها قدرت أوصل لها إلا لمّا بقى عندي جبروت مفيش زيه. . ولا عمري كنت أقدر أحلم لأن أمي كانت بتكمل عشاها نوم. . كل ده عمره ما كان عندي. . ولا هيكون".

لاحظ اهتزازه وهو يتحدث فقال بشفقة "أول مرة أشوفك سكران. . وفي مكان عام قُدّام الناس"، ضحك بشدة حتى كادت الزجاجة تسقط من يده وأشار حولهما "أحا. . أنت مصدق"، نظر إليه في دهشة فتابع

بصوت عال "أنت فاكر إن اللي حواليك دول ناس"، أشار إليه أن يخفض صوته حتى لا تحدث مشكلة يكشف فيها عن نفسه، فأبعد يده بحدة ثم مال عليه "أنت فاكر إن أنا زي الناس ينفع أسكر واطّوح في الشارع عادي.. يبقى بتضحك على نفسك".

أشعل شكري سيجارة فالتقطها منه ورماها بعيدًا وأعطاه سيجارته الملفوفة وعاد يقترب "المكان ده تبعنا.. اللي قاعدين دول رجالتنا.. حتى النسوان دي مباحث الآداب هي اللي باعتاهم"، تراجع في مقعده من الدهشة فعاد صفوت يقترب منه "أنت الباشا ابن الباشا.. وأنا خدام أبوك.. ودول الخدامين بتوعي"، قالها ووقف ليصرخ "أنا أعمل اللي أنا عايزه. مصر ملكي أنا".

ساد الصمت في المكان كله فجأة وتوقفت الموسيقى فتلفت صفوت حوله "جرى إيه يا معرصين.. كما كنت منك له.. اللي بيشرب يطفح واللي بيلعب في اللي جنبه يكمل.. Aujourd'hui libre.. Faites ce que vous voulez".

عاد كل من في المكان جميعًا إلى ما كانوا فيه وتحاشوا النظر إلى صفوت الذي أشار إلى فتاتين على البار «وأنتم تعالوا هنا.. من إمتى وأنا ترابيزتي ناشفة».

***

جاء وصف القطط السمان كترجمة عربية للتعبير الإنجليزي fat cats، الذي يُشير إلى القوى النافذة في عالمي المال والاقتصاد التي تدير اللعبة السياسية من وراء الستار في المجتمعات الغربية، وشاع هذا المصطلح في العالم العربي انطلاقًا من مصر، بعد بدايات سياسة الانفتاح في عهد الرئيس أنور السادات عن تلك الشريحة من كبار المقاولين ورجال الأعمال الذين استطاعوا خلال فترة قياسية الاستفادة من السياسات الجديدة وراكموا ثروات هائلة بشكل غير مسبوق.

كان أول من أطلق مصطلح "القطط السمان" هو الدكتور رفعت المحجوب، الذي صار رئيس مجلس الشعب في الثمانينات في وصف هذه الطبقة الطفيلية التي سيطرت على الاقتصاد المصري بعد انتهاء مرحلة حرب أكتوبر.

٤٨

"أهلا يا نجيب بيه" . .

ارتفع صوت الوزير وهو يستقبل ابن شقيقته في مكتبه، بدا على الشاب المبتسم الثراء الواضح وهو يضع حقيبته الصغيرة جانبًا ويحتضن خاله "واحشني يا معالي الوزير، الشغل خلاك تنسى العيلة ولّا إيه؟"، ضحك الوزير وأبعده عنه متأملاً، اتسعت ابتسامته وهو يتفحص ثيابه "إنما إيه الشياكة دي كلها يا ولد. نستخبى إحنا بقى"، ارتفعت ضحكات نجيب وأخرج من الحقيبة علبة سيجار وضعها على المكتب "من بعض ما عندكم. اسمح لي واقبل الهدية دي". التقط الوزير علبة السيجار وتأملها في إعجاب "هافانا . . وكمان طازة".

"وهو فيه أهم من معاليك في البلد علشان تيجي له هدية زي دي".

"آه يا واد يا بكاش"، عاد يحتضنه وأشار إليه بالجلوس "ها يا حبيبي . . تشرب إيه"؛ عاد نجيب يفتح حقيبته ويُخرج منها زجاجة نبيذ "لو عندك تلج يبقى جميل"، استوقفه الوزير بإشارة من يده والتقط الزجاجة "مفيش شرب في المكتب"، هز نجيب رأسه وحاجبا الوزير يرتفعان في انبهار وهو يقرأ التاريخ المدوّن عليها "1802 . . ودي بقى جبتها منين"، ابتسم نجيب بزهو وأشار إليها "من قبو النبيت بتاع بونابرت نفسه. صحيح دفعت فيها رشوة محترمة. لكن الغالي للغالي يا خالو". نظر إليه الوزير في إعجاب ونهض ممسكا بيده "يبقى تعالى أعزمك على الغدا. نشرب الإزازة ونتكلم".

دقائق وكان موكب الوزير ينهب الأرض سريعًا نحو بيته. كان نجيب يستنشق الهواء بقوة مستمتعًا بإحساس السطوة الذي بدا في السيارات المحيطة والدراجة البخارية التي تفتح الطريق ليعبر مع خاله دون منافس،

دار في ذهنه أن الأيام المُقبلة ستكون ملكه كما كان الماضي ملك الرجل الذي يفتح له جميع الأبواب.

"أخبار أخوك المجنون إيه؟"، سأله الوزير فبدت على ملامحه الضيق "صادق بقى عامل لي فيها شيخ. رايح من الجامع وراجع منه وخلاص. رافض أي مساعدة مني من ساعة ما رجعت من الحرب وعرف إني اشتغلت معاك، وكل اللي أنا فيه جالي عن طريقك".

"طول عمره غبي".

"حتى المرتب اللي بابعته له كل شهر بيرميه في وش الرجالة بتوعي. آخر حاجة عرفتها إنه عايش من صندوق التبرعات بتاع الجامع"، صمت لحظات ثم نظر إلى خاله "وأكيد سيادتك عندك معلومات أكتر مني بكتير، أنا عارف أنك سألتني من باب الدردشة مش أكتر". هز الوزير كتفيه متعجبًا "يابني الواد ده طول عمره بيشوف الخسارة فين وبيروح لها. سيبك منه وماتشغلش بالك. أنا هتصرف معاه".

عاد الصمت يسود بينهما، ونجيب يستعيد اليوم الذي واجهه فيه صادق بحقيقته، يومها شعر وكأن بابًا من جهنم انفتح في وجهه.

"مخدرات يا نجيب.. بتتاجر في المخدارات؟"، كان صادق قد صاح بها وهو يمسك بتلابيبه فنفض يديه وصرخ في وجهه "عقارات ومخدرات وسلاح وسمسرة.. أي حاجة تيجي في بالك وتجيب فلوس"، حاول صادق الحديث ولكنه لم يُمهله "كنت عايزني أعمل إيه؟.. حرب.. مرة أخوك راح ومارجعش، والتانية خلتني قاعد على كرسي شهور قبل ما أقدر أقف على رجلي تاني. أمك ماتت علشان الدوا مش موجود، وقالوا معلش أصلنا في اقتصاد حرب. حتى أخوها ماقدرش يجيب الدوا. شوف كام واحد مات زيها. وأنت يا مولانا كفاية عليك خدمة المسجد. كنت بقى عايزني أشحت ولّا أروح أمسح جزم علشان أعيش".

"تقوم تختار التجارة الوسخة دي؟".

"وبعلم الدولة، وأول واحد فيها خالك معالي الوزير"، امتزجت الدهشة بالغضب على وجه صادق بينما تابع أخوه بوجهه المحتقن "هم

قالوا انفتاح، واللي عايز يعمل حاجة يعملها. اللي يقدر يجيب قرش يبقى شاطر. وهو قال اللي مش هيغتني في عهدي عُمره ما هيشوفها". حاول صادق الحديث لكنه لم يُمهله "مالها المخدرات. كله عايز يتكيف من المرار اللي شايفه، حتى القيادات هم كمان طول النهار بيتكيفوا. إيه. . حتى الكيف هايمنعوه عن الغلابة. . لا ما تخافش، هم عارفين إنهم لو فاقوا هيولّعوا الدنيا ويكسّروا البلد علشان خمسة تعريفة".

"يعني إيه؟".

"يعني بالعربي ما تخافش عليا. . مصلحتنا واحدة وهتفضل كده، طول ما الناس عايشة في الدخان الأزرق والحكومة مسيطرة يبقى محدش يقدر يكلمني. ولو حد فكّر يجي ناحيتي معالي الوزير موجود. يمسحه من على وش الدنيا".

"مش ناوي تفرحني بيك بقى يا حبيبي". قطع الوزير ذكرياته فالتفت إليه مبتسمًا "أي فرحة فيهم يا معالي الوزير. إحنا كل صفقة جديدة بنعملها بنفرح. كل أمر تخصيص بيجي بتوصية معاليك بيخليني فرحان أكتر" أشعل سيجاره الفاخر وغمز له "وبعدين إيفا الفرنساوية مش مخلياني محتاج حاجة". ضحك الوزير عاليًا وقرصه من خده "يا واد بتكلم على الجواز. يعني كل الفلوس اللي أنت بتعملها دي هتروح فين. مش لازم حد يجي يشيل الفلوس دي".

"وأنت فلوس معاليك هتروح فين؟". سأله مُبتسمًا فاختفت ابتسامته وانقبضت ملامحه فجأة، شعر نجيب بالارتباك وحاول الحديث لكنه بادره "تعرف. . لو كان ينفع اتجوز فريدة كنت عملت ده. لكن أنا عارف أخرتي، كل الفلوس دي هتيجي لك، أنا ماليش وريث غيرك يا حبيبي"، صمت لحظة ابتلع فيها ريقه وأضاف "يمكن بقولك كده علشان أطمن على فلوسنا إحنا الاتنين".

"ربنا يخليك ليا يا معالي الوزير"، استمر الوزير في صمته فعاد يُداعبه "وبعدين يا راجل فيه حد يحب النكد. خلينا حلوين كده بلا جواز بلا نيلة. ويا سيدي ساعة الخلفة هبقى أجيب حتة عيل من إيفا. على الأقل يطلع

عيل ملوّن وحلو كده بدل ما يبقى شبهنا".

مع نهاية حديثه توقفت السيارة أمام المنزل. أسرع رجال الحراسة يفتحون أبواب السيارة ليهبط كلاهما في تعالٍ والوزير يُشير لأحد رجاله "حد يجيب شنطة نجيب بيه". قالها وتجاهلً البوابة وهو يُمسك بيد ابن شقيقته واتجه به إلى الحديقة "قولوا لسعيد أنا عايز الغدا في خلال نص ساعة"، أسرع أحد رجاله لتنفيذ الأمر، بينما تأكد حارسه الخاص من خلو موضعه المُفضّل من أجهزة التنصت فأشار إليه بالانصراف والتفت إلى نجيب "ها يا حبيبي. قول لي بقى محتاج إيه؟".

"طول عمرك أستاذ يا معالي الوزير" قالها وأطلق ضحكة عالية وجلس وليُخرج بضعة أوراق من جيب سري في حقيبته "شوف يا سيدي".

***

من محمد مرسي رئيس جمهورية مصر العربية

إلى صاحب الفخامة السيد شيمون بيريز رئيس دولة إسرائيل

عزيزي وصديقي العظيم..

لما لي من شديد الرغبة في إظهار علاقات المحبة التي تربط لحسن الحظ بلدينا قد اخترت السيد السفير عاطف محمد سالم سيد الأهل ليكون سفير فوق العادة ومفوضًا من قبلي لدى فخامتكم.

ولاعتمادي على غيرته وعلى ما سيبذل من صادق الجهد ليكون أهلا لعطف فخامتكم وحسن تقديرها أرجو فخامتكم أن تتفضلوا فتحوطوه بتأييدكم، وتولوه رعايتكم، وتتلقوا منه بالقبول وتمام الثقة ما يبلغه إليكم من جانبي، ولا سيما إذا كان لي الشرف بأن يعرب لفخامتكم عما أتمناه لشخصكم من السعادة ولبلادكم من الرغد.

صديقكم الوفي

محمد مرسي

تحريرا بقصر الجمهورية بالقاهرة

في 29 شعبان 1433

19 يوليو 2012

"رايح فين؟" . .

قالها قائد حرس الوزير في صرامة مُستوقفًا سيارة الشيخ يحيى أمام البوابة ورجاله يرفعون أسلحتهم في تأهب. التفت السائق إلى الشيخ الجالس في المقعد الخلفي، الذي فتح زجاجه وأجاب بهدوء "الشيخ يحيى . . فيه معاد مع معالي الوزير". أشار القائد إلى أحد رجاله فأسرع ينظر في دفتر الزيارات وهزّ رأسه إيجابًا فأشار القائد إلى حارس الباب الذي أسرع يرفع الحاجز، لتتحرك السيارة ببطء تحت أعين رجال الأمن حتى توقفت أمام الباب الرئيسي الذي ينتظره أمامه صفوت مبتسمًا.

أسرع الشيخ يفتح الباب وقفز من السيارة قبل أن تستقر ومدّ يده إلى صفوت الذي ضحك ساخرًا "نوّرت يا مولانا"، أحنى الشيخ رأسه "ربّنا يعزّك يا صفوت بيه . . إزي سيادتك"، ربت صفوت على كتفه هازئًا "زي ما أنا . . ما بتغيرش". عاد الشيخ يُحني رأسه وصفوت يقوده حتى مكتب الوزير، مع اقترابهما من باب المكتب الضخم همس الشيخ بقلق "يا . . يا ترى سيادتك عارف معاليه طلبني ليه؟"، توقف صفوت ونظر إليه ليرتبك أكثر "إحنا بس اللي بنسأل . . ولّا نسيت يا شيخ".

"لا لا ما نستش . . العفو"، أسرع يقولها فتابع صفوت خطواته الواثقة وهو يُشير إليه ليتبعه. توقفا أمام الباب الأثري، فدق صفوت دقتين وفتح الباب ثم انزاح مُشيرًا إليه بالدخول "خلي بالك . . مزاج معاليه مش رايق". أسرع صفوت يُغلق الباب والشيخ يُسرع خطواته ليتوقف أمام المكتب الضخم أمام الوزير الذي بدا وكأنه منشغلاً بقراءة صحيفة . . شعر بالحيرة قبل أن يتنحنح ليرفع الوزير عينيه إليه "إزيك يا يحيى؟".

"الحمد لله . . في فضل ونعمة طالما معاليك راضي".

"ومين قال إن أنا راضي؟"، قالها متوعدًا فأشار الشيخ إلى المقعد المواجه له مُستئذنًا الجلوس "طيب ممكن أقعد. . الكلام شكله كده هيطوّل شوية".

"لأ"، أجابه بصرامة فازداد توتر الشيخ، ويده تضغط لاشعوريًّا على طرف المقعد، والوزير يخلع منظار القراءة ويرفع نظره نحوه ويُشير بيده في غضب "أنتم نسيتم نفسكم!. . افتكرتوا نفسكم بتحكموا بجد ولّا إيه؟!. . إيه الهبل اللي أنتم بتعملوه ده؟!".

"يا فندم. . كل حاجة قبل ما تحصل نالت رضا معاليك".

"يعني بعد ما أقنعت الجماعة أننا ندي لكم فرصة، وقلنا يمكن يزيحوا شوية من الحمل اللي علينا، تروحوا تجيبوا واحد أهبل بالمنظر ده. . وكمان اللي شغالين معاه شبهه. . هي ناقصة؟. . إيه. . مفيش مخ خالص"، حاول الشيخ الحديث فأشار إليه لإسكاته "لأ. . وإيه كمان. . مرة يقول على الهوا أصل اللواءات دول قبضوا عليا قبل كده. . وبعدين تعملوا اجتماعات سرية وتذيعوها ع الهوا برضه. . نفسي أعرف مين الحمار اللي بيشور عليكم بكده؟!"، ازداد ارتباك الشيخ والوزير يُشعل سيجاره الفاخر وينفثه في وجهه "إيه. . أصحابكم اللي بره بطّلوا يشوروا عليكم؟!".

"معاليك. . إحنا. . بنحاول".

"أنتم فهمتم اللي حصل غلط. . صحيح الكل كانوا عارفين إن مفيش منكم رجا، وحكاية إن ربنا إداكم توكيل تحكموا الناس اللي بتضحكوا بيها على الغلابة مع الزيت والسكر دي كلام فارغ. لكن. . حبينا نخلي الناس تجرب. . كنا عارفين أنكم هتخربوها. . لكن مش بالغباوة والسرعة دي".

"يا معالي الوزير صبرك بالله عليا. . إحنا بس بنحاول نساعد ونحل مشاكل البلد".

"إحنا مش بنتكلم على الهوا يا شيخ. . الكلام الفارغ ده تقولوه في قنواتكم"، صاح بها الوزير غاضبًا وهو يضرب بقبضته على مقعده "حكم الدول غير تنظيم أمور العصابات يا يحيى"، ازداد ارتباك الرجل "لو سيادتك شايف أنه ما ينفعش، يبقى إحنا نحاول نحافظ على تماسك الأمور

ونشوف حد غيره ينزل الفترة التانية مثلاً"، نفث الوزير دخانه في وجهه مرة أخرى "تانية!. . أنت فاكرها زي البت الرقاصة اللي كل ما واحد فيكم يطلقها التاني يتجوزها".

"طيب إحنا ممكن نشوف له أي عذر ونعمل انتخابات مبكرة و. . ". .

"العذر ده تقول لك عليه المدام لّما تبقى الإشارة حمرا. . مش تروح تقوله لشعب لسانه أطول منك وإعلام بيدور على الفضيحة بملقاط. . عارف الملقاط يا يحيى".

صمت الشيخ وعاد يفتح فمه ويغلقه في تردد خشية أن يقول شيئًا يُثير غضب الوزير ثانية. نظر له الرجل بطرف عينيه مُستمتعًا بحاله وعاد يسحب الجريدة ويضع المنظار على عينيه إمعانًا في تجاهله.

"أوامر معاليك"، قالها الشيخ بانكسار فتألقت عينا الوزير وعاد ينفث دخانه دون أن ينظر إليه "اللي بوظتوه حلّوه. . الأهبل ده يقلل ظهوره. . على قد ما تقدروا. . أوامر الناس تتنفذ. . وتحلوا مشاكلكم مع العيال بتوع الثورة. . وإلا".

عاد الشيخ يقف مترددًا وهو لا يدري ماذا يفعل، أنقذه صوت الطرقات على الباب ودخول صفوت وخلفه أحد السعاة يحمل صينية عليها فنجان واحد من القهوة وضعها وانصرف، نظر الشيخ إلى صفوت مترددًا فأشار إليه بازدراء "اشكر معاليه على وقته يا شيخ واتفضل بالسلامة. . الراجل اللي قدام الباب هيوصلك لحد عربيتك. . شرفت"؛ مد الشيخ يده إلى الوزير وظهره يكاد يتقوس من الانحناء، إلا أن الوزير تجاهله ومد يده والتقط فنجان القهوة "أنا مش هعيد الكلام ده تاني يا شيخ يحيى. . مع السلامة".

أسرع الشيخ يخرج من المكتب دون أن يجرؤ على إعطاء ظهره إلى الوزير، لاحقته نظرات صفوت حتى أغلق الباب خلفه، ثم التفت إلى وزيره "تفتكر معاليك هينفذ الأوامر؟".

"لأ طبعًا"، قالها بحسم فارتفع حاجبا صفوت بدهشة وهو يُتابع "اللي زي الجماعة بتوع يحيى عندهم ذاكرة سمكة. . بعد شوية هيرجعوا يفتكروا نفسهم بيحكموا، هيغلطوا تاني وتالت، لحد ما تيجي الغلطة اللي

تقلبهم على ظهرهم زي الذبيحة، مش بعيد في خلال فترة قريبة تلاقيهم بيحاولوا يخلصوا مني أو الريس بتاعهم يفتكر إنه ممكن يحيلني للتقاعد".

"يبقى غباء منقطع النظير!".

"طبعًا.. أومال أنت فاكر ليه اخترنا دول يكونوا في المرحلة الانتقالية.. كروت ذاتية الحرق.. مش محتاج أي نوع من التخطيط علشان يلفّوا حوالين نفسهم حبل المشنقة.. كل اللي تعمله أنك توسّع لهم السكة".

"ولكن"، حاول صفوت مناقشته فأشار بإصبعه ليوقفه "مش هنقعد نرغي.. أصل الأشياء كده"، أحنى رأسه في نفاق "دايمًا الحقيقة عند معاليك"، ضحك الوزير بشدة وتناول كوب الماء أمامه "وكل اللي حواليك في اللعبة كمان عارفين الحقيقة.. محفوظ قال إن آفة حارتنا النسيان.. أنا مختلف معاه.. آفة حارتنا التناسي".

"بالمزاج؟".

"أو بالغصب.. مش هتفرق.. الحاجة الوحيدة اللي ممكن تفرق أنت هتستفيد إيه لما تتناسى.. هتكون مبسوط.. هتشيل وجع دماغ.. تخلص من حد عامل لك صداع"، هم بالحديث مرة أخرى فأشار إليه وهو يتناول رشفة من الكوب وتابع "أو حتى هتبعد الخوف عن قلبك.. ما تبصش على الحدوتة بمنظور واحد".

"بس.. أنا آسف معاليك، يعني، الضحية مش هتنسى".

"ولا الجلّاد بينسى.. أومال أنت فاكره بيقتل أكتر ليه.. علشان تبقى زحمة ضحايا في دماغه، ويبقى مش مركز مع ضحية واحدة.. الموضوع معاه بيتحول من جريمة ويبقى شغل.. يركز فيه لحد ما يبقى استمتاع"، قالها ونظر إليه بخبث "ولّا أنت نسيت اللي اتعلمته يا صفوت؟".

"العفو معاليك".

عاد الوزير يرفع الجريدة إلى عينيه مرة أخرى فتنحنح صفوت "بعتذر إني طوّلت يا فندم.. استأذن أنا علشان معاليك تستمتع بقهوتك". هز الوزير رأسه وأشار إليه لينصرف، تراجع صفوت وفتح الباب فعاد الوزير

يستوقفه "صحيح". أسرع صفوت يغلق الباب ويعود نحوه بخطوات سريعة فابتسم "أنا عارف إن شكري صاحبك الوحيد وأنت بتحب تخدمه.. ابقى خلي البنت إياها تظهر وتقضي معاه يومين"، ارتسمت الدهشة على ملامح صفوت، وبدا على الوزير الضجر "أمه يا سيدي مش عاجبها حاله ولا إنه مش عايز يجي القصر علشان ما يشوفنيش.. طبعًا هي مش عارفة السبب، لكن أنا مش ناقص صداع"؛ أومأ صفوت برأسه متفهمًا "أوامر معاليك.. النهارده تكون معاه".

"ابقوا نضفوها الأول.. مش عايز الولد يجي له ولو دور برد.. أمه هتصدّعني زيادة". ابتسم وأجاب بلهجة من تلقى أمرًا عسكريًّا اعتبرها في المغسلة معاليك"، أسرع بالمغادرة والتفت الوزير إلى صورة تجمعه بزوجته وشكري وابتسم "خليهم يتسلوا.. أمّا نشوف أخرتها إيه يا ابن بنت محمد علي".

***

كشفت وثيقة أرسلتها السفارة الأمريكية فى القاهرة بتاريخ أكتوبر 1975 إلى وزارة الخارجية الأمريكية، عن استخدام الإخوان والإسلاميين في الجامعة لضرب وتفتيت القوى اليسارية والناصرية، وذلك عقب سنوات من الإقصاء السياسي لجماعة الإخوان المسلمين في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، الذي بدأ بعلاقة تحالف معهم انهارت سريعًا، نحا السادات فى بداية حكمه إلى المناورة واستخدام الإخوان المسلمين كورقة سياسية يضرب بها التيارات اليسارية، ليمضي بخطى واثبة فى إنفاذ سياساته.

وتكشف المراسلة السرية التى تحمل الرقم "1976CAIRO04727_b" بعنوان "الحكومة المصرية تشجع على ظهور يمين إسلامي"، التى أرسلتها السفارة الأمريكية بالقاهرة يوم 9 أبريل 1976 للقنصلية الأمريكية ببورسعيد، وكذلك وزارة الخارجية الأمريكية بواشنطن، وسفاراتها فى تل أبيب، وعمان، وروسيا، والمملكة العربية السعودية، وسوريا، عن قرار الحكومة المصرية تمويل وتأسيس كتلة يمينية تشمل جماعات التيار الدينى، لتبقى على المسرح السياسي في مواجهة الكتلتين الناصرية والماركسية اللتين أشعلتا المشهد السياسي المصري آنذاك.

وثائق "ويكليكس"

٥٠

"انتباه" . .

انطلق هتاف قائد حرس الشرف بالمطار العسكري الصغير غرب القاهرة، بينما الوزير يهبط سلم الطائرة بخطواته الثابتة. ألقى نظرة على صفوت الواقف متأهبًا أمام باب السيارة برفقة السائق، الذي أسرع يصافحة "حمدلله على السلامة يا معالي الوزير"، ربت على كتفه في إرهاق وهو يدخل السيارة فأسرع يركب بجواره، بينما أشار حارسه إلى الركب بالتحرك "واضح إن سيادتك تعبان"، زفر الوزير "الفصال يعمل أكتر من كده. دي مش مفاوضات!، الناس دي بتفاصل"، قالَها وربت على كتف السائق "اطلع على المكتب نوصل صفوت وبعدين هنطلع إحنا على الرياسة يا حسن"، أومأ السائق برأسه بينما تساءل صفوت مندهشًا "سيادتك مش هترجع البيت"، هز رأسه نافيًا "مفيش وقت".

سادت برهة من الصمت ثم عاد الوزير يلتفت إلى رجله الأول "اسمع . . عايزك تراجع كل ملفات الإخوان والعيال بتوع الجماعات اللي عندك. شوف كل واحد بطحته إيه وشدّ عليه الحزام". أومأ صفوت برأسه مؤكدًا الأمر وتساءل "خير يا فندم، هنحتاجهم الأيام الجاية ولّا إيه؟".

"وإحنا في جنيف كنا قاعدين بنتناقش. الريس قرر يفعّل العمل السياسي في الشارع، قال لي كفاية بقى شغل الحزب الواحد، ناوي يعمل تعددية بعد ما زهق من العيال اللي قارفاه بسيرة المرحوم عبد الناصر، العيال دي فاكرينها عافية ومش فاهمين يعني إيه سياسة".

"اسمح لي سيادتك، يعني هم دول اللي فاهمين. دول واخدينها بالسلاح مش بالدراع. سيادتك عارف هم بيفكروا إزاي".

«لسّه برضه شوية عليك يا صفوت»، قالها مبتسمًا بخبث وبدت عليه هيئة المُعلم الذي يُعطي تلميذه درسًا جديدًا «لمّا يبقى عندك فار في البيت مجننك ومش عايز تقتله علشان تخوّف بيه مراتك، لكن مهما تدور عليه

مش عارف تلاقيه، مرة تلاقيه أكل حتة من سجادة الصالون، ومرة تانية يقرض في كرسي الصالة. يبقى تطلع الفار تتفرج عليه في قفص وتخوّفها بيه وقت ما تحب، ولّا تسيبه ياكل في عَفش بيتك؟»، بوغت صفوت من السؤال ولكنه أدرك مقصده وأجاب سريعًا «في قفص طبعًا»، ابتسم الوزير وغمز له «بس كده. إحنا عارفين إن الوسخ هيفضل طول عمره وسخ. يبقى نطلعهم نستخدمهم وهم برضه تحت إيدينا».

«بس دول مالهمش أمان».

«ولا أنا، ولا أنت، ولا أي حد، دي سياسة يابني»، أخرج سيجاره الفاخر وأشعله وهو يفتح النافذة «دول عالم وسخة، من أيام ما كانوا بيتفقوا مع الإنجليز على الملك، ولولا المرحوم عبد الناصر دفنهم تحت الأرض كانوا خربوا الدنيا. زي ما قلت لك قبل كده، كله كان ساكت علشان الحرب. وخلاص الحرب خلصت، مفيش سبب يمنعهم يرجعوا يلعبوا تاني»، جذب نفسًا عميقًا من سيجاره وأضاف «دا غير أنهم بيحاولوا يتواصلوا مع الأمريكان علشان يضغطوا علينا.. وفاكريني مش عارف.. شفت الوساخة»، قالها وأطلق ضحكة عالية فابتسم صفوت بخبث مُقلدًا إياه «مفيش حاجة تخفى على معاليك».

ظلا على صمتهما حتى غادر صفوت السيارة. لم ينسَ الوزير التأكيد على رجله قبل مفارقته بأهمية المطلوب منه، وما أن انطلق الموكب ليُكمل مساره لقصر القبة، وبينما يمر في طريقه بشريط الترام الذي يقود إلى منشية البكري تذكّر فجأة أيام ما بعد النكسة، عندما تم شلحه من كل الامتيازات وكان صبري يستعد للخلاص منه لولا أهمية ما يعرفه، كان حينذاك يستقل الترام يوميًّا لرؤية شقيقته مُتجنبًا نظرات الشماتة في عيني من اكتووا بنيران سُلطته. كانت جلسته الأولى في الترام قد أتاحت له فرصة للعودة إلى التأمل في وجوه البشر، لم يكن فقط قد امتنع عن الخروج منذ أن ألقى عبد الناصر خطابه الأخير، وكانت مظاهرات المنافقين ومدمني الخديعة قد زادت من حدة السخط بداخله. كان يُدرك كواحد ممن عملوا طويلاً في مطبخ القرار أن الزعيم يخدع شعبه بكلماته الرنانة، وفي الوقت ذاته كان زبانيته الذين كان واحدًا منهم، يتركون عرض البلاد ليعبث به الصهاينة، ليتفرغوا هم

لقمع من يتفوه بلفظ واحد في حق أسطورة الزعيم المهزوم.

«مكتب حماية الثورة»، عاد الاسم الرنان الذي محاه السادات من السجلات الرسمية يتردد في ذهنه، فيما كانت الوجوه في تلك الأيام البائسة تشي بآلام الانكسار، كان واحدًا من الجميع الذين يشعرون بأنهم قدموا كل شيء، هناك من قدموا حتى حريتهم نفسها من أجل مصر الموجودة في خطابات الرئيس وأغاني عبد الحليم وأشعار چاهين، لا مصر التي صنعها ورفاقه في أقبية السجون ومكاتب التحقيقات.

هؤلاء صدقوهم، وكان المقابل أن فقدوا أرضهم وكرامتهم، بل وجيشهم القوي الذي كان من المفترض أن يُلقي العدو الصهيوني في البحر. ابتسم عندما قاده تداعي الأفكار إلى طفولته عندما كان صبيًّا يعمل في محل بقال يهودي، رغم سنه الصغير آنذاك لكنه تعلّم مبدأ «هات وخُد» من الرجل العجوز ذي الأنف المعقوف والنظرة الباهتة. الرجل الذي كان أول من علّمه أن «الكيف» مهما كان نوعه يُجبر صاحبه على فعل كل شيء، يُذل القوي وينهَش الجبابرة،؛ وتعلّم كذلك أن المُمسك بزمام هذه الأشياء يجب أن يكون قاسيًا مع ابتسامة خفيفة، كانت تجربته الأولى مع عادته التي تعلمها من «الخواجة» عندما كان يُصر أن زبون السجائر والبفرة يجب أن يأخذ منه النقود أولاً، في البداية، وككل العادات التي تأصلت في أعماقه، لم يكن يجد لها سببًا سوى أن الخواجة كان يفعل هذا، ومع مرور السنوات أصبحت عادته هو الآخر الحساب أولاً. الابتسامة تعني أنه بالطبع «الشُكك ممنوع والزعل مرفوع» كما تقول اللافتة التي لا تزال في مكانها في ذاكرته منذ علقها الخواجة أول مرة.

«وصلنا الرياسة يا فندم».

قطع سائقه فيض الذكريات، فانتبه وشد قامته واضعًا منظاره الشمسي على عينيه. نظر في المرآة الداخلية ليتأكد من قناعه الحاكم قبل أن يدخل للقاء الفرعون، راق له أنه يصنع مع كل خطوة جديدة حلقة في تاريخ البلاد التي شهدت مراحل هوانه حتى صار في ذلك الموضع.

***

٥٢

«نوّرت يا غالي . . مبسوط أنك قبلت دعوتي» .

قالها صفوت بابتسامة عريضة وهو يستقبل شكري في منزله ، فتح الأخير فمه للتعبير عن دهشته من الدعوة ، فأشار إليه بالصمت ونظر إلى رجله الذي يرافق صديقه «أمّن أنت على الحراسات وبعدين استنى في العربية . . هنخرج كمان شوية» .

أسرع الرجل يُغادرهما بينما أشار صفوت إلى صديقه «ادخل يا عم مفيش حد كاشف راسه» . دخل شكري في فضول ، تلفت حوله فوجد على الحائط الأنيق لوحة بالزيت لفتاة رائعة الجمال ، بدا في عينيها بريق خاص ، ونمت جبهتها الناصعة عن شخصية قوية . وضع يده على كتف صفوت «مين دي؟» .

«اصبر . . أنا جايبك هنا علشان أحكي لك . . وفي الآخر ليك عندي مفاجأة» ، قالها وأزاح يده «Make yourself at home» ؛ ضحك شكري وهو يجلس على كرسي فاخر من الطراز الإنجليزي وأشار إلى المدفأة من ذات الطراز "هنعمل زي أحاديث روزفلت؟" ، أجابه وهو يلتقط كأسين من دولاب صغير ويضعهما ثم يخرج زجاجة نبيذ عتيقة "هو مش أحسن مني ، روزفلت حكم أمريكا . أبوك من خلالي بيحكم مصر" .

هز شكري كتفيه دون أن يُعلّق ، جلس صفوت أمامه وفتح الزجاجة وتشممها وأغمض عينيه مستمتعًا ، صب لكليهما كأسًا ثم أخرج علبة سجائره المحشوة ووضعها بينهما "كده الكلام يحلوّ" .

"وماله" ، قالها مبتسمًا ومد يده والتقط كأسه وارتشف منه فارتفع حاجباه بإعجاب ثم التقط الزجاجة وقرأ تاريخها "1910! . . دا أنت كمان برنس في الحاجات دي!"؛ ارتفعت ضحكات صفوت وأشار إليها "هدية

من أمير خليجي عملت له خدمة في سكة سمسرة السلاح. . حاجات بسيطة كده، ما تشغلش بالك".

"ما قلتليش بقى. . مين الحلوة دي؟".

"دي أكتر واحدة حبيتها في حياتي. . والوحيدة كمان اللي ما طولتهاش".

"غريبة".

أشعل صفوت سيجارة من علبته ونفث دخانها في عمق "ما تستغربش. اعتبرها لحظة ضعف. حتى اللي زيي يخاف يجبر حب عمره على حاجة".

"وبعدين؟".

"عينت لها واحد من الرجالة عينه عليها كل يوم. . مهمته يصورها في أحسن حالاتها ويبعت لي الصور"، نظر إليه في دهشة "ليه؟. . بتطمن عليها ولا مزاجك تعذب نفسك؟".

"بالعكس. . الصور دي بتقويني. . كل ما أشوفها كده أفتكر إن حتى وجعي مالوش قيمة، وإني عمري ما كنت في دماغها من الأساس. . إنها عايشة، وأنا كمان لازم أعيش. . لازم أفضل قوي، بدل ما الوجع يمسك في روحي زي السرطان. . وإني غلطت لما فتحت الباب من غير أي حسابات".

"تفتكر؟"، سأله وارتشف من كأسه ثانية وأبعد عينيه اللتين لمعتا بدموع مكتومة فنفث صفوت دخان السيجارة ثانية وناولها له "أحا. . دا أنت بتحبها بجد"، تناولها منه وهو يُشير إليه بيده الأخرى "أكدب عليك يعني"، ارتفع حاجباه في دهشة وجد أنها لا تليق به فأسرع يُخفيها "دي شرموطة!"، لمح "شكري" دهشته فابتسم وهو يأخذ نَفَسًا عميقًا "ومين فينا ما حبش شرموطة. . تقدر تحكي لي عن أقرب واحدة لقلبك. . تنكر إن شرموطة زيها كانت الدفا اللي كنت بتدور عليه، ومش لاقيه عند حد. . الابتسامة الرايقة لما تفتكر حاجة حلوة وأنت قاعد في مكتبك الفخم الكئيب، وكانت بسبب موقف بينك وبينها. . إحساس العشيقة اللي أنت مخبيها عن الدنيا كلها ومستمتع بيه لوحدك، مش هي كانت سببه. . دمعتك اللي ما تقدرش تنزلها

قُدام حد، تنكر إنك نزلتها على صدرها. . قول لي عن مرة كنت مش طايق نفسك فيها وحبيت فيها تريح دماغك، ما اتصلتش بيها"، أطلق كلماته مع الدخان وقام يُعطيه السيجارة "وعلى فكرة. . أنت أكتر واحد عارف اللي أنا بقوله. . بس شغلانتك بتخليك ساكت".

شرب كأسه دفعة واحدة فتشنج وجهه لثوان وابتسم "تحب أحكي لك عن شرموطة؟"، هز رأسه إيجابًا؛ التقط صفوتً سيجارة أخرى أشعلها وشردت عيناه "كانت أحلى واحدة في الشارع. تفاصيلها أيام الفقر كانت ما تتنسيش، شعرها، وسطها، مشيتها. كان كل الشباب بيحلموا بس أنها تبص عليهم".

لمّح شكري لأول مرّة التأثر في عينيه وهو يُتابع "كنت مستني منها أي اهتمام. . لكن دايمًا كانت شايفاني ابن البوسطجي اللي أمه بتنضّف العرايس علشان تعرف تجيب له حق كشاكيل المدرسة؛ واللي أمه زغرطت لمّا خاله السيكا بتاع لواء كبير عرِف يدخّله الكلية. حتى بعد ما اتخرجت كانت بصّتها شايفة القميص اللي يقرف والجزمة اللي دابت. . دلوقتي أقل بدلة عندي من بيير كردان"، صمت لحظات أعاد فيها إشعال سيجارته "كنت عارف ديّتها بنت المرة. كانت تعشق الفلوس وتلحس كعب السلطة، علشان كده أول ما عرفت إن أبويا، اللي ما رضيش أبدًا يسيب بيته رغم كل اللي أنا وصلت له، اتخانق مع ديلر ساكن عندنا في أول الشارع نزلت أشوفه".

"وطبعًا مش لوحدك"، قالها بخبث فابتسم الثعلب "معايا مكتب المكافحة والعمليات الخاصة. . كانت عملية نوعية مش مأمورية ضبط تاجر مخدرات تافه"، ضحك شكري بشدة "يا جاحد. . طبعًا بعد العرض العسكري ده سخسخت قُدامك"؛ فك رابطة عنقه وأزاحها وهو ينظر للنافذة "شافتني نازل من العربية واللواءات بيعظّموا لي. . اتهبلت. . وقعت في وسط الشارع وهي جاية بتجري تسلم عليا. . طلبت منّي نقعد نتكلم عندها شوية".

"واتكلمتوا؟".

"أربع أيام ورا بعض الكلام ما خلصش. . بس تصدق. . أوّل مرّة ألمسها كنت خايف. . مش مصدّق أنها جت لي تعرض نفسها"، قالها وعيناه تلمعان "أنا اللي خربت الدنيا جيت عند دي. . وعطلت شوية".

"ومين قال لك إنها من غير إبهارك ده كانت كده؟. . مش يمكن تكون انبهرت بيك؟. . مش جايز تكون غلطان؟".

"إحنا ما بنغلطش يا عزيزي. . ساعتي مظبوطة على حركة الكون. . مكاني في الهرم معروف وثابت. . كل اللي أفكر فيه محسوب ومتخطط له"، والتفت إليه بابتسامة ساخرة "عُمرك شُفت فرعون بيغلط؟".

"قال للناس أنا ربكم الأعلى".

"وهم صدّقوه. . سيبك من أنهم مُغفلين. . بالنسبة لهم الراجل ده ما بيغلطش"، ضحك عاليًا والتقط القداحة وأشار بها "واللي قدامه شق البحر وقلب العصاية حيّة. . ورّاهم المعجزات وقال لهم إن صاحب المُلك قال ما تعبدوش الملك. . المغفلين بعد ما سابوا عبادة الملك راحوا عبدوا العِجل".

"بس على الأقل كان عندهم فرصة التفكير".

"محدش استغلها. . كل واحد فكّر هو عايز إيه. . اللي قال له هات لنا نشرب. . واللي قال للي بعده خلّي ربك يبعت لنا أكل. . دول تفكيرهم محدود. . دا حتى اللي كانت معجزته كلامه حاربوه علشان البيزنس بتاعهم. . طول عُمر البشر كده" قالها وغمز له "عايزين ربنا يقضي لهم أي مصلحة علشان يؤمنوا بيه".

"وهي كانت مصلحتها إيه معاك؟".

"لو قلت لك على اسمها مش هتصدق. قعدت فترة واحدة من ضيوف الفضائيات. يوم ما اتأكدت إني عايزها معايا شوية قالتها لي، نفسها تبقى مشهورة. رخيص والطلب أرخص. بعد يومين كانت أشهر واحدة في مصر كلها".

"وحصل إيه؟".

"فضلت مشهورة. . بس لمّا اسمها اتنقل صفحة الحوادث وعلى عينيها شريطة سودا"، أشعل شكري سيجارة أخرى "أنت ما بترحمش".

"ربك هو الغفور الرحيم. . عايز برضه مخلوق غلبان زيي ياخد صفة من الخالق. . ده حتى يبقى كُفر يا أخي. . أعوذ بالله"، قالها وضحك بشدة ثُم اعتدل "يا أخي كل الرغي ده لحد ما قرّبت أنسى أنا عزمتك هنا ليه"، عاد التساؤل إلى ملامح شكري فأشار إلى غرفة جانبية "صاحبتك نايمة جوّة. . ادخل صحيها وعيش حياتك"، تضاعفت دهشته وحاول الحديث فأشار إليه "ده المكان الوحيد اللي معاليه مش هيفكّر يبعت حد فيه. . وأنا زي أي شيطان عندي لحظات ضعف. لحظة ضعفي إني بحب أشوف صاحبي الوحيد مبسوط".

نهض صفوت والتقط الجاكيت المُلقى على مقعد صغير بجوار الباب والتفت إليه "يا عم والنبيت واللي في العلبة حلال عليك. . رغم أنهم خسارة في بنت الجرابيع دي. . بس خلي بالك. . تخرج لوحدك هتلاقي عربيتك. تخرج بيها هتلاقي قناص يحرمك منها للأبد".

"بس إحنا معندناش قناصة"، قالها شكري ساخرًا، فعاد يضحك "لا ما تقلقش. . الجلسة دي مش ع الهوا. . على رأي الهرم، أنا صحيح ببيع، لكن لو سألتني. . هنكر".

رفع شكري يده بالتحية بينما فتح صفوت باب منزله ثم عاد والتفت إلى شكري وهو يغمز "ليلتك حلوة".

***

"حمدلله على السلامة يا مولانا" . .

صاح بها فتحي وهو يهرع لتقبيل يد الشيخ عمرو الذي ربت على رأسه في رضا وهو يسحب يده "الله يسلمك يا فتحي"، رفع الفتي رأسه وسأله بابتسامة عريضة "لعل لقاءك مع السادات كان خير"، ابتسم الشيخ بدوره وعيناه تلمعان "الحمدلله . . فرصة عظيمة قد يفتح الله لنا بها خيرًا وسلطانًا غير مسبوق"، هز فتحي رأسه في رضا وقال وهو يُسرع ليفتح له باب حجرته "إن شاء الله . . تحب أكلم إخواننا علشان الاجتماع دلوقتي؟" .

"لأ . . استنى شوية الواحد يرتب أفكاره، النقاش كان كتير والسادات مش راجل سهل"، قالها الشيخ وهو يخلع عباءته ويجلس في موضعه المُفضّل مُداعبًا سبحته في استمتاع . وقف فتحي بجوار شيخه كالتمثال حتى نظر إليه وسأله "هو يحيى هنا ولا لسّه في الجامعة"، أومأ فتحي برأسه إيجابًا "موجود يا مولانا . . أناديه لحضرتك"؛ هزّ الشيخ رأسه "خليني أصلي العصر الأول وبعدين أقعد معاه . وخلي حد يعمل لي شاي"، ابتسم الرجل في حماس "بنفسي يا مولانا . . وهو أنا أطول الشرف ده"، قالها وانطلق خارجًا بينما أدى الشيخ الفريضة سريعًا وجلس يرتشف الشاي في هدوء وذاكرته تعود إلى ساعة مضت التقى فيها الرئيس ووزيره الخاص .

"شوف يا عمرو . . إحنا دلوقتي بنبني البلد، خلاص الحرب خلصت وإحنا لازم نرتب البيت اللي اتبهدل من الحرب . صحيح الحرب خلصت لكن لسّه عندي حرب تانية ما تقلش خطورة . مفاوضات كتير شغالة علشان نرجّع بقية الأرض من غير ما دم أولادنا يسيل تاني" .

"الله يكون في عون سيادتك"، قالها الشيخ في نفاق واضح وهو يرفع يديه للسماء "كلنا بندعي لك ربنا يوفقك وينصرك، والله يا فندم لا تخلو

كل صلاة جمعة من هذا الدعاء"؛ أجابه الوزير بنبرة ساخرة "التقارير برضه بتقول كده". تجاهل الرئيس نفاق الشيخ وسخرية وزيره وتابع "الدعاء مش كفاية.. أنا عايز شغل.. حركة.. البلاد مش بتتقدم بالنوايا.. فاكر قصة الراجل اللي الرسول قابله في المسجد وكان قاعد فيه طول الوقت".

"عليه الصلاة والسلام".

"لمّا الرسول عرف إن أخو الراجل هو اللي بيقضي له حاجته قال للصحابة أخوه أعبد منه.. العمل عبادة أكبر من القعدة الفاضية وشوية الدعوات اللي من غير حركة"، أومأ كلاهما موافقًا وابتسم الوزير "النهارده سيادة الريس بيقدّم لك أنت والجماعة بتوعك فرصة عمركم.. صفحة جديدة من غير مشاكل.. لكن كل ده بشرط مهم.. نلعب سوا".

"ممكن سيادتك توضّح لي أكتر"، بدت لمحة من نفاذ الصبر على وجه الرئيس عاجلها الوزير "وماله.. ركز معايا يا شيخ، الفترة الجاية محتاجين كل القوى اللي في البلد تكون ورا سيادة الريس. مش عايزين مزاديات وكلام فارغ من اللي بنشوفه في الجامعة ووسط العُمّال. مصر انتصرت وأبهرت العالم، يبقى لازمته إيه الكلام البايخ اللي بيتردد في الشارع كل شوية".

"كلام مظبوط يا فندم"، قالها الشيخ مؤمّنًا على حديثه وهو يتفرس في وجهه "أأ.. بيتهيأ لي إني قابلت سيادتك قبل كده. بس..".

"جرى إيه يا عمرو.. الظاهر إن القعدة في السجن جابت لك النسيان.. ركّز يا راجل في وشي كويس"، قالها الوزير وعلى ثغره ابتسامة ساخرة جعلت الشيخ يتذكره على الفور فخرجت كلماته مرتبكة "هو.. صفـ.. أيوه.. فاكر معاليك.. وأنا اقدر أنسى.. بس"؛ قاطعه السادات وهو يُشير للوزير بالصمت "ما علينا.. الكلام ده كان زمان وخلص.. كان له ظروفه وأحداثه اللي مش ناويين نكررها.. المهم اللي إحنا فيه"، قالها وأشار إليه مُحذّرًا "ولّا انتم ناويين تلعبوا بديولكم معايا؟".

"ساعتها نقطعها لهم يا فندم.. ومش بعيد أقطع رقابهم معاها"، قالها الوزير وهو ينظر في عيني الشيخ الذي أبعد عينيه سريعًا وهو يقول

للرئيس "يا فندم وهو حد تيجي له فرصة يتولد من جديد ويقول لأ. . ده حتى النعمة تزول من وشه"، ابتسم السادات راضيًا بينما أضاف الوزير "بالضبط. . وخليك فاكر إن وليّ النعم كلمته واحدة. . كلمة تخليك قاعد معانا زي ما أنت شايف. . وكلمة تخليك تحت الأرض. . زي ما أنت فاكر".

"أكيد. . وهو أنا أقدر أنسى"، قالها وهو يتحسس أسفل ظهره المشوّه من التعذيب فعاد الوزير يتبسم بخبث بينما نهض الرئيس وهو ينظر في ساعته "يبقى اتفقنا. . اقعد مع معالي الوزير اتكلموا في التفاصيل، هو عارف تعليماتي وعنده صورة كاملة عن تصوّر الأيام الجاية. . أهلاً بيك في السياسة مرة تانية يا عمرو"، قال عبارته الأخيرة وأشار إلى حارسه بمرافقته، وهو يبتعد بخطواته الرياضية، بينما تنحنح الشيخ وهو ينظر إلى الرجل الذي أشرف على تعذيبه لسنوات و. .

"فضيلتك طلبتني يا مولانا".

قطع صوت يحيى أفكار شيخه وهو يطرق الباب بهدوء فانتفض الأخير وهو ينظر إليه صامتًا، ارتبك الشاب لحظات استعاد فيها شيخه رباطة جأشه ثم أشار إليه بالاقتراب "تعالى يا يحيى"، دلف الشاب في هدوء مُقتربًا منه ثُم انحنى مُقبلاً يده "بارك الله فيك. . اقعد". جلس يحيى قريبًا منه وظل صامتًا منتظرًا أوامره فتنحنح "أخبار الجامعة إيه؟".

"الحمدلله على كل حال".

"إيه؟. . مش مرتاح؟"، بدا الشاب مترددًا ولكن نظرة شيخه شجعته على الحديث "الدراسة الحمدلله ماشية كويس، لكن. . لكن استفزازات العيال اليساريين والملحدين زادت أوي يا مولانا. . بيضحكوا علينا وبيتريقوا طول الوقت، خصوصًا لمّا نتجمع ونلف علشان ندعو الزملاء للهداية. . طيب أقولك على حاجة. . أنا بقيت بدعي عليهم في كل صلاة إن ربنا يخسف بيهم الأرض وياخدهم أخذة عزيز مقتدر".

"وربنا استجاب لدعواتك يابني"، أجابه شيخه مُبتسمًا وهو يربت على كتفه "قوم أقفل الباب وتعالى. . فيه أمر جلل هتكلم معاك فيه".

"خير يا مولانا؟"، تساءل في حيرة وهو يعود ليجلس بجوار شيخه الذي ابتسم وهو يلتقط مصحفه "الأول عايزك تقسم لي على المصحف إن الكلام اللي هيدور بيني وبينك مش هيخرج برة الأوضة دي. وبعدين هفهمك كل حاجة".

***

٥٤

"تعالي يا مريم" . .

ناداها مجدي بحزم وهو يخرج من مكتب رئيس التحرير ويُشير إليها ، زفرت في ضيق ونظرت إلى رأفت وأكرم اللذين أشار إليها لتمتثل دون مشاكل ، نهضت وتبعته إلى المكتب الذي كان في السابق يدخله مرتجفًا ، وجدته جالسًا في استرخاء على المقعد الذي احتله عبد الرسول أعوامًا طويلة ، عادت تزفر في ضيق "أفندم؟" .

"بالراحة بس . . مش تتفضلي تقعدي الأول" ، قالها وهو يُشير إليها بالجلوس فألقت بجسدها على المقعد وتعمدت أن تضع ساقًا فوق الأخرى في مواجهته "خير يا مجدي؟ . . ولّا تحب تطلّع عقدتك وأقول لك خير يا ريس؟" .

"يا ستي مفيش عقد . . هو علشان الواحد ربنا أدى له من فضله يبقى معقد وهيطلع عقده على الناس؟ . . حاجة غريبة" . التقطت علبة سجائرها وأشعلت سيجارة فطقطق بفمه محذرًا "ممنوع التدخين في مكتبي" ، نفثت دخانها بتحد في وجهه "يبقى حولني تحقيق أو اطردني" .

"أنتي عارفة أني مش هعمل ده" .

"وأنت عارف أن كل اللي بتعمله مفيش منه فايدة" .

"وأنا مش هبطّل أحاول" ، أجابها ببرود ، فعادت تنفث دخان السيجارة في وجهه "بقول لك إيه يا مجدي . . مش علشان الأرجوازات اللي أنت منهم خدوا كل حاجة يبقى هتفتكر إن الناس بقت ضعيفة ، لأ حاسب يا حبيبي ، الكام شهر اللي نطيتم فيهم على الكرسي دول مسيرهم يخلصوا بسرعة ، وأراهنك أنكم هترجعوا الجحر تاني" . صمت وبدا على وجهه الغضب فتابعت وهي تشير حولها "ولو أنت فاكر إن قعدتك في

مكتب عبد الرسول هتخليني أغير رأيي فيك تبقى أكبر غلطة شطانك وزّك عليها".

"أستغفر الله العظيم.. ربنا يبعد عنا الشيطان".

"يبقى خليك في حالك يا حبيبي وانسى حتى شغل العيال اللي أنت كنت قارفني بيه ده"، قالتها ونهضت فتحرك من مكانه ليستوقفها، أمسك يدها وحاول الحديث فنظرت له بازدراء ليعود إلى موضعه "وبعد كده خلي كلامنا رسمي، لو عايز مني حاجة كلّم رئيس القسم بتاعي".

"ما هو ده اللي أنا عايزك فيه"، قالها وهو يتراجع ببطء دون أن يبعد عينيه عنها، ظلت في موضعها تنظر إليه بدهشة وهو يخرج من مكتبه ورقة وضعها أمامها "اعتبارًا من إمبارح أنتي رئيس القسم. يعني كلامك بقى معايا مباشرة".

"وأكرم؟!"، تساءلت بدهشة فبدأ يعبث في لحيته باستمتاع "موقوف عن العمل ومتحول للتحقيق.. بصراحة اللي كتبه في التغطية الأخيرة يختلف مع السياسة التحريرية، وكمان مناهض للسياسة الجديدة للدولة".

"وده كلامك ولا تعليمات الشيخ يحيى بتاعك؟".

"مش هتفرق.. المهم إن القسم من دلوقتي تحت إدارتك، ولو سمحتي وأنتي خارجة بلّغي أكرم أنه ما يدخلش الجورنال لحد ما الشؤون القانونية يكلموه". نظرت إليه في سخرية وأشارت إلى الخارج "على فكرة هو قاعد برة ممكن تبلغه بنفسك.. ولّا خايف؟"؛ عاد الارتباك إلى ملامحه "خايف.. وأنا هخاف ليه.. اتفضلي ابعتيه".

"حاضر.. بس بقول لك".

"تؤمري"، قالها بابتسامة واسعة فبادلته الابتسامة بسخرية "أنا مش موافقة إني أمص دم زميلي.. إذا كانت دي عادتك أنت وناسك فده مش من عادتي، ولا من أخلاق ديني.. ولا من أخلاق دينك".

صفعت الباب خلفها في عنف وتركته يرتجف وقطرات العرق تغزو جبينه. لا يدري هو نفسه لم يتمسك بها إلى هذا الحد!، يختلفان في الدين والمظهر وطريقة التفكير، لكنه لا يستطيع إخراجها من ذهنه؛ منذ التحق

بالجريدة ويراها الأنثى الكاملة بالنسبة له، حتى طريقة غضبها وانفعالها النابعة من قوة شخصيتها لم تزد منه إلا التصميم على البقاء معها. حتى وإن كان هذا يختلف عن تعليمات الشيخ يحيى وكل ما نشأ عليه في الجماعة منذ نعومة أظفاره.

قطع تفكيره صوت الباب وأكرم يندفع داخل المكتب ويصيح "أنت صدقت نفسك ولّا إيه؟"؛ ارتعد بداخله لكنه حاول التماسك "أنت إزاي تدخل مكتبي كده؟".

"لأ فوق.. أنت افتكرت أنك رئيس تحرير بجد ولّا إيه؟".

"ده غصب عنك وعن أي حد.. أعرف أنت بتقول إيه كويس".

مع صوتهما العالي دخل زملاؤهما إلى المكتب وأكرم يصيح "لا يا أستاذ يا ماسح جزم ودقون جماعتك.. اللعبة رايح جاي على فكرة.. النهارده معاكم بكره الجزمة هترجع فوق رقبتكم تاني.. وفي الأول والآخر المجد للعيال الغلابة اللي بينداس على أحلامهم من الباشوات والمعرصين اللي زيك.. اللي بقوا بلطجية بعد ما دورهم خلص، وقبلها كان نفسكم تقعدوا معاهم.. اللي كانوا بيعملوا كل حاجة، وغيرهم بياخد الظرف المتين بعد فقرة تحليل الثورة على الشاشة.. الرجالة والبنات اللي فاتحين حساب ع القهوة، وغيرهم حسابه في البنك بيزيد.. واللي كانوا بيتنفخوا في المتحف، وغيرهم قاعد مع الجنرالات، ناسي ولّا أفكرك".

"لأ.. أنا عايزك أنت اللي تبقى فاكر إن إحنا بنحكم مصر دلوقتي".

"أنت صدقت يا أهبل.. الكلام ده يقوله حد من مشايخك بتوع مجلس الشورى بتاعكم قدام التلفزيون"، حاول مجدي أن يفتح فاه فأشار إليه بيده السليمة "العيال كانت بتموت وعيونهم بتروح في الشارع، وهم قاعدين مع الجنرالات بيشوفوا هياخدوا إيه ويسيبوا إيه. لحد دلوقتي فيه حاجات ممنوعة عليكم".

"مش حقيقي".

"هأو.. ابقى تعالى تف على تربتي.. وأنت فاكر إن الاستبن بتاعك ولّا مجلس البلاليص اللي جاي بالزيت والسُكّر هيحلم مثلاً يبص على ميزانية

الدفاع ولّا يستجوب وزير الداخلية؟! . . تبقى بتحلم أنت ودقونك".

"أنت . . . "، قاطعه أكرم وهو يحاول التخلص من زملائه الذين أقاموا حاجزًا بينهما "أنت مش هتعرف تعمل حاجة . . لو كان في إيدك حاجة كنت فصلتني أو فصلت رأفت اللي مضطهده من يوم ما شفته لأنه مسيحي وشغله أحسن منك ومن عشرة زيك . . مش زي الجبان تاخد قرار بوقفي عن العمل وتخاف تقوله وتتمسح في مريم علشان تبلغني . . طب أهي رفضت صفقتك الوسخة يا قذر".

بدأ الزملاء في جذب أكرم خارج المكتب وهم يحاولون تهدئته، واكتشف مجدي أن الجميع يغادرون ويتركونه وحيدًا وهم يرمونه بنظرات الازدراء. صمت وأغلق الباب جيدًا حتى لا يدخل أحد عنوة مرة أخرى، والتقط هاتفه واتصل بشيخه "السلام عليكم . . إزيك يا مولانا . . فيه إهانة كبيرة حصلت للجماعة وفضيلتك شخصيًّا".

***

٥٥

"شرفتني يا خالو" . .

صاح بها نجيب في مرح ليتغلب على ضجيج الموسيقى المتصاعدة من كل مكان حوله، احتضن الوزير الذي ربت على ظهره وأشار لصفوت الواقف خلفه ليتعرف إليه "نجيب ياسين . . ابن أختي"، صافحه صفوت في احترام بالغ "وهل يخفى القمر معاليك. نجيب بيه أكبر رجل أعمال في البلد"، ابتسم الوزير وأكمل التعارف "صفوت . . دراعي اليمين"، أحنى نجيب رأسه في تحية وأشار إليهما "اتفضلوا . . أهلاً بيكم في حفلتي الصغيرة".

قادهما إلى الحديقة التي امتلأت بخليط من صفوة المجتمع – كما يطلقون على أنفسهم – من رجال أعمال ومسئولين سياسيين وفنانين. لم يكد أغلبهم يلمحون الوزير حتى تركوا لهوهم وأسرعوا لمصافحته والحديث إليه حتى أصابه الضجر فالتفت إلى نجيب "وأنت جايبني حفلة ولّا جايبني يتعمل عليا الحفلة"، ابتسم نجيب في خجل وبدا عليه السُكر وهو يهمس في أذنه "ضريبة القوة يا معالي الوزير. كل واحد نفسه في كلمة رضا علشان يطمن على مستقبله"، أشار بيده متفهمًا في ضجر "طيب تعالى عايزك"، أشار إليه نجيب ليرافقه داخل الفيلا فالتفت إلى صفوت الواقف في صمت "ما تشوف الناس دي يابني. هو أنا جايبك أفسّحك". أسرع صفوت يقف حائلاً بين الوزير ومن يحاولون اللحاق به، وجد نفسه محط اهتمام الجميع الذين أدركوا أن اصطحاب الوزير له يعني مكانته الرفيعة من وجهة نظرهم.

أدرك لماذا شعر الرجل بالضجر وألقى الأمر على عاتقه، لاحظ في خبث أن بعض الممثلات وزوجات السياسيين ممن تعرفوا وجهه أصابهن الارتباك وبدأن ينسحبن من الحفل دون توديع المُضيف «عالم نجسة»، همس بها لنفسه وهو يتوجه نحو البار ويطلب من النادل كأسًا.

فجأة لمحها. كانت ترتدي فستان سهرة أنيقًا وتتراقص بقوامها الممشوق مع بعض الفتيات على إحدى أغنيات فرقة آبا التي اجتاحت شهرتها

العالم، لم يدرِ كيف تعلق بابتسامتها الرقيقة حتى اختفى الحفل كله من حوله ولم يعد هناك سواها. فكر في الاقتراب منها لكن طبيعته الثعلبية منعته من الحديث إليها قبل أن يعرفها. تلفّت حوله حتى وجد واحدًا من الدبلوماسيين الذين تعامل معهم قبلاً فناداه. ارتجف الرجل عند رؤيته لكن الابتسامة المُطمئنة غير المُعتادة التي وجدها على وجهه شجّعته ليقترب منه «والله زمان يا صفوت باشا.. محدش شاف سيادتك من زمان».

«مين دي؟»، سأله وهو يُشير نحو فتاته مُتجاهلاً ترحيبه المُنافق، نظر الرجل إليها وابتسم «شيرين.. بنت البرنس رأفت، أصغر أحفاد أسرة محمد علي. أبوها واحد من اللي قدروا يفلتوا من مذبحة التأميم بتاعة المرحوم عبد الناصر».

«مذبحة؟!»، قالها في حدة وكأنه استعاد شخصيته مرة واحدة فعاد الرجل يرتجف «أنا آسف.. قصدي قرارات التأميم»، رماه صفوت بنظرة جمدت الدماء في عروقه فابتلع ريقه بصعوبة وأضاف «قضت أغلب عمرها برة مصر. نادرًا لما بتظهر في حفل، يمكن علشان البرنس موجود هنا». ارتشف صفوت من كأسه في استمتاع «أها.. وإيه اللي جابه؟»، عاد الرجل يرتجف «مش عارف بصراحة يا فندم. هو فيه حاجة بخصوصها؟».

«ومن إمتى حد بيسألني يا جناب القنصل. الأسئلة شغلتي»، أومأ الرجل برأسه في طاعة «pardon.. اللي أعرفه إن البرنس رأفت سمسار سلاح كبير وبيتعامل مع حكومات كتير.. مش حكومتنا بس. يمكن أغلب حكومات المنطقة".

عاد صفوت يبتسم وهو يتابع الفتاة الشابة التي تنقلت بين الحضور توزع ابتساماتها، وإن لم يبدُ أحد منهم من أصدقائها حسبما أنبئته خبرته في لغة الجسد. صمت القنصل برهة ثم عاد يسأله "تسمح لي أقول لسيادتك حاجة"، رغبته في معرفة المزيد عن ساحرته جعلته يهز رأسه إيجابًا فتشجع الرجل وهمس في أذنه "دي دلّوعة أبوها.. مفيش حد قدر يقرب منها، واللي حاول يضايقها أبوها ممكن يخسف بيه الأرض"، نظر له صفوت في غضب فانكمش "لو تفتكر حكاية ابن الوزير حسين. اللي فجأة صدر قرار بإحالته للتقاعد وطرد أبوه من الوزارة. اللي سمعته من الوزير بتاعنا إن

البرنس كلّم الريس السادات لأن الواد ضايقها أكتر من مرة".

اكتفى صفوت بما سمعه فأشار للرجل بالانصراف، دار بذهنه أن الفتاة تستحق المخاطرة، بينما ذلك الأمير لن يستطيع إقالته من منصب غير موجود رسميًّا. ظل جالسًا أمام البار يرتشف كأسًا تلو الآخر بينما عيناه لا تغيبا عنها. شرد ذهنه لحظات في كيفية الاقتراب منها دون أن يُثير ضيقها. فجأة وجدها أمامه بصحبة ذلك القنصل الذي اقترب منه "صفوت بيه. أحب أعرّفك بسمو الأميرة شيرين رأفت".

"Salut"، قالها بفرنسية سليمة أثارت إعجابها وهو يُقبّل يدها بأناقة فابتسمت "Heureux de vous voir.. لهجتك في الفرنساوي حلوة.. أنت اتعلمتها فين؟"، ابتسم وهو يُشير للرجل بطرف خفي ليبتعد "شغلي بيخليني أتعلم كل حاجة سمو البرنسس"، راقت لها طريقته فضحكت "أنت دبلوماسي؟".

"أنتم اتعرفتم!"، قطع صوت نجيب حديثهما فالتفت إليه سريعًا ليجده بصحبة الوزير ورجل أنيق في منتصف الخمسينات "أعرّفك بالبرنس رأفت يا صفوت"، ابتسم صفوت ومد يده يُصافح الرجل الذي أضاف "والهانم الصغيرة دي بنتي شيرين يا معالي الوزير".

"Que ce soit.. شكلكم هتتكلموا في شغل.. استأذن"، قالتها شيرين التي صافحتهم برقة وتحركت بعيدًا، بينما استعاد صفوت وجهه الرسمي وانهمك في حديث رسمي مع وزيره وسمسار السلاح، الذي فهم أن حضوره الحفل كان لإنهاء صفقة مع الوزير.

لم تمضِ ساعة حتى غادرت شيرين الحفل بصحبة والدها الذي طلب منها الذهابَ إلى المنزل برفقة سائقه "أنا عندي مشوار مع معالي الوزير هخلصه وآجي على طول"، أبدت تفهمها من تصرفات والدها التي اعتادتها كلما أقام صفقة جديدة، استقلت السيارة وفتحت حقيبتها لتضع عطرها المُفضّل فاصطدمت يدها بورقة مطوية لا تخصها، فتحت الورقة المكتوبة بخط أنيق وابتسمت من عبارتها المختصرة "à plus tard.. صفوت".

***

٥٦

"هتسيبني تاني؟" . .

همست بها رضوى وهي جالسة في حضن شكري في منزله، ابتسم وربت على رأسها بحب "احمدي ربنا إني عرفت أقابلك اليومين دول. لولا إن الباشا مشغول مكنتش أقدر أقرب منك لحظة. كان زمانه نسفك ومسح ذكرك من الدنيا".

"ليه كده؟"، صاحت بها فنظر إليها في دهشة فأكملت "ليه الظلم ده. يا أخي إحنا بنحب بعض، والمثل بيقول خدوهم فقراء يغنيهم ربنا"؛ كتم ابتسامته وعاد يضمها "يا حبيبتي الكلام ده مش عند أبويا. . أنا آسف إني بقول ده، لكن معاليه مايعرفش عن ربنا غير اسمه الجبار، ناسي أنه الرحمن الرحيم، والدليل أنه حتى ما رحمش ابنه الوحيد وسابه مع البنت اللي بيعشقها".

دمعت عيناها وتشبثت به أكثر "عارف أنا ليه قررت أكون معاك وأختارك أنت وبس. حسيت إن فيك شيء مختلف، نظراتك أول ما شفتها عرفت إن مش واحد عايز يلعب ويقضي شوية وخلاص. يمكن حسيت أن دي آخر حاجة في دماغك. . أنت عايز حاجة تانية. . أنت ابن باشوات وتقدر تجيب أي واحدة راكعة تحت رجليك".

"وعرفتي؟".

"يمكن علشان تفكيري وتعليمي على قدي مش عارفة أوصل. . لكن الحاجة دي أنا حبيتها، وعايزة أعرفها وأنا معاك. . علشان كده اديتك أهم حاجة عندي واللي لا يمكن تطلع إلا بالرضا. حسيت أنك الوحيد اللي تستاهل، رغم إن الحاجة دي اتاخدت مني غصب قبل كده. كانت تقرف". ربت على كتفها فألقت نفسها في حضنه وتابعت مع دموعها

"على فكرة أنا كنت دلوعة أبويا وأنا صغيرة. . مكنش حد فرحان زيي. . كان بيحبني أوي، وبيعمل لي كل حاجة، حتى أخواتي اللي كانوا رجالة أكبر مني يجي بعشر سنين مكنش حد فيهم يقدر يرفع صوته عليا، وكان راجل كويس ومعاه فلوس. . لكن لمّا خسر فلوس كتير أوي كان شايلها عند الريان بدأ يتغير، بعدها كان بيعمل أي حاجة علشان يعوّض اللي خسره. . شهر ورا التاني وبقى بيحاول ينسى".

"ونسي؟!".

"البودرة والجوازة التانية كانوا الحل. اتجوز واحدة خدت اللي باقي في جيبه وعلّمته البودرة اللي كان بينسى بيها. نسي أمي لدرجة إنه نسي يطلّقها، نسي ولاده الرجالة وكل واحد فيهم خد حاجة وراح في ناحية"، صمتت لحظات ثم عادت تنفجر في البكاء "ونسيني لحد ما صحيت لقيت نفسي في الشارع بعد ما أخو مراته اغتصبني ورمى له تذكرة تكفّيه يومين".

تقلصت ملامح شكري من الألم وهو يستمع إليها، أدرك أن حديث صفوت له حول الملعقة الذهبية التي ولد بها لم تكن على سبيل السخرية. حديث رضوى جعله يستوعب معنى الحياة البائسة لـ"ملح الأرض" كما يقول صديقه. خطر بذهنه أن يلعن أباه ومن يشبهه ممن قادوا البلاد إلى هذا الوضع.

مع صمته وجدته رضوى يضمها لا شعوريًّا بقوة أكبر، أعطت رقبته قبلة طويلة ثم عادت تهمس "وهتعمل إيه دلوقتي؟"، هز رأسه بلا معنى مُتجاهلاً سؤالها فعادت تسأله "هنفضل كده؟!. . نتقابل سرقة؟"، بدا شبح ابتسامة على شفتيه، وبدا لها وكأن هزة رأسه تُشير بالموافقة فواصلت بانفعال "طب اعمل أي حاجة"؛ صدرت منها بغيظ فعاد يرفع عينيه نحوها بنظرة خالية من التعبير فتابعت "أهو. . حتى نظرتك دي محدش يعرف إيه وراها. . سكوت غريب، كأنك بتبص من ورا حاجز".

"حقيقي"، قالها واعتدل مُشعلاً سيجارة، وتراجع بظهره في هدوء "هي دي الحدوتة. . قبل كده كان عندي طاقة أتكلم وأسمع وأتخانق. . أحب. . وأكره. . أملا الدنيا انفعالات".

"ودلوقتي؟"، سألته فزفر في ضيق "طاقتي خلصت ومش عايز

أملاها. . محدش يستحق. . جوّ الشحن والتفريغ ده تلاقيه في المواني، لكن أنا كده تمام"؛ نظرت إليه في حنق "وبتلومني أنا؟. . يا أخي يا رب أموت وترتاح مني". ابتسم وهو ينظر لشعرِها الذي تعقده ضفيرة "بعيد عن الكلام اللي مابيجبش فايدة. . وأنك أصلاً بمنتهى البساطة ممكن تقولي لي وأنت مالك بتتكلم ليه".

"قول"، قالتها وبدأت في جذب ضفيرتها، فابتسم ووضع السيجارة في المطفأة "ببساطة برضه أنتي ما تعرفيش حاجة عن الدنيا والموت علشان تقولي عايزة أموت. . لا عارفة اللي أنتي فيه ولا عارفة اللي عايزة تروحي له".

"أنا زهقت. . من غيرك بقابل أشكال زفت، كلهم ولاد وسخة عايزين ينهشوا فيا".

"الواحد طول ما هو موجود بيتخبط، ويقوم ويقع وينكسر، ويطلع عين أمه. . عمر الواحد ما هيكون قوي من غير كام خبطة يعرف بيها ظهره بيستحمل لغاية فين". أشارت بذراعيها "يا سلام. . شكري. . ماتجننيش"، أكمل حديثه وكأنه لم يسمعها "ده طبيعي. . انضحك عليكي. . عادي. . اتحطيتي في مشاكل شايفاها أكبر منك. . طالما جت لك تبقى بتاعتك. . لسه ماكبرتيش وشفتي الأوسخ من كده. . ماشفتيش الناس بتبيعك علني. . مشفتيش خيانة الأقرب واللي لازق فيكي. . ما عرفتيش إزاي ابتسامة في وشك. . وتقطيع فيكي برضه مع الابتسامة".

"وأنت تعرف إيه عن ده. . لامؤاخذة يا حبيبي. . بس أنت ابن باشوات"، تجاهلها والتقط السيجارة مرة أخرى وهو ينهض ويتحرك نحو الباب "نصيحة. . فكري كسبتي إيه من كل ده وممكن تكملي إزاي".

"وأنت؟".

"شوية موجود وأغلب الوقت لأ. . صدقيني ده لمصلحتك"، التقط مفاتيحه وفتح الباب "طبعًا أنتي عارفة هتنزلي من هنا إزاي وإمتى".

قالها وغادر دون أن يلتفت.

***

في 17 يناير 1977 تحدث الدكتور عبد المنعم القيسوني، نائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية أمام مجلس الشعب بخصوص مشروع الميزانية لذلك العام، أعلن فيه إجراءات تقشفية لتخفيض العجز، وربط هذا بضرورة الاتفاق مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي لتدبير الموارد المالية الإضافية اللازمة. كان رد فعل المواطنين الخروج في تظاهرات بالشوارع يومي 18 و19 يناير، وأطلق الرئيس السادات على التظاهرات "ثورة الحرامية" وخرج الإعلام الرسمي يتحدث عن "مخطط شيوعي لإحداث بلبلة واضطرابات في مصر وقلب نظام الحكم".

نزل الجيش لمنع المظاهرات، وأعلنت حالة الطوارئ وحظر التجول، وتم زج الآلاف في السجون بتهم المشاركة بأحداث الشغب أو الانتماء لتنظيم شيوعي، وكان من ضمن المعتقلين عدد كبير من رجال القانون والكتاب والفنانين، وتوزعوا على سجون طرة وسجن الاستئناف وسجن أبو زعبل.

تقارير صحفية

"هو إيه اللي بيحصل؟" . .

فاجأت بها فريدة الوزير وهو يدخل الفيلا مع شروق الشمس ، التفت إليها ببطء مبتسمًا "صباح الخير" ، هزت رأسها في توتر مُحيية ، ونفثت دخان سيجارتها "أولاً آسفة إني جيت لك من غير اتفاق . . لكن . . فيه هيستيريا في البلد . . أنا كنت خايفة أوي وأنا جاية لك ، ولولا التصريح اللي أنت سايبه معايا للطوارئ كان الجيش قبض عليا" ، أشار بيده لتهدأ وابتسم "أنا كنت هبعت لك . . خليهم يحضروا لنا الفطار" .

صمتت فأشار إلى حارسه الذي تحرك لتنفيذ الأمر وصعد في هدوء درجات السلم لكنها صعدت خلفه "اللي مستغربة منه أنك توافق على اللي الحكومة عملته ده ، يقبضوا على أكتر من ألف بني آدم في يوم واحد ، الناس مش عايزة أكتر من أنهم يعرفوا يعيشوا" ، قالتها وغمزت بخبث "مش ده اللي متوقعاه منك" . أنت اللي قلت لي قبل كده إن طالما البطن مرتاحة العقل في راحة" . صمت ونظر إليها طويلاً ثم ارتفعت ضحكاته وهو يقرص خدها "بقيت حاسس إنك مراتي يا فريدة . ده كلام زي المتجوزين" .

"يا أخي جاوبني حتى علشان العشرة . دا إحنا بقالنا عمر مع بعض" ؛ ابتسم وربت على وجنتها "طيب اسبقيني عند حمّام السباحة وخليهم يبعتوا لنا الفطار على هناك وأنا جاي لك" . هزّت رأسها بالموافقة وأسرعت بالخروج ، كررت تعليماته لأقرب من وجدتهم من رجاله ثم سارت حتى مقعده المُفضّل أمام حوض السباحة . نظرت على المنضدة لتجد صحف الصباح التي أحضروها ، بدأت في تصفحها وقد ازداد توترها أكثر .

تأكدت لديها في هذه اللحظة أن كل ما كان السادات يقوله حول الحريات وإلغاء المُعتقلات ليس سوى مزيد من التلميع لصورته التلفزيونية

في الغرب. فقط لتُعطي الصورة بإبحاره أكثر بعيدًا عن الاتحاد السوفيتي، عندها شعرت بأنه فقط ألقى عباءة الإخفاء على أمثال صفوت هؤلاء، بينما استخدمهم كأذرع خفية للسيطرة على البلاد بقبضة ربما تصير أكثر حديدية مما فعله سلفه الراحل.

مع استغراقها في قراءة الصحف فوجئت بالوزير يُداعب كتفيها "إيه.. مش هتنزلي معايا شوية"، التفتت إليه في حيرة "طب فهمني الأول".

"هوجة محدش منهم كان عامل حسابها وهتعدي.. الموضوع بسيط"، قالها وجلس بجوارها وهو يلتقط إحدى الصحف ويُلقي نظرة على عناوينها فعادت تسأله "رغم كل اللي حصل؟!"، أشار بيده في لا مُبالاة وابتسم "طبعًا". عادت تسأله "وأنت مصدق أنهم فعلاً عايزين يحرقوا البلد؟"، أشار إلى الصحف أمامه "التقارير اللي وصلت للحكومة بتقول كده".

"أنا بسألك أنت"، كررتها في غضب، فضحك وألقى الصحف "ما تبقيش زي الخرفان اللي بيكرروا أي حاجة يسمعوها في التلفزيون.. الكلمتين دول علشان الاستهلاك المحلي، الناس زهقت.. هاجت.. دي الحدوتة".

"للدرجة دي؟".

"إحنا في فراغ ما بعد الحرب.. الناس فجأة مش لاقية حاجة تعملها.. دول الخيبانين اللي مش عارفين يعملوا فلوس"، صمت لحظات وأشار إليها بالاقتراب "عارفة إن الحكاية دي مصلحة"، نظرت إليه في دهشة، ولكنها واصلت الصمت فتابع "القرارات اللي خدها السادات كانت ذكية.. سيبك من العيال اليساريين، دول زي الولية الزنانة، لو مالقوش حاجة يزنّوا فيها هيخترعوها.. لكن القطيع اللي في الشارع هيصدق إن كل حاجة علشانهم والراجل رجع في كلامه علشان خاطرهم"، صمت لحظات أشعل فيها سيجاره الفاخر "وكده القرارات الأخطر هتاخد إقبال شعبي".

"وأنت؟".

"أنا الكسبان في كل اللي بيحصل ده، في الوقت اللي الحكومة فيه بتلف حوالين نفسها أنا لمتها. جبت من الآخر زي ما بيقولوا. والراجل

اتأكد ساعتها إني لسّه قادر أحميه. مش كبرت وخرفت زي ما البهوات اللي حواليه حاولوا يفهّموه". قالها ونهض يخلع ملابسه استعدادًا للسباحة، نظرت بمزيج من الاشمئزاز والإعجاب إلى ملامحه التي لم يُغيرها الزمن كثيرًا بينما كرر سؤاله "إيه.. برضه مش هتنزلي معايا. شعرت بتيار هواء خفيف امتزج بقشعريرة خوف من كل هولاء الحرس المُحيطين به، دار بذهنها أنها إذا كانت قد ارتضت بتعرية نفسها أمام ابن البوسطجي الذي صار وزير الفرعون، فكيف يُمكن أن تفعل ذلك في وجود كل هؤلاء؟

ابتسم الوزير بخبث وكأنما قرأ أفكارها "سمعتي عن الإنسان الآلي؟"، التفتت إليه في دهشة "قريت حاجة إن اليابان بتعمل ده"، ضحك باستمتاع "اللي أنتي شايفاهم دول زيه بالضبط.. مش بيعرفوا غير حاجة واحدة، يحموني.. غير كده تحسي إنهم مش متوصلين بالكهربا"؛ ارتفع حاجبها في دهشة رقيقة فغمز "أصل بصّتك لهم طوّلت شوية"، وعاد يضحك لدهشتها "أنا ما وصلتش للي فيه ده بالساهل.. لأ.. بده"، قالها وأشار إلى رأسه "علشان كده أستاهل كل الحماية دي".

"أنا هطلع ارتاح شوية فوق"، أشار إليها بالانصراف فتركت مكانها على صوت ضحكاته العالية ونفضت فكرة الاستمتاع عن رأسها، صعدت إلى غرفتها التي خصصها لها وأغلقت الباب، ورد في رأسها أنه يستطيع بسهولة أن يفتح جميع الأقفال "شغلته" قالتها لنفسها وأخرجت الصندوق الذي يحوى سجائرها الملفوفة؛ أخرجت بضع سجائر وتحركت إلى البار الصغير، صبت لنفسها كأسًا وعادت تفكر فيما تحمله الأيام القادمة. أشعلت سيجارتها الأولى بينما اخترق سمعها ضجيج طائرة هليكوبتر تطير على ارتفاع منخفض، نفثت دخانها وهمست "تلاقي دي كمان بتحميه".

***

جاءت مظاهرات 30 يونيو 2013 في توقيت كان محددًا مسبقًا منذ أسابيع. طالب المتظاهرون برحيل الرئيس محمد مرسي، الذي أمضى عامًا واحدًا في الحكم. في اليوم الأول من وقوع قتلى وجرحى. وأحرقت مكاتب لجماعة الإخوان المسلمين، ومقرها في المقطم بالقاهرة. ، في عصر اليوم التالي، 1 يوليو، أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة بيانًا يمهل القوى السياسية مهلة مدتها 48 ساعة لتحمل أعباء الظرف التاريخي، وذكر البيان أنه في حال لم تتحقق مطالب الشعب خلال هذه المدة فإن القوات المسلحة ستعلن عن خارطة مستقبل وإجراءات تشرف على تنفيذها. وفي الليل، أصدر التحالف الوطني لدعم الشرعية بيانًا جاء فيه إعلان الرفض البات والمطلق محاولة البعض استرداد هذا الجيش للانقضاض على الشرعية والانقلاب على الإرادة الشعبية.

أصدرت الرئاسة المصرية بيانًا في الساعات الأولى من الثلاثاء 2 يوليو جاء فيه أن الرئاسة المصرية ترى أن بعض العبارات الواردة في بيان الجيش "تحمل من الدلالات ما يمكن أن يتسبب في حدوث إرباك للمشهد الوطني المركب".

في 3 يوليو، وبعد انتهاء المهلة التي منحتها القوات المسلحة للقوى السياسية، في التاسعة مساءً، وبعد لقاء مع قوى سياسية ودينية وشبابية، أعلن وزير الدفاع الفريق أول عبد الفتاح السيسي – وقتها – إنهاء حكم الرئيس محمد مرسي، على أن يتولى رئيس المحكمة الدستورية العليا إدارة شئون البلاد لحين إجراء انتخابات رئاسية مبكرة.

تقارير صحفية

٥٨

"أنت فين يا مولانا؟".

صاح بها مجدي في فزع وهو يقود سيارته مبتعدًا عن مبنى الجريدة وسط زحام المحتفلين بإسقاط حكم الجماعة، بدا صوت شيخه متوترًا وهو يقول "محنة وإن شاء الله هتعدي يابني.. إن الله لا يضيع أجر الصابرين".

"هو إيه اللي حصل؟"، عاد يسأله فساد الصمت لحظات ثم عاد الصوت المتوتر "تكاتلوا علينا وأفرطوا في استخدام القوة. تخيل إن الرئيس معتقل دلوقتي؟".

"وبعدين.. هنعمل إيه؟".

"لله الأمر من قبل ومن بعد.. أنت إيه أخبارك؟"؛ أجابه وهو يدور بالسيارة حول كومة من المحتشدين الذين يحملون أعلام مصر ويطلقون الصافرات "زي الزفت"، قالها وتابع "ما قدرتش حتى أدخل الجورنال. زمايلي وقفوا على الباب ورموا حاجتي في الشارع ومنعوني أدخل.. بقينا عاملين زي الفيران وسط سفينة بتغرق يا مولانا".

"أوعى تقول كده"، جاءته الصرخة من شيخه فانتفض "دي مش أول محنة تعدي علينا.. قربنا على قرن من الزمن ومهما عمل فينا الأعداء بنرجع تاني.. إحنا اللي باقيين".

"أنا قلقان أوي فضيلتك.. إيه اللي هيحصل بعد كده؟".

"إحنا أطلقنا النفير العام.. كل واحد يدين لنا بالولاء دلوقتي بيجهز وعلى استعداد للدفاع عن الرئيس الشرعي وخدمة الدعوة.. مش هنسيب حد يهدم كل اللي وصلنا له، حتى لو مصر دي بقت أنهار من الدم.. فاهمني يا مجدي؟". بدا التردد في صوته وهو يجيب "طبعًا.. طبعًا يا مولانا".

أغلق هاتفه وسار في الشوارع مبتعدًا عن الزحام قدر الإمكان، وكأنه يخشى أن يراه أحد معارفه؛ لم يشعر بهذا الخوف من قبل، حتى عندما تم القبض عليه أو استدعاؤه لأمن الدولة عدة مرات قبل الثورة؛ لم يكذب حينما قال لشيخه أنه يشعر كفأر في سفينة غارقة، جالت بذهنه كلمات أكرم في شجارهما الأخير عندما أخبره بأن أيام النظام الذي رفعه لأعلى درجات كانت معدودة، لعن أكرم سرًّا وتساءل ما إذا كان حديثه نبوءة أم معلومات حصل عليها.

"أنت هتضحك على نفسك.. الموضوع شغّال من أسابيع بس هم اللي كانوا أغبياء"، ظل يردد الجملة الأخيرة بصوت عالٍ وكأنه يفرغ معها توتره. عاد السؤال يطوف بذهنه عن مصيره بعد دمار نظامٍ الجماعة واستيلاء الجيش على السلطة مرة أخرى؛ بدا على شفا انهيار عصبي وهو يضرب بقبضته على المقود ويردد "مش هيسيبوني".

مع توتره الشديد انزاحت كافة الصور لتحتل صورة مريم كيانه، بدأ عقله في رسم السيناريوهات البشعة حول سخريتها ورفاقها منه ومن جماعته بعد ما حدث "ومش بعيد يكونوا بيشربوا ستلا كمان على روح النظام". تصوره هذا زاد من غضبه فضغط دواسة الوقود أكثر وهو يُدير السيارة على جانب الطريق عائدًا إلى وسط المدينة، لمعت عيناه بالجنون وهو يتحسس المسدس القابع منذ زمن تحت مقعد السيارة وهو يهتف "لو مش ليا مش هتكون لغيري.. مش هسيبها لرأفت.. مش هسيبها لحد".

مع استدارته عاد رنين هاتفه يرتفع بالنغمة المميزة للشيخ يحيى، التقط أنفاسه بصعوبة وأجاب الهاتف محاولاً بث الهدوء في صوته "تحت أمرك يا مولانا".

"اسمعني كويس يا مجدي.. فيه ترتيبات سريعة إحنا بنعملها علشان ننقذ الموقف.. تعالى لي بسرعة على العنوان ده".

***

٥٩

"السلام عليكم ورحمة الله. . السلام عليكم ورحمة الله". .

فرغ صادق من صلاة الفجر بالمسجد وجلس وحيدًا يذكر الله. كان يغمره الهدوء منذ الليلة السابقة، بعد أن قرر الرحيل والموافقة على عرض العمل الذي قدّمه له الدكتور أيمن رفيق الصلاة في المسجد، كان يعلم أن سنه الذي اقترب من الخمسين، وسلسلة الإخفاقات التي تُلاحقه منذ خرج من المعتقل، لا يؤهلانه للعمل في إحدى دول الخليج التي تتحالف أنظمتها مع النظام المصري. وفي الوقت نفسه كان اكتشافه لأعمال أخيه القذرة التي تتم بمباركة خاله لم تكن لتُبقيه طويلاً بعيدًا عن القضبان. جال بذهنه حديثه مع الرجل عندما طرح عليه الأمر لأول مرة.

"أفغانستان!. . ودي هعمل فيها إيه دي يا دكتور؟".

"يا أخي أي شغل. البلد هناك أغلبها مسلمين زينا وخير ربنا فيها كتير. على الأقل بدل القعدة في الجوامع لا شغلة ولا مشغلة"، شعر صادق بالجرح من كلماته فخفض رأسه بينما ارتبك الرجل "أنا آسف يا أخ صادق. . ربنا يعلم إني بكلمك كأخ فعلاً. أنا بس قصدي إن أبواب الرزق اتقفلت في وجوهنا هنا، والسادات ونظامه الله لا يسامحهم مش مخليين لحد فرصة يعمل حاجة طالما مش على هواهم. وأنت زي ما حكيت لي لا ناوي تمشي في السكة البطّالة اللي أخوك مشي فيها، ولا أنت هتسترضى خالك اللعين اللي حكيت لي عنه"، صمت صادق فتشجّع الدكتور على الحديث أكثر "وإحنا سننا بيكبر، والبلد هنا فرصة الشباب فيها بقت ضيقة. يبقى نشوف رزقنا في بلاد الله".

"وأنت تعرف حد هناك يعني؟".

"طبعًا" قالها بثقة وأضاف "ليا صديق سعودي ربنا فاتحها عليه بيعمل

هناك مشروعات تنموية كتير، هتشتغل معاه، هو بيحب مصر والمصريين أوي، ولولا تحالف الخونة اللي بين الأنظمة كان زمانه بياخدك من إيدك لحد مكانه هناك. الشيخ أسامة ده برضه راجل بتاع ربنا. أنا أضمنه برقبتي".

هكذا قرر الرحيل بعد فترة من التفكير. كان يعرف طيلة الوقت أنه لا يملُك علم الخضر، لكنه وسط كل هذا تسلّح بالنّية "إنك لن تستطيع صبرًا" قاعدة لم يُدرَكها من أنعم الخالق عليه وحدّثه بنفسه، هكذا كان يبتسم أمام الجميع وسط محنته التي لم يدرِ كيف بدأت ولا متى تنتهي، عاش سنوات أدرك بعدها أنه كان مثله كموسى الذي خرج من مصرٍ مع قومه، وليس كيوسفّ الذي خرج من السجن ليُصبح على عرشها ملكا.

فكّر يومًا فيما قيل له بأن الإله الواحد قد أنهى رسالاته وظل بعدها صامتًا.. هراء.. كانت الحقيقة هي ما يُدركها منذ أن شعر أن ربه يُحادثه بالعلامات ويتولى مسئوليته مباشرة منذ رحل كل من أحبهم وقضى سنوات خلف القضبان. بعد ساعات كان يقف في طابور انتظار طويل في إدارة الجوازات ليُنهي إجراءات وتصاريح سفره. اختلطت في مسامعه همسات الناس وأحاديثهم التي يقتلون بها الضجر فِي انتظار الموظف الذي "خرج ولم يعد"، حسبما قال أحد المنتظرين ضاحكا، في إشارة لإعلانات الصحف الشهيرة عن المفقودين.

"وأهي يا سيدي بركات الرئيس المؤمن"، نظر أمامه فوجد الموظف المفقود يدلف إلى مكتبه المزدحم وهو مُشمّر اليدين والقدمين، اللتين استقرتا في شبشب بلاستيكي، بينما تتساقط نقاط الماء منه، حاول البعض الحديث إليه وتنبيهه بأن الطابور قارب على الخروج من بوابة المبنى فصاح فيهم بعنف "إيه يا كفرة.. الظهر أذّن.. مش عايزينا نصلي.. فيه نُص ساعة صلاة.. يلا"، بدأ كثير من الناس يخرجون من المكتب مُفسحين له الطريق عدا شاب استند إلى مكتبه وهو يغمز، تجاهله الموظف وبدأ يُصلي، صمت هو الآخر ووقف بعيدًا يُراقبه. انتهى الموظف من صلاته وأدار رأسه إلى جانبيه "السلام عليكم ورحمة الله".

"حرمًا. تقبّل الله"، قالها الشاب وهو يضع شيئًا في جيبه، نظر له

الموظف مُبتسمًا "منّا ومنكم. . أشرب شاي على ما أصلي السُنّة وأرجع أخلص لك المصلحة على طول".

"طب وده يرضي ربنا" خرجت منه دون وعي فلكزه أحد المنتظرين مثله "يا عم الله يرضى عليك خليك في حالك. طالما مش قادر تدفع يبقى تسكت زي حالاتنا"، حاول الرد عليه فأسرع آخر ينهره "أنت مش من البلد دي ولّا إيه يا أستاذ. والنبي لتسكت أحسن الموظف يأجل ورقنا كلنا. دا أنا ما صدقت جالي العقد في السعودية"، نظر لهما في دهشة وبدأ يحوقل فأضاف شاب آخر يبدو عليه البؤس "البلد دي ما بقتش بتاعتنا يا حاج. يبقى خلينا نغور منها بقى. ربنا يكفينا شر الحوجة وسؤال الناس".

صمت صادق وشغل انتظاره الطويل بذكر الله، وما إن انتهى حتى خرج والعرق يغمره، ورغم ذلك قرر أن يعود لبيته سيرًا على الأقدام "يمكن ما أرجعش البلد دي تاني"، قالها لنفسه مُتجاهلاً الأتوبيس المزدحم الذي مر أمامه، بدأ يتجول في شوارع وسط البلد التي كان يحفظها يومًا كظهر يده. مع كل خطوة كانت عشرات الأفكار والأصوات من الماضي تتداخل في ذهنه حتى شعر وكأن مخه يتمزق.

بنو وطني. . وأنتم فرقتوا عنهم إيه. . بص لنفسك يا راجل الصف التاني. . شاي وقهوة سادة. . محكمة الثورة. . أنسى يا صاحبي. . العساكر جننوه. . قرارات اعتقال. . تقدر تقول لي هتعمل لي إيه قدام خالك. . وإحنا مفيش حيلتنا غير الكلام. . نمرة 26. . أنت الظابط اللي خسّرني كل حاجة حلوة. . أنا مفيش زيي. . أيوة بتاجر في المخدرات. . منهم لله الكفرة. . تقبل الله.

«يا رب».

صرخ بها في وسط الشارع فالتفت إليه المارة. نظر إليهم جميعًا بمرارة ثم عاد ينظر إلى السماء ودموعه تنهمر على وجهه، فجأة وجد أحد المارة يضع شيئًا في يده، نظر فوجده أعطاه ربع جنيه. تلفت حوله ليرى من فعلها فوجد الجميع قد تجاهله وأكمل كلٌ طريقه. نظر للعملة في يده وتحسس جواز سفره الذي تنقصه التأشيرة داعيًا أن يرحل في أسرع وقت ممكن.

أكمل طريقه ليجد أحد باعة الذرة يُنادي على بضاعته بصوت عال، قفزت إلى ذهنه سارة حينما كانت تقول له في دلال «هات لي درة»، كان ذلك طلبها الشهير الذي اعتاد عليه، وقتها كان يتخلص من أعبائه في الثالثة ظهرًا. يرتدي البدلة الصيفية الأنيقة، وتتعطر هي وتلمع في جيبتها البيضاء القصيرة والقميص المستوحى من الأربعينات قليلاً؛ كان يمشي معها حتى سينما أوديون ويدخلان فيلم الموسم في أسبوعه الأول.

مر في طريقه على مدبولي أشهر باعة الكتب في مصر، الذي حكى له رفاق الاعتقال عن اعتيادهم سؤاله عن آخر الكتب المُحرّمة.. عم عبد المسيح هو الآخر يقفز إلى ذاكرته، لا يدري لمَ كل هذا الآن.. تذكّر جلسة رثائه قبل خروجه من المُعتقل «القبر ما بيتَقفلش إلا على ثلاثة» قالها له يومها وكأنه كان يعلم أنه نهايته في ذلك المكان البشع «ونفسي أخلص وأكون واحد منهم»؛ نفض رأسه محاولاً التركيز في الطريق وهو يعبر الميدان رافعًا رأسه لأعلى فقفز في ذهنه أرماني الراحل، انتقلت عيناه تلقائيًا إلى شرفته التي احتلها صفوت.

«حاسب»، ارتفعت الصرخة بينما لم يستوعب أنها له إلا عندما فوجئ بدفعة خاطفة رفعته لأعلى.. وجد نفسه يطير في الهواء.. شعر أن ذكرياته تتدفق منه بلا توقف، السقوط كذلك نزف حكايات أخرى.

«يا ساتر يا رب».

الارتطام جاء بقفزة أخرى صغيرة ثم استقر ساكنًا.. لم يرَ ما حوله، وإنما ملأت عينيه صور كثيرة لمن يفتقد.. ابتسم عندما رأى سارة الجميلة تمد يدها للعبور معه.

«حد ينادي عسكري ويجري ينادي الإسعاف».

أصوات شبحية مهتزة تحاول إنقاذه.. الأمر يتحول إلى صدى مع الإظلام التدريجي كما شاهد في أحد أفلام هتشكوك.. لم تبقَ سوى موسيقى تصويرية يختارها بنفسه..

«لا حول ولا قوة إلا بالله.. الراجل راح».

***

«إلا أن الأمور سارت في اتجاه مُخالف، فقد وصلنا إلى حالة من الاستقطاب أشد قسوة، وحالة من الانقسام أكثر خطورة، وأصبح النسيج المجتمعي مُهددًا بالتمزق لأن العنف لا يولّد إلا العنف.

وكما تعلمون، فقد كنت أرى أن هناك بدائل سلمية لفض هذا الاشتباك المجتمعي، وكانت هناك حلول مطروحة ومقبولة لبدايات تقودنا إلى التوافق الوطني، ولكن الأمور سارت إلى ما صارت إليه. ومن واقع التجارب المُماثلة فإن المُصالحة ستأتي في النهاية، ولكن بعد تكبدنا ثمنًا غاليًا كان من الممكن – في رأيي – تجنبه».

من استقالة الدكتور محمد البرادعي –
نائب الرئيس المؤقت للجمهورية – أغسطس 2013

٦٠

«الإنذار الأخير.. على جميع المعتصمين الإخلاء والخروج من الممرات التي تؤمنها قوات الأمن.. وزارة الداخلية تتعهد بعدم ملاحقة أي شخص ما لم يكن مطلوبًا قضائيًّا.. سيتم فض الاعتصام خلال عشر دقائق»..

عاد مجدي يتلفت حوله في توتر وهو يتجول بعيدًا عن الخطوط الأمامية بحثًا عن الشيخ يحيى الذي بدا وكأنه تبخّر من المنطقة فجأة، ارتجف جسده من الحركة العشوائية للمعتصمين الذين يندفعون نحو ممرات الخروج التي أقامتها الشرطة؛ كان أغلبهم لا ناقة له ولا جمل في هذه المعركة وتواجدوا طمعًا في إعلاء كلمة الحق كما أوهمهم رجال الجماعة، أو من أجل الوجبة والمائتي جنيه التي أخبره عنهم أحد المعتصمين ممن أتوا بأسرهم كاملة، تعجّب من الرجل الذي يُضحي بأسرته ليجمع مبلغًا يستطيع به مساعدة ابنته اليتيمة في الزواج. حاول الاتصال بالشيخ عدة مرات، إلا أن الأمن قام بالتشويش على الاتصالات تحسبًا لأي تفجيرات محتملة؛ أعاد هاتفه إلى جيبه وقادته قدماه إلى الصفوف الأولى، عندها أيقن أن مجزرة ستقع بعد قليل. لم يُفاجأ بأعداد القوات الهائلة التي أحاطت بالاعتصام قدر ما أثار رعبه أولئك الملثمون الذين بدأوا في إعداد تحصينات وأسلحة لم يرَها منذ أنهى خدمته العسكرية «ربنا يستر»، همس بها ثم فوجئ بيد غليظة توضع على كتفه «إيه ده.. مجدي!»، التفت محدقًا في الملثم الذي نزع لثامه ليجده أحد رفاق الجيش القدامى فهتف «حسين.. إيه اللي جابك هنا»..

«ياه.. دا اللقا نصيب صحيح».

«بقى سنين مش عارف فين أراضيك، وألاقيك هنا.. فينك طول الزمن ده؟»، ربت حسين على كتفه وسار به نحو أحد التحصينات القريبة

من الصف الأول «مصير الحي يتلاقى يا شيخ مجدي . . أنا بعد ما خرجت من المعتقل سافرت العراق أشتغل مع خالي . . ولّما الأمريكان الكفرة دخلوها رحت على الأردن ، اشتغلت هناك وبعدين ولاد الحلال سفروني على غزة ، هناك انضممت للمقاومة ضد الصهاينة . . ورجعت علشان أقف جنب الدكتور وهو بيحكم بشرع ربنا» .

«وأديك شفت اللي حصل» . .

«الحمدلله إننا قدرنا نهرّب القيادات . . هم دلوقتي في أمان مع إخواننا . . وفيه منهم اللي خرج بره البلد كمان» ، شعر مجدي بالحنق وقد أدرك لماذا اختفى الشيخ يحيى «طب وإحنا؟» . .

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» ، قالها وأشار إلى أحد الشباب الملثمين الذي أسرع إليه وفي يده سلاح آلي «لسّه بتسمّي قبل ما تنشّن ولّا بطلت؟»؛ تردد مجدي والملثم يُعلق السلاح في كتفه ويعطيه طلقات إضافية «أنا . . أنا ماضربتش نار من ساعة ما خدت شهادة الجيش» .

«وأهي جت فرصتك نرجّع الذكريات . . معركة الحق ضد الكفرة اللي حبسوا الراجل الصالح علشان أمريكا وإسرائيل»؛ عاد مجدي يقول بصوت مرتجف «طيب ما فيه ناس كتير بتخرج»؛ ضحك الرجل بشدة وهو يُشير لبعض الشباب الذين انتشروا باحترافية «ومن إمتى والكفرة ليهم عهد . . أنت ما سمعتش اللي قاله الكشافة بتوعنا . . اللي بيخرج بيركب عربية الترحيلات أو بيضربوه بالنار مكانه» .

«لا حول ولا قوة إلا بالله» ، قالها مجدي وقد شعر أنه بين المطرقة والسندان بعد أن هرب شيخه وأحاطت بهم قوات الأمن والجيش من كل جانب «يا حسين . . أنت عسكري قديم وعارف . . دول محاوطين المنطقة» .

«ربنا يبارك في ولادنا اللي على المأذنة وأسطح العمارات . . منهم كام شاب تربيتي» ، قالها وأخذ نفسًا عميقًا وهو يربت على كتفه «اتوكل على الله وخد مكانك بين الشباب . . دول حتى لو هجموا بالهليكوبتر معانا اللي يوقّفهم» .

«وبعد كده» .

«ربنا هينصر الحق والدكتور هيرجع لمكانه» ، هزّ مجدي رأسه واتجه إلى أحد المواضع التي تشكل ساترًا من الشكائر الرملية ، وهو يلعن اليوم الذي صدّق فيه الشيخ يحيى وانضم للجماعة التي يلعنها الآن ألف مرة ، لم يدرِ لماذا جال بذهنه رفاق الجريدة . . عبد الرسول الذي نصحه طويلاً لكن شهادته مجروحة بسبب ولائه للنظام ، رأفت المصور الذي تجنبه رغم طيبته لأنه مسيحي . . حنان الرقيقة التي اشتهاها في نفسه طويلاً رغم سخريتها من لحيته؛ حتى أكرم الذي ناصبه العداء بعد تأييد الجماعة للمجلس العسكري شعر الآن بأنه كان مُحقًّا. ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة عندما تذكر رده وهما يتجادلان حول سبب انضمامه . .

«عارف . . وأنا صغير كنت دايمًا بحس إني لوحدي . . مكنتش عايز من حد حاجة كبيرة . . كلمة حلوة . . نظرة اهتمام . . يا سلام لو لقيت حضن أترمي فيه . . اليُتم كان حياة كاملة مش مجرد إحساس . . كبرت وفهمت ليه ربنا هيعاقب اللي يتسبب في بكاء طفل أبوه في التراب . . الأب ظهر وقوة وعزوة . . حاجز بينك وبين قذارة الدنيا . . أول ما الحاجز ده يقع بيبدأ سيل الدموع . . الظهر بينكسر والقوة بتروح والعزوة بتنفض . . يمكن علشان كده مش عاوز أكون أب . . مش عايز أكسر ضهر حد» . .

«وهم بقوا ضهرك؟!» . .

«معاهم لقيت العزوة اللي كنت بدور عليها . . تفتكر أنا اشتغلت هنا إزاي؟! . . بتوصية منهم أيام ما كانوا هم والنظام حبايب . . البيت اللي أنا فيه واحد منهم أجره لي بسعر حنين . . بعد ما كنت زيك بقيت بصلي وأصوم وأعرف ربنا» . .

«ربنا مش مدّي لحد التوكيل علشان يتعامل باسمه» . .

«بس قال إنما المؤمنون إخوة . . هتلاقي ده في كل حتة مش هنا بس . . في أوروبا فيه أخويّات للمسيحيين . . إيه يا أخي . . كتير علينا نبقى زيّهم» . .

قطعت ذكرياته صافرة إنذار طويلة جعلته يقفز محتميًا بالشكائر في نفس اللحظة التي انهال فيها وابل من الرصاص من القوات التي شرعت

في الهجوم، أسرع يضبط سلاحه الذي طالما استخدم طرازًا قديمًا منه في خدمته العسكرية. . بدأ ورفاقه يردّون الرصاصات بأسخى منها، أيقن أن حسين كان محقًّا عندما برز بعض الشباب وهم يحملون على أكتافهم قواذف صاروخية أطلقوها نحو قوات الأمن التي تراجعت أمتارًا لتفسح الطريق للجيش الذي بدأ يتعامل مع الأسلحة المتطورة. بدأ يُطلق رصاصاته بعشوائية بينما انسحب عقله مستعيدًا عشرات التفاصيل التي تمنى أن يعيشها لكنه اكتفى بالمشاهدة. .

الباب الموارب. . إضاءة نصف مظلمة. . يا أستاذ فتحي. . إيه حوار لعبة الأرقام. . الباسورد يا أسطى. . 855. . يا حاج عبده. . نفسي أحضنك. . رئيس عبيط. . حشيش. . الباب. . طب إيه. . السقف. . كيوت أوي. . مش عارف. . حكم العسكر. . هتروح مني. . صوت حريمي. . وعايزني أكسبها. . الشباك. . بيض. . انتظار. . حلوة. .

تفككت قناعاته حول الصمود وهو يرى المحيطين به يتساقطون واحدًا تلو الآخر. . تناهى إلى مسامعه هدير الهليكوبتر التي تحدث عنها حسين وهي تقصف أعلى المباني المجاورة. . لا بد أن هؤلاء هم قناصة الجماعة. . سمع صوت حسين المميز يصرخ، التفت فوجده تلقى رصاصة محكمة في عنقه. .

«هذه هي اللعبة يا صديقي. . يصنعون الفرعون. . يتيهون في حبه. . ينظمون له القصائد. . يتفانون في مدح إنجازاته. . يركعون ويسبحون بأنفاقه وكباريه. . يضعون صوره في بيوتهم قبل قلوبهم. . ينظرون إليه بأطراف أعينهم بانتظار لحظة السقوط. . وفي النهاية ينفجرون في الضجيج احتفالاً بنهايته»، سمعها من الشيخ يحيى يوم سقوط الطاغية العجوز. . لعن الله كليهما، أحدهما خرب البلاد والآخر دمّر مستقبله. .

آخر خزانة رصاص لديه. . لا يدري لم لم يُلقي سلاحه بينما يُطبقٍ عليه رجال العمليات الخاصة، استمر يطلق رصَاصاته بينما يمد قدمه محاولا جذب سلاح مُلقى بالقرب منه بجوار جثة لشاب عشريني نُسفت ملامحه تقريبًا بطلقة قناص. .

«اثبت وارمي السلاح». . صرخ بها أحد الضباط وهو يقترب منه محذرًا بينما زملاؤه ينتشرون حول الجثث المتناثرة يبعدون أسلحتها بأقدامهم ويتقدمون. . لا فائدة. . لم تعد هناك جدوى. . سيحاكمونه ثم يعدمونه. . لا داعي لإطالة الوقت إذن. .

«الطلقة اللي هتقتلك مش هتسمع صوتها». . لم يتذكر متى سمع هذه الجملة؛ فقط رفع سلاحه للمرة الأخيرة متجاهلاً التحذير وهو يلعن الشيخ يحيى للمرة الأخيرة. . لا يدري هل لمح رأفت يلتقط بعض الصور أم أن ذلك الوميض كان للطلقة التي اخترقت رأسه.

***

٦١

«أهلاً صفوت باشا» . .

قالها سكرتير الأمير رأفت في احترام وهو يُصافح صفوت أمام باب القصر مُشيرًا إليه «سموّ الأمير في انتظار سيادتك . . هو كمان مواعيده دقيقة» ، ابتسم صفوت وهو ينظر حوله كعادته «المواعيد جزء من شغلنا . . سموّه عارف كده» ، قالها وهمّ إلى داخل القصر فاستوقفه «أنا آسف . . اعذرني سيادتك» ، ارتفع حاجبا صفوت في دهشة مُتساءِلة فأشار إلى مرافقه «ممنوع الحراسة أو الأسلحة جوّة . . دي تعليمات سموّه» ، نظر حارس صفوت إليه في عصبية ولكنه أشار إليه ليهدأ والتفت إلى الرجل «لكن أنا تعليماتي . . » .

«عيب يا طلعت . . الضيوف كلهم يدخلوا» ، ارتقع صوت الأمير الهادئ من مكبّر صوت صغير بجوار الباب فتغيرت ملامح الرجل وأسرع يُفسح الطريق «اتفضلوا» . قادهم سريعًا في طرقات القصر حتى توقف أمام مكتب الأمير ودقّ بابه في احترام وتنحى جانبًا وهو يفتحه «اتفضل سيادتك» .

تحرك صفوت بثقة وذهنه مشغول بابنة الرجل الذي سيقابله بعد لحظات ، لم يتصور أن تلك الساحرة ذات الاسم الفارسي والملامح الهادئة سوف تخلب لُبّه إلى هذا الحدّ ، عاد ذهنه إلى اليوم التالي للحفل عندما ظلّت صورتها مُعلقة في ذهنه طيلة الطريق إلى مكتبه ، لأول مرة لم يُبالِ بتحيات كل المُحيطين به ، كان يرد سلامهم بهزة رأس تُذكّره بهزة رأسه لَتحيتها ، دخل حجرته وجلس على مكتبه الفاخر بينما مُساعده الشاب يتحدث فيما بدا له كلام فارغ ، فقاطعه «كفاية . . ماليش مزاج دلوقتي» ، صمت الشاب فورًا وغيّر حديثه «شكل سيادتك مش رايق . . فيه حاجة بخصوص معالي الوزير؟» ، سأله الشاب فنظر له بغضب دفعه للتراجع للوراء «أنا قلت حاجة

غلط يا فندم»، أشار له بالصمت وأغلق عينيه ثُم عاد يفتحهما والتفت إليه «فيه بنت كانت في الحفلة اللي رحتها مع معالي الوزير».

«مالها يا فندم؟».

«هدي لك اسمها.. عايز أعرف كل حاجة عنها من يوم ما اتولدت».

«اتفضل يا فندم»، قطع الرجل ذكرياته فابتسم صفوت ودخل بهدوء متأملاً حجرة المكتب الفاخرة التي تمتلئ بالتماثيل النادرة وأمهات الكتب، لمح الأمير انبهاره فنهض من مجلس لمصافحته وابتسم«il.. bienvenue est le plaisir de vous voir"، وأشار إليه بالجلوس على الأريكة "ما بحبش الرسميات.. خلينا نقعد هنا".

"اللي تشوفه سموّك"، قالها في نفاق واضح وهو يجلس منتصبًا فضحك الأمير "استرح.. مش بتقولوا كده برضه"، ابتسم صفوت مُجاملاً فغمز له الأمير "ولّا المكتب بتاعكم ما بيطبّقش الميري"، قالها وضحك فشاركه صفوت ضحكاته "معلومات سموّك غزيرة جدًّا"، عاد الرجل يغمز وهو يُشعل سيجاره الفاخر ويُعطيه واحدًا "أنا كنت مُشرف على الأمن في قصر مولانا، يعني الوزير بتاعك كان واحد من رجالتي.. مش بس هو". اقترب منه أكثر وهمس "الرئيس بتاعك نفسه كان في الحرس الحديدي.. تعرف ده".

"إحنا بنتعلم لسّه".

"وأنا أحب اللي عايزين يكبروا بسرعة.. علشان كده وافقت أقابلك"، قالها ونهض مُشيرًا إليه "أنا كمان زي السادات.. مابحبش أتكلم في حاجة مهمة غير وأنا بتمشى"، بدت دهشة صفوت على ملامحه وهو يسير معه إلى الحديقة فابتسم الأمير مُستعرضًا "البيزنس بتاعنا مش لبن أطفال.. إحنا بنتعامل مع الملوك. تفتكر لو أنا مش هعرف كل ده يبقى هقدر أتعامل معاهم".

"بالتأكيد"، عاد صفوت يُنافقه، فأشار إلى مجلسه المُفضل في الحديقة ليجلسا وواصل حديثه "أنا مثلاً عارف كويس إن صفقة السلاح اللي عايزين تخلصوها من أميركا مش هي السبب اللي جابك، الصفقة

مُنتهية. . دول هيبيعوا. . دول هيشتروا. . أنا والوزير بتاعك هناخد حصتنا. . خلصت".

"اسمح لي بس أأكد على سموّك بس بعض التفاصيل".

"ما تقلقش"، ابتسم وهو يُعيد إشعال سيجاره "لو كان جلالة الملك الله يرحمه كان عرف حاجة عن صفقات الأسلحة بتاعة حرب فلسطين، اللي أنا خلّصتها، أو السادات بتاعك عرف الصفقات اللي بتخلصوها لشاه إيران، يبقى الصفقة دي هتتعرف". أدرك صفوت أنه أمام عقلية جبارة فعاد يُحني جبهته "تمام. . اعذرني سموّك". صمت الأمير برهة وهو يتفرس ملامحه ثم باغته "شكلك مش عبد المأمور زي ما هم فاكرين. . أنت طموح". ارتبك صفوت فأشار إليه باستحسان "ده عظيم. . أنا أحب ده".

واصل صفوت صمته وهو ينظر إلى الأمير الذي تحدث وكأنه لا يراه "أول ما شيرين كلمتني عنك كنت أذكى من أي واحد في العيلة. . ما وقفتش وصرخت زي الأفلام اللي عملتوها عننا، ولا قلت يعني إيه حفيدة محمد علي باشا تتجوز فلاح لمجرد إن على كتفه دبورة". بدت ملامح الغضب على صفوت ونفث دخان سيجاره لإخفائها عن الأمير الذي ضحك بسخرية "دي مش إهانة يا صفوت بك. . ده وصف. ما تزعلش، لو حد له حق يزعل يبقى أنا. بمنطق أفلام الستينات لازم أقولك خرسيس نرسيس وأدوّر على الكرباج اللي مع عبد الصمد"، عاد يضحك وهو يُشير إليه بالهدوء "لكن أنا راجل عاقل وعارف إن الزمن بيتغير. أهمّ حاجة عندي إني أفضل على القمة".

"وسموّك ناجح جدًّا في ده"، قالها صفوت بإعجاب واضح بدون نفاق فهز الأمير رأسه "وعلشان أنت ذكي فعلاً زي ما سمعت عنك بقى عندي أسباب كتير خلتني أوافق إني أقابلك"، انحنى صفوت في نفاق "ده شرف ليا سموّك".

"خلينا نزوّد الشرف ده. . خليني أحكي لك عني شوية"، أشعل سيجاره الثاني واسترخى أكثر في مقعده "لمّا عملنا صفقة الأسلحة أيام حرب فلسطين، واكتشفت الخدعة اللي عملها الوسيط الإنجليزي، حسيّت إن فيه

حاجة هتحصل. الحملة الصحفية اللي كانت واسعة ساعتها خلت غضب مولانا شديد، وقتها أخت مولانا، الإمبراطورة فوزية، اللي اتجوزها الشاه نصحت مراتي، اللي كانت وصيفتها في مصر، إننا ننقل كل حاجة تخصنا لدول تانية تحسبًا من أي أمر ملكي غاضب. صحيح الموضوع عدّى وفيه ناس شالت الموضوع، لكن النصيحة فضلت في دماغي"، صمت لحظات نفث فيها دخانه وتابع "بعدها بدأت أشتغل مع حكومة الشاه، ومن الحكومة دي لحكومات غيرها، البيزنس بتاعي كان بيكبر يوم ورا التاني، اتعلمت سمسرة السلاح الدولية".

"عظيم"، قالها صفوت بحماس، بينما تجاهل الأمير التعليق وتابع "ولمّا البكباشية بتوعك نطّوا على البلد وخدوا كل حاجة كنت وقتها خلّفت بنتي الكبيرة، بيرهان، تعرف معنى الاسم؟"؛ ابتسم بخبث وكأنه توّقع السؤال "الحسناء الملائكية، ده اسم فارسي".

"بالضبط.. يا إما أنت مثقف زي ما شيرين قالت لي أو شكلك مذاكر قبل ما تقابلني. المهم، كانت وش الستر عليا زي ما أنتم بتقولوا. فضلت سنين محافظ على وضعي المادي. اتعاملت في صفقات عادية تحفظ لي الوضع ده"، صمت لحظات وأشرق وجهه "لحد ما خلّفت شيرين". ابتسم صفوت لدى سماعه الاسم فقال "الفتاة الجميلة، برضه اسم فارسي".

"وضيف لمعلوماتك أنه نوع من الحلويات الفارسية كمان.. شيرين بقى كانت وش الرزق، أول ما جت جالي معاها صفقات خرافية وعلاقات واسعة. ملوك العالم كلهم بقوا تحت إيدي"، تنحنح صفوت مُبتسمًا "مع احترامي سموّك.. الملوك مش كل حاجة".

"ذكاءك واضح، لكن في غير محله المرة دي"، بدت نظرة متساءلة في عيني صفوت لكنه اكتفى بالصمت منتظرًا تفسير الرجل "أنا بتكلم على الملوك الحقيقيين.. الناس اللي في إيديهم الحل والعقد.. رجال أعمال، رؤساء حكومات، وزراء زي الوزير بتاعك؛ دول بقى معاهم انفتح لي باب الدنيا. علشان كده قررت إن شيرين بالذات مش هجوّزها لأي حد"؛ قالها ونهض "لكن بصراحة أنت أبهرتها. شفت في عينيها أنك مش لعبة

ممكن تسليها شوية وبعدين تزهق، تابعت الموضوع وفضلت ساكت، من أول ما ظهرت لها بعد الحفلة اللي عرفناك فيها لحد ما كنتم سوا في نادي السيارات إمبارح. لمّا رجعت وقالت لي إنها عايزة تتجوزك كنت جمعت كل تفاصيلك".

"يعني.."، تساءل صفوت في حذر فابتسم الرجل "حافظ على ذكاءك.. شوف.. مفيش أسرة زي محمد علي تاني، لكن زي ما كنا بنحكم السراي الدنيا دارت، وبقيتم أنتم بتحكموا القصر الجديد. اللي زيك باشاوات العصر. بكره تكبر وتبقى مكان الوزير بتاعك.. علشان كده أنا موافق"، قالها ونهض يُصافح صفوت المبهوت أمامه "مبروك يا زوج بنتي"، مد صفوت يده ليُصافحه فأوقفه "آه.. شرط مُهم. انسى أبوك البوسطجي. أنت دلوقتي عايش وسط أعلى طبقة في مصر، وفي المستقبل هتكون من صفوة العالم كله".

"مبروك عليا سموّك".

***

"وتقترب المواجهة بعد أحداث الأمس. . سيسعى المضللون لتشويه من تبقوا من أبطال الملاحم ضد العسكر، حتى بعد ما فعلوه من المساندة للإطاحة بحكم الجماعة الحمقاء ورئيسها الذي لم يستحق البقاء على عرش مصر ولو ساعة. ستُقام المحاكمات، ويتم التشهير بهم وتجريدهم ومحاولة إفناء أفكارهم، كما فعلت الكنيسة وشيوخ السلطان في العصور الوسطى. سيتم تصويرهم كظل الشيطان في الأرض حتى لا يجدون أذنًا صاغية. وفي النهاية، ومهما اختفى من تبقوا من تلك الأيام، ستنتصر الفكرة ويعود للثوار اعتبارهم.

ويقترب العنف من جولته الأخيرة، فبينما يقوم كل طرف بتعبئة قواته تزداد حكايات الأزقة سخونة يومًا بعد الآخر. الحرافيش الذين ملّوا من البحث عن "عاشور" قرروا أن يكونوا جميعًا "عاشور" عملاق لا قِبل لأحد به. . ربما بعد انقضاء هذه الهوجة قد نرى الفتوات وهم يتفرقون مرة أخرى في الأزقة باحثين عما يستر عوراتهم بعيدًا عن زيهم الرسمي. . تمامًا كالمرة السابقة أو أشد ضراوة.

أما الخونة فقد نالوا نصيب والي عكا بالفعل، وقبل حتى أن تنطلق الرصاصة الأولى. هذا ما رأيناه بأعيننا جميعًا".

أنهى أكرم ما يكتبه مع الرشفة الأخيرة من كوب الشاي على المقهى، نظر إلى المقعد الفارغ بجواره وتذكّر يوم جلس يشكو إلى فؤاد آلامه من فرح التي هجرته دون أسباب. الآن فؤاد مختف ولا أحد يعلم موضعه، استحضر ذلك اليوم واعتصر قلبه وأسرع يُلقي بالسحاب إلى النادل ويلملم أشياءه ويغادر المكان.

في طريقه مر بمحل الورد الذي اعتاد أن يأتي لفرح منه، كانت المرة

الأخيرة عندما صدمته بالانكسار الأول، يومها استطاع كبح دموعه لفترة محدودة مكنته من الذهاب لإحضار باقة من الورود التي تحبها. عاد يطرق بابها مرة أخرى رغم أنها طلبت منه ألا يعود إلى شقتها الصغيرة أبدًا. عندها فتحت الباب باندهاش لتجده يمد يده بالورود في الوقت الذي أفلتت منه دمعتان "مهما حصل بينا.. كل سنة وانتي طيبة.. النهاردة عيد ميلادك يا فرح". عندها لم تصدق ما فعله وقفزت إلى حضنه سريعًا. كانت عودتها مؤقتة، لكنها منحته في تلك الأيام ما يفيض من العشق لبقية حياته.

توالت الذكريات الحزينة وهو يدخل مكتبه في الجريدة ببطء. ألقى التحية على رفاقه، وجلس ليرسل ما كتبه سريعًا، ثم جلس بعيدًا نحو النافذة التي تطل على الشارع المزدحم. لم يشعر بألم في قلبه كما يحدث الآن. فقدانه فتاته واختفاء أقرب أصدقائه مكن منه الضعف الذي جعله عاجزًا حتى عن القيام من مقعده، بدت أنفاسه البطيئة وكأنها الأخيرة.

كان شريط الذكريات يمر بأقصى سرعة، بل جاءه لأول مرة الشعور بأن "روحه بتروح" كما كانت والدته الراحلة تردد. عاد يتذكر الحنين والضعف أمامها.. طاقة الحب التي كانت موجودة، والتي عصفت بها بكلمات بسيطة.. أحلامه التي احترقت.. روحه التي تنزف بلا انقطاع منذ الاتصال الأخير. دار بذهنه تعليق فؤاد الساخر بأن لسانه الطويل أصبح ثقيلاً لا يقوى حتى على رد السلام؛ يومها حاول الجدال معه فوجد منه جدية مفاجئة لم يدرِ سببها "كل يوم بيكون نفسك إنه يبقى مختلف.. أي تغيير ولو بسيط هيفرَق جواك.. مكان مش متعود عليه.. ناس جديدة.. بتبقى عايز تضحك بس الجمود اللي حواليك بيقتل الضحكة.. ساعات تسرح بدماغك في حاجات عارف إنها مش هتحصل، وأنت نفسك شايف إنها مجرد خيال.. تكلم حد واحشك صوته.. تبتسم من موقف عدى.. تغمض عينيك وتحضن حب قديم.. ساعات بتكون عايز تغير حياتك بالكامل.. لكن لا بتغيرها.. ولا عارف ترجع زي زمان".

"آه والله يا صاحبي. يا ترى أنت كمان رحت فين!"، همس بها بخفوت وتحامل على نفسه لينهض، خرج من الباب في شرود، حتى إنه لم

ينتبه إلى مريم التي ارتطم بها "ما تحاسب يا عم"، قالتها بمرح ثم نظرت إلى ملامحه بقلق "مالك يا أكرم؟".

"سلامتك.. تعبان شوية بس"، أجابها بصوت خافت وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة فأمسكت بيده "أنادي لك على الدكتور؟. كان لسه هنا بيطمن على إصابات رأفت وحسام"، هزّ رأسه نافيًا وسألها "هم مالهم؟".

"كانوا بيغطّوا عند جامع الفتح.. بس حاجات بسيطة الحمد لله".

"حمدلله على سلامتهم.. ابقى سلمي لي عليهم".

"طيب أنادي لك على جميلة؟. هي جوة في التنفيذ"؛ ربت على كتفها بهدوء "مفيش داعي"، قالها وحاول السير لكن قدميه خانتاه فسقط على الأرض، أطلقت مريم صرخة فزعة فهرع إليها الموجودون. فجأة برزت جميلة من وسطهم ورفعت رأسه عن الأرض وأسندتها إلى صدرها وهي تصرخ "حد يجيب دكتور". أسرعت مريم إلى الطبيب، والجميع يحاولون الاطمئنان عليه وفي الوقت نفسه تركوا مساحة ليلتقط أنفاسه. نظر إلى جميلة بضعف وابتسم ابتسامة باهتة "شكلي ضحكت عليكي ومش هلحق أدفنكم كلكم".

"بس يلا مفيش الكلام ده.. أنت شربت كتير ولّا إيه؟"، هز رأسه نافيًا بضعف "ولا جيت ناحيته.. إحنا في نص الشهر يا هبلة"؛ ضحكت لتغلب قلقها ولكن سقطت منها دمعة على وجهه فحاول رفع يده "لأ.. إيه الشغل الرخيص ده.. أنا تمام". حاولت دفعه لينهض "طب قوم معايا"، هز رأسه بضعف "دي محطتي.. أنا عارف إني نازل هنا".

"هتسيبنا!.. عمرك ما كنت بالقسوة دي"، قالتها وبدأت الدموع تسيل من عينيها فحاول أن يمد يده ليمسحها "يوم ما خسرتها عرفت إن لا يمكن هكمل أو هكون زي الأول. مكنش عندي أغلى منها. يومها قسوتها علمتني أكون كده".

ساد الصمت بين الجميع بعد عبارته، أشار لجميلة لتقرب رأسها منه ففعلت ليهمس "دوّري على الواد فؤاد ولّما يرجع خلي بالك منه. ده عيّل أهبل ولازم حد يسيطر على جنانه، وابقي قولي لفرح إن وجودي مش

هيضايقها تاني. وأنتي عارفة أنا عايز أقول لك إيه. هتوحشيني يا أجمل جميلة".

"وسّعوا للدكتور"؛ ارتفع صوت مريم بالعبارة وهي تزيح رفاقها الذين رفعوا رؤوسهم نحو الطبيب، جلس الرجل على ركبتيه ونظر لوجه أكرم الذي خلا من الحياة ثم رفع عينيه إلى جميلة "شدي حيلك".

***

في الساعة الثانية من صباح الخميس 3 سبتمبر 1981، شنت مباحث أمن الدولة حملة واسعة للقبض على النشطاء المعارضين للرئيس الراحل أنور السادات، وداهمت منازلهم. شملت الاعتقالات التى استمرت طوال الشهر قائمة من أبرز الشخصيات السياسية والثقافية والقانونية المعروفة من التيارات الفكرية والحزبية المختلفة.

تقارير صحفية

كان الانقضاض من خلال حملة اعتقالات واسعة شملت 3 آلاف شخص، وكانت بعض الاعتقالات بين صفوف الشباب من الطلبة وأعضاء الجماعات الدينية سهلة نسبيًّا، لكن اعتقالات الساسة والمثقفين وعدد من القيادات الدينية من المسلمين والمسيحيين، جرى تخطيطها بعمليات شبه عسكرية.

محمد حسنين هيكل– خريف الغضب

الاعتقالات الواسعة التى قام بها السادات ضد خصومه من كل القطاعات أعطت انطباعًا بأنه يفقد السيطرة على الموقف بصورة أكبر من تشديد قبضته، وتعتبر بداية النهاية لعصر السادات، حيث لم يمر شهر على تلك الاعتقالات التى طالت ما لا يقل عن 1536 من رموز المعارضة السياسية فى مصر، إلى جانب عدد من الكتاب والصحفيين ورجال الدين، حتى لقى السادات حتفه على يد خالد الإسلامبولى ورفاقه فى حادثة المنصة.

جوزيف فينكلستون – السادات.. وهم التحدي

«وصلنا يا فندم» . .

قالها سائق صفوت باحترام بالغ وقائد حرس بوابة الوزير يقترب من السيارة مُلقيًا نظرة روتينية عليه ثُم يُشير إلى جنوده لفتح الباب، اعتدل صفوت في مقعده وهو ينظر إلى ساعته ويهز رأسه كما يفعل الوزير دومًا. ثوانٍ أخرى وتوقفت السيارة أمام المبنى الرئيسي وفتح حارس آخر الباب، غادرَ السيارة متلفتًا حوله كعادته ثم دخل بصحبة الحارس إلى الداخل.

كان وقع خطوات قدميه الواثقتين يدوي في ممرات المبنى بينما يُشير إليه العاملون بالتحية، وصل إلى مكتب الوزير وتجاهل الباب الذي يؤدي إلى مدير مكتبه وتقدم خطوات إلى الباب المباشر الذي يقف أمامه الحارس الخاص «معاليه فاضي؟»، سأل الحارس الذي دق الباب مرتين باحترام وهمس وهو يفتحه «وفي انتظار سيادتك».

دخل صفوت بخطواته العسكرية المنتظمة فضحك الوزير وهو يُشعل سيجاره الفاخر «يابني بقالي سنين بقول لك فُكّها . . إحنا بره الميري»، أبطأ خطواته وهو يُحني رأسه في نفاق حتى توقف أمامه «تمام معاليك . . إحنا طول الوقت بنتعلم من سيادتك»، غمز الوزير ساخرًا وهو يكشف تملقه الفاضح «عملتها قبلك . . اقعد».

جلس صفوت منتبهًا فأشار الوزير إلى ملف رابض أمامه «أنت عارف الظروف وأجواء التحريض اللي شغّالة ضد الريس اليومين دول، خصوصًا من بعد ما رجعنا من كامب ديفيد»، هز صفوت رأسه مؤمنًا دون أن يُجيب، تابع الوزير بدوره وكأنه لا ينتظر تعليقًا «كان ضروري إن أجهزة الأمن تعمل موجة الاعتقالات اللي حصلت الأيام اللي فاتت دي، التقارير اللي قدامي بتأكد إنهم المحرضين على التوترات والتمرد في الشارع».

«اسمح لي معاليك . . عملوها قبل كده في مشكلة يناير وفي الآخر المحكمة قلبتها على دماغهم وضحّكت الناس عليهم . . كان شغلهم كلام فارغ» .

«فارغ!» ، رددها الوزير بدهشة تحمل لمحة من الغضب فتراجع صفوت «قصدي معاليك إن التحريات كانت سريعة وغير دقيقة . . كمان مكنش فيه معلومات عند أي جهاز أمن بوجود كيان أو تنظيم قادر على تحريك كل الناس اللي نزلت دي . . أمن الدولة افترضوا إن الموضوع ده يتلم بالطريقة دي ومشيوا ورا فرضيتهم . لكن لو تسمح لي ، ده شغل ناس عايزين يقفّلوا ورق وخلاص» .

«برافو» قالها الوزير وهو يُصفق في بطء ويُشير إليه باستحسان «كلامك مظبوط مية في المية . . واضح إن الجواز من بنت البرنس رأفت خلاكٍ تهتم بالشغل وتفاصيله أكتر» ، ابتسم صفوت في خجل فغمز له الوزير ضاحكا «هي البنت طلعت نكدية ولّا إيه» ، ضحكا في مرح ثم عاد الوزير إلى حديثه «تحليلك للموقف بيقول إنك درست الموضوع بدقة . . علشان كده أنا بعت لك» .

«تعليمات معاليك يا فندم» .

نهض الوزير فانتفض صفوت واقفًا ، بدأ يتحرك في أرجاء الحجرة وهو ينفث دخانه «فيه شغل جديد وكلام جديد بعد ما نستلم الأرض» . عاد يلتقط الملف ويُعطيه لرجله «هنحتاج نصفّي ناس كتير المرحلة الجاية . مش عايزين بعد كده جو نظرية المؤامرة والخرة ده ، عايزين نخلص الحاجت المهمة اللي ورانا . الدستور اتعدل وممكن الريس يكمّل رغم إنه قال لي إنه عايز يتقاعد بعد ما الأرض ترجع» .

«بس ده مش هيتسبب بموجة غضب سيادتك؟» ، تساءل صفوت فنظر إليه في صمت لبرهة «بتقرا لنجيب محفوظ؟» ، سأله وهو يعود لمقعده فتنحنح صفوت «أحيانًا» ، أشار الوزير إليه مُنبهًا «لازم تقرا كتير وبكل اللغات اللي تعرفها ، ده مهم . دايمًا تقدر تلاقي المستقبل واللي يفيدك في الكتب» ، أومأ برأسه موافقًا ليستكمل الوزير «فاكر الرواية اللي اتمنعت علشان ما تزعلش الأزهر ، والريس جمال طيّب خاطر الراجل بكلمتين بعدها» .

«أولاد حارتنا؟»، أجابه سريعًا فابتسم الوزير مستحسنًا وتابع «كان فيها جملة مهمة أوي تنفع تتحط في الدستور بتاعنا. آفة حارتنا النسيان. كل الناس بتنسى أي وكل حاجة مع الوقت.. شوية قرارات جديدة على لخبطة في يومهم وهتعدي. مش فارق هنا مواطن من مسئول. طالما كله تحت سيطرتك يبقى هتعدي. المهم أنك تاخد بالك وأنت بتعمل ده».

«تمام معاليك»، قالها وسرح ذهنه في ماهية السيطرة التي يعنيها أستاذه. بينما في الوقت نفسه كان يُدرك أن الامتثال للأوامر هو خطيئته وفضيلته العظمى في الوقت ذاته. السلم الذي ارتقى به إلى هذا الموضع بعدما ترك الضمير في قبره مستسلمًا لكل ما يُملى عليه من رؤسائه حتى وصل إلى أكبرهم. هي الطريقة نفسها التي صعد بها الجالس أمامه. صار وزيرًا بعدما قضى أكثر من عقد في خدمة الأوامر، وكان مبلغ إعجابه به هو أنه لم ينسَ أبدًا أن تنميته لنفسه وقدراته هي ما جعل السادات يصطفيه وزيرًا. لا بد وأن هامان الذي استولى على عقل فرعون مصر كان بدوره يشغل حجرة مكتبه يومًا كما يحلم هو الآن بشغل هذه الحجرة الفاخرة.

«رحت فين يابني؟.. أنت معايا؟». اقتحم صوت الوزير أفكاره فأعاده إلى عالم الواقع، شد قامته وهو ينظر إليه «بالتأكيد يا فندم»، ابتسم الوزير في خبث وقد لاحظ نظرته الشاردة إلى مقعده «أنت ما سألتش نفسك قبل كده ليه اخترتك؟».

«ليا الشرف يا فندم».

«أنا بسأل عن السبب»، صمت صفوت وهز رأسه في حيرة فأطلق الوزير ضحكة عالية وهو يُجيبه «علشان أبوك بوسطجي». زادت حيرته أكثر وقابلت نظرته المتساءلة نظرة حنين غير مفهومة من الوزير الذي أسرع ونفض ذكريات الماضي عن رأسه «المهم.. ركّز معايا في اللي هقوله لأن مفيش وقت». أحنى صفوت رأسه في احترام «تمام يا فندم.. اتفضل»، قالها وبدأ يستمع إلى وزيره الذي استفاض في شرح خطة الأيام القادمة. كان يؤمي برأسه مؤمنًا، بينما عيناه مُعلقتان بالكرسي المميز الذي يحكم صاحبه فرعون مصر. بدت له الأيام القادمة وكأنها تحمل في طياتها الكثير

مما يخشونه، لكنه في الوقت نفسه أيقن من أن الثعلب الجالس أمامه يستحق كل ما هو فيه من سلطة لم تتوافر لأحد قبله.

غادر صفوت الوزارة واتجه إلى منزله الجديد الذي حصل عليه كمكافأة لزواجه، دخل غرفته فوجد ورقة من شيرين تُخبره بأنها اصطحبت الخادمة وذهبت لرؤية أبيها الذي داهمه المرض مؤخرًا، مزّق الورقة في لا مُبالاة وقام بتغيير ملابسه. تحرك للخارج وحانت منه التفاتة إلى موضع شجارهما الأخير، ابتسم وهو يتذكر نبرتها المتعالية وهي تصرخ بانفعال «أنا حفيدة محمد علي باشا»، فجأة تعالت ضحكاته في الردهة الخالية وهو يتذكر مواءها كقطة وتأوهاتها الصارخة وهي تتلوى عندما يُمارسان العلاقة التي تتنافى مع عنجهيتها «بنت الكلب خدامة سرير»، قالها لنفسه وهو يلقي بجسده على الأريكة الفاخرة التي أهداها له الوزير من مقتنيات الملك السابق. مد يده إلى المطفأة الضخمة والتقط بقايا السيجار الذي تركه الأمير السابق في زيارته الأخيرة قبل اشتداد مرضه. تشممه ثم أخرج ولاعته الذهبية التي أهداها له يوم زفافه.

في تلك الليلة أعطاه الأمير سيجارًا كهذا وأشعله بها وابتسم «علشان تستمع بالحاجة لازم تقدر قيمتها وتديها اللي يليق بيها. السيجار الفاخر ده بيطلع للملوك وحاشيتهم من أسياد العالم. بس علشان تستمتع بقيمته لازم تولعه بولاعة زي دي».

«تمام سموّك».

«علشان كده جوزتك بنتي»، قالها وأشعل سيجاره بدوره ونفث دخانه «كتير من العيلة اتبهدلوا واتمسحوا من الوجود لأنهم ما عرفوش يشتروا ولاعة بقيمتهم»، نظر في عينيه الرماديتين دون أن يجيب فأطفأها ووضعها في يده «خلي دي معاك علشان ما تنساش».

نفض عن ذهنه الذكرى وجلس مُستمتعًا بلعبته الجديدة، التلفزيون الملون، وهو يُشاهد خطاب السادات في مجلس الشعب، ورغم أنه امتنع عن متابعة خطاباته بعد توقيع كامب ديفيد في غير التقارير التي ترد إليه يوميًّا، فإن حركة الاعتقالات التعسفية التي أجراها في الأيام الأخيرة دفعته

لمعرفة ما سيقوله الداهية العجوز.

منذ الدقائق الأولى أدرك أن الرئيس المؤمن قد فقد أعصابه، وأن النزعة الفرعونية قد تملكته حتى باتت تهديداته أشبه بعم سعيد، الرجل الذي كان يؤرق طفولته ويقف مُهددًا من يلعبون بالكرة أمام محله العتيق، بدا له بوضوح أن الزعيم يخدع نفسه قبل شعبه بكلماته الرنانة، وأن الجميع يعلم أن ما يحدث ليس سوى تصفية حسابات بينه وبين من عارضوا السلام مع إسرائيل، فلا خونة ولا متآمرين، وإلا كان هو نفسه استمتع بإحالتهم للقضاء، خطر له ساخرًا أن الرئيس يكاد يقول للناس «أنا ربكم الأعلى» بعد أن فعل كمن سبقوه واستغل أوج مجده ليصنع هزيمته، دار بذهنه أن هذا تمامًا كما فعل محمد علي وعبد الناصر من قبله، وأن كليهما بدأ الانهيار في قمة العظمة. لم يستطع إكمال الخطاب، أغلق لعبته وقام ليصنع عشاءه بنفسه مُغمغمًا «الراجل ده اتجنن.. بيحفر قبره بكلامه».

***

«حلوة دي أوي» . .

قالتها إحدى رفيقات صفوت وهي راقدة بجواره في السرير تتأمل أسورة ماسية، ابتسم في تفاخر وأشار إليها «عجبتك؟» .

«أوي!» .

«دي كانت بتاعة واحدة من حفيدات محمد علي . . بس اعتبريها بتاعتك» .

«بجد يا بيبي»، قالتها وهمّت باحتضانه فمد يده ليُبعدها «بيبي دي تقوليها لجوزك وهو جايب فستان من أسبانيا من بواقي مراته التانية . . كويس إني مخليكي تقولي لي يا صفوت من غير ألقاب» . نظرت له ولنفسها في دهشة وهمّت بالحديث فأكمل «حتى لو كنا في سرير واحد . . أوعي تنسي نفسك . . أنتي هنا علشان مزاجي . فاهمة؟» . أومأت برأسها إيجابًا في انكسار فربت بيده على خدها «ما تزعليش . . بس حتى وأنا جواكي لازم تفهمي إن فيه فرق كبير أوعي تفكري في يوم وتعديه» .

نهض من السرير وارتدى سرواله القصير، ثم التقط علبة سجائره المحشوة وأشعل إحداها وهو ينظر لجسدها البض «بس ده ما يمنعش أنك عاجباني لدرجة إني جبتك البيت هنا . . الطبيعي إن فيه ألف مكان أعمل فيه ده . لكن علشان بينك وبين نفسك تحسي إن ليكي ميزة عن أي واحدة نمت معاها» .

«ربنا يخليك ليا وما يحرمنيش منك» .

«ولا من الهدايا اللي بجيبها لك . . مش كده؟»؛ قالها ونفث دخانه وضحك بشدة ووجهها يمتقع . تجاهلها وجلس على مقعده المفضل في الغرفة ووضع ساقًا فوق الأخرى، بدا عليه التفكير فاحترمت صمته وهي تنظر إليه

بمزيج من الخوف والازدراء، جال بذهنها أن تغادر السرير بدورها وتذهب إلى الحمام لكنها خشيت أن تقطع تفكيره.

دقائق طويلة من الصمت بدت لها كساعات حتى التفت إليها صفوت «تعالي»؛ أسرعت تلف جسدها بالملاءة وذهبت لتجلس على حجره مبتسمة، نفث دخانه في وجهها وأعطاها السيجارة «تفتكري اللي زيي لو فكر يستقيل ممكن يشتغل إيه؟».

«مصر كلها تتمنى وجودك معاهم».

«مش عايز كدب»، قالها بصرامة جمّدت الدم في عروقها وتابع «ما هو إما إنك بتكذبي وبتعرصي لي، وده مش لايق عليكي، يا إما أنتي غبية فعلاً ومش فاهمة إن كل اللي أنتي شايفاه ده هيبقى ولا حاجة بمجرد ما أكتب ورقة استقالتي».

«بس علاقاتك».

«مبنية على الخوف»، قاطعها سريعًا وأكمل «كل حاجة شايفاها أو سمعتي عنها مبنية على الخوف، كل الناس خايفة. حقهم.. واحد بإشارة يحرّك أكبر بلد في المنطقة، يقدر يذل تسعين مليون أو يخليهم يباتوا مبسوطين. تفتكري من غير القوة دي أنا أسوى حاجة». أغلقت فمها واكتفت بتدخين السيجارة خشية أن تقول ما يُغضبه، ابتسم بسخرية وتابع «أنتي نفسك بتيجي هنا خايفة.. الخوف هو اللي جايبك قبل الطمع. بتنامي معايا وخايفة ما انبسطش علشان ساعتها هارميكي وأجيب غيرك. ولو رميتك يبقى مالكيش لازمة في الدنيا».

واصلت صمتها وهو يُشعل سيجارة أخرى نفث دخانها بعيدًا هذه المرة، ربت على مؤخرتها بلطف فنهضت لينهض بدوره وهو يُشير إلى حمام الغرفة «أنا عارف أنك عايزة تاخدي حمام.. قومي اعملي اللي يعجبك.. أنا هنام لحد ما تخلصي».

تحركت إلى الحمام وعاد هو إلى السرير ببطء مستمرًا في تدخين السيجارة التي بدت له أثقل من المُعتاد، خطر له أن تاجر المخدرات الذي يرسل له بضع قطع فاخرة شهريًا قد أصابه الخبال وأرسل حشيشًا فاسدًا

فهمس «لو ما صلحش غلطته هجيب له إعدام» .

مرت ساعة حتى خرجت المرأة من الحمام ، نظرت إلى صفوت الذي بدا نائمًا في عمق ، حاولت مناداته بصوت خافت خشية ردة فعله «صفوت . . صفوت» ، قالتها بهمس ثم بدأ صوتها يعلو شيئًا فشيئًا؛ ترددت أن تهزه ليستيقظ ثم تذكرته أنه أمرها بإيقاظه ، دفعته مرتين فبدا كجوال خالٍ . ترددت مرة أخرى ثم أمسكت معصمه الأيسر .

«أخيرًا» .

قالتها وهي تُطلق زغرودة خافتة ، عادت تهز جسده لتتأكد من وفاته ثم بصقت على جسده العاري «روح يا شيخ الله يلعنك . . إلهي توصل جهنم بأسرع من أذيتك للناس» ، أطلقت زغرودة خافتة أخرى والتقطت حذاءها ذا الكعب العالي وأخذت تضربه «دا أنت ياما شردت ناس وموت ناس بحسرتها . . كان لازم تموت كده زي الكلب لوحدك ولا حد يعرف . . غور» .

دقائق أخرى وغادرت المكان في كامل أناقتها . . ألقت ابتسامة ساحرة إلى الحارس الواقف في صمت «الباشا مش عايز حد يصحيه . أصله تعبان أوي» ، هز الرجل رأسه في فهم وأسرع يفتح لها باب سيارتها التي انطلقت بها سريعًا ، وهي تبصق على المنزل للمرة الأخيرة .

***

«أجرى السيد النبوي إسماعيل وزير الداخلية اتصالاً بالرئيس السادات، حيث قام بتحذيره من طول الطريق من منزله إلى المنصة، واحتمال أن تقوم مجموعة إرهابية من الهاربين المطلوب ضبطهم بالصعود على مبنى وإطلاق الرصاص والقنابل، أو تفجير الركب، لكن الرئيس طمأنه مؤكدًا أن الهاربين سيحاولون الاختفاء، خاصة بعدما تناولهم فى خطابه، لكن النبوي كشف للسادات عن أن أحد مصادره السريين التقى مقدم المخابرات العسكرية الهارب عبود الزمر، وعلم منه نية تنظيم الجهاد فى القيام بعمل كبير بعد اكتشاف أمرهم».

ألقى الوزير التقرير الذي ورد إليه بصورة عاجلة فجرًا وعاد ليرتشف قهوته. أثارت المعلومات التي وردت بالتقرير قلقه من تنامي هذه المجموعات المتطرفة التي طالما حذّر السادات من إتاحة الفرصة لهم للصعود بعد أعوام من الملاحقات. تذكّر سخرية الرجل منه عندما طالبه بإلقائهم في السجون مرة أخرى بعد أن استفحل أمرهم «وأجيب أنا حد مالوش مسكة يبقى مكانهم ويقف قدام العيال اللي لابسين قميص عبد الناصر من غير ما أسيطر عليه!.. جرى إيه يا صفوت.. قلنا أي حد يلعب سياسة لازم يكون بتاعنا.. وسّخوه وهاتوه.. أنت نسيت».

«ربنا يستر».

همس بها لنفسه وهو يرتدي ملابسه استعدادًا لحضور العرض العسكري. كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بهذا التوتر لدرجة أن يفكر في الاتصال بالرئيس والاعتذار عن حضور العرض، لكنه كان يعلم أهمية اليوم، خصوصًا وقد كشّر الرجل عن أنياب الديموقراطية بالفعل ولم يعد هناك مجال للتراجع. أنهى ارتداء ملابسه ووقف أمام أسلحته ليختار واحدًا

يرافقه في المناسبة؛ رغم مكانته الجديدة فإنه لم يتخلَ عن عادته التآمرية القديمة في الاحتفاظ بسلاح في حزامه تحسبًا للأزمات، فقط يتغير حجم السلاح حسب المناسبة التي يذهب إليها. تمنى لو استطاع الذهاب لفريدة أولاً كي تُخفف من توتره، راودته الفكرة فنظر إلى ساعته وأدرك أنه لم يعد لديه وقت ليفعل، زفر في ضيق وارتشف ثمالة قهوته.

دقائق وكان يهبط درجات منزله ليستقل سيارته الرسمية، بدأ يشعر بالضجر رغم إخلاء الطريق لموكبه وهو يتذكر كم السياسيين الذين ينبغي عليه مصافحتهم بعد قليل، تذكّر ساخرًا تعريفه للسياسي الذي قاله لصفوت الجديد عندما بدأ في تعليمه مهام وظيفته «السياسي حرامي نضيف شوية.. يلبس بدلة ويحط perfume.. يقول كلام شيك.. بس ياعيني تبص عليه من جوه تلاقيه يصعب على الكافر.. صفيحة زبالة عايشة جوه كيس بلاستيك شكله حلو". كانت دهشة الفتى في البداية تذكره بما مرّ به عندما بدأ عمله. لا يُنكر أن تعليماته آتت أُكلها بعد أشهر، فالآن صفوت الجديد لا يُشق له غبار، جالت في ذهنه فكرة ترقيته لكنه نفضها سريعًا، ربما دفعته الأيام المُقبلة لاستخدامه في نفس الموضع.

"وصلنا معاليك".

قطع سائقه أفكاره وهو يتوقف أمام المنصة، غادر السيارة سريعًا وخلفه بعدة خطوات عماد مساعده الأول، بينما ياور الرئيس يقوده إلى مقعده خلف السادات. أثار انتباهه قبل أن يجلس الكرسي الخشبي الموضوع أسفل المنصة تحت مقعد الرئيس، كاد يعود ليسأل كبير الياوران عن ذلك المنظر الذي يتنافى ومظاهر العظمة التي يحرص السادات دومًا على المُبالغة فيها، إلا أن وقوف الرجل بجوار الرئيس المنهمك في الحديث إلى نائبه ووزير دفاعه جعله يعدل عن ذلك. قرر الصمت واكتفى بمتابعة العرض.

"الطائرة الميراج التي أكدت على ضرورة تعدد مصادر السلاح.. وهي طائرة متعددة المهام.. وهي صناعة فرنسية".

صوت المُعلّق لا يكف عن صمّ أذنيه مُستعرضًا الأسلحة الجديدة التي حصل عليها الجيش المصري مؤخرًا. ابتسم في قرارة نفسه وهو يتذكر

الأرقام التي انهالت على حسابه في أوروبا في مقابل "مجهوده" في إتمام تلك الصفقات، شعر ببعض الحزن عندما تذكّر أن لا أحد من صلبه سيرث كل هذه المبالغ الضخمة، كاد يستغرق في هذا لولا أن عاد صوت المذيع يطغى على أفكاره.

"ويعتبر هذا الصاروخ هو التفوق النوعي لحلف الأطلنطي على التفوق النوعي للدبابات.. وهو من أهم الأسلحة المضادة للدبابات في الجيش الأميركي.. يمكنه تدمير أقوى الدبابات من مسافات بعيدة".

لم يدرِ لم تذكّر والده الراحل في تلك اللحظة. حياته البسيطة التي كافح خلالَها من أجل الحياة. المشهد الذليل الذي لم ينسَه لإلحاقه بالجيش. فرحته عندما تخرّج من الكلية الحربية. شجارهما الأخير حينما تجرأت شقيقته وأخبرته بما يفعله من ظلم؛ فجأة استعاد رده الذي أثقل قلب الرجل ليموت بعدها بساعات "وأنت إيه اللي خلاك تسيبني كده.. وقفت تتفرج عليا وتمصمص شفايفك.. تتصعب على حالي وناسي تبص لنفسك في المرايا.. ظالم!.. أحسن ما أكون زيك.. عمرك خدت بالك وشعرك بيقع.. وشك بيتجعد.. عينك ونورها بينطفي.. ابتسامتك وهي بتتكرمش لحد ما بقت زي ورقة الحمام.. روحك اللي فضلت تتسحب منك لغاية ما اتحولت لضل على الحيط.. لسانك اللي من كتر ما سكت اتجمد في مكانه.. عملت إيه وكل ده بيروح منك غير الستاير اللي غطت كل حاجة؟.. أنجزت إيه غير أيام الذل اللي سلطتي وظلمي رحموك منها.. دلوقتي بقيت الحاج، بعد ما كنت حتة نفر عند الباشا".

"والآن تتقدم الطائرة فانتوم الأميركية الصنع".

عاد الصوت الرخيم ليُشتت انتباهه من جديد. تذكّر المفاوضات الطويلة مع الجانب الأميركي التي حضر جزءًا منها، بينما توّزع وقته الآخر على مستشفيات لوس أنجلوس وهيوستن التي فشلت جميعًا في إعادة قدرته الإنجابية "Sorry.. Nobody can fix this problem till now Mr minister".. كان على استعداد للزواج من فريدة أو غيرها لو كان في العالم علاج لحالته.

بدأ يشعر بضيق في التنفس لم يُلازمه من قبل. جال بذهنه أن سهرة سريعة مع فريدة قد تُزيل كل هذا التوتر؛ بدأ يلعن العرض الذي لا ينتهي والمذيع الذي لا يكف عن الكلام. نظر إلى السادات الذي لا يكف عن إصدار تعليقاته إلى النائب والمشير. جال بذهنه أن يتسلل خارجًا؛ بالفعل بدأت عيناه البحث عن حارسه الذي يقف بعيدًا ضمن أطقم الحراسة التي تم إبعادها حتى لا يُفسد مظهرها هيبة المنصة ويوحي للعالم باضطراب السُلطة بعد الاعتقالات المُكثفة التي قامت بها.

"والآن طابور المدفعية".

أثار ذكر سلاحه القديم الذي بدأ العمل في الجيش به بعض الشجن فرفع رأسه ليُشاهد المعدات الجديدة، تابع طابور السيارات الذي يقترب من المرور أمام الرئيس حتى توقفت العربة الأولى أمامه بانحراف صغير. سرت همهمات من الجالسين استياءً مما بدا أنه عُطل مُفاجئ لا يليق بأهم عرض عسكري خلال العام، لمح الضابط المشرف على الطابور يقف وكأنه سيؤدي التحية للرئيس الذي نهض استعدادًا لرد التحية؛ نهض بدوره ليستغل الموقف ويتسلل خارجًا، إلا أن أبواب الجحيم انفتحت فجأة.

لم يلمح كغيره الرصاصة الأولى التي انغرست في عنق السادات بينما الضابط الشاب يقفز من السيارة متجهًا نحو المنصة للإجهاز عليه، فقط امتلأت أذنه بأصوات الرصاص القادم من العربة، ليشعر ببعضها يخترق صدره فيسقط وسط الفوضى العارمة التي اجتاحت المنصة. عاد يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة بينما عشرات الأقدام تدهسه وسط محاولات أصحابها الفرار بحياتهم، آخر ما رأته عيناه والظلام يغلفهما يد السادات المرتعشة وهو يلفظ أنفاسه بدوره تحت عشرات الكراسي.

***

"النداء قبل الأخير لطائرة الخطوط الإيطالية . . على الركاب المتوجهين إلى روما التوجه إلى بوابة 205 سريعًا . . شكرًا" . .

كررت موظفة الاستعلامات بالمطار النداء بلغات أخرى فنهضت جميلة مسرعة وهي ترتشف ثمالة قهوتها لتلحق بالطائرة، شعرت بضعف بالغ في قدرتها على السير، حاولت أن تسرع أكثر، مع انشغالها ارتطمت بأحد الركاب، اعتذرت سريعًا بالإنجليزية وهي ترفع رأسها مبتسمة. فوجئت بالراكبة الأخرى تتسمر في موضعها. دققت في ملامحها لتجدها فرح وقد غيرت لون شعرها وقامت بقصّه.

"إزيك يا جميلة؟" .

"مسافرة"، قالتها في تهكم واستدارت لتلحق بطائرتها فأمسكت بها "طيب اتكلمي معايا ولو دقيقة"، خلّصت جميلة ذراعها بهدوء وحاولت الابتعاد مرة أخرى فوقفت فرح أمامها "أنتي مش عارفة حاجة. . أنا لازم أحكي لك" .

"رحلتي كمان ربع ساعة" .

"أنا بس كنت عايزة أقول لك"، قاطعتها جميلة بحدة "لا تقولي ولا أقول يا بنت الناس. ياما قلت لك من فضلك بلاش تعملي معاه ده، أنا الوحيدة اللي عارفة ماله، استحمل كتير. . سنين طويلة وهو قافل على نفسه. . مش عايز يحصل له اللي حصل بينكم ده. . كان عايش وساكت وراضي. . نسي كل حاجة. . مفيش حب. . مفيش ارتباط. . مشكلته إنه كل ما كان يحب كان بيدي اللي بيحبها كل اللي جواه. . علشان كده قعد خايف عليكي قبل ما يخاف منك" .

"أنا" .

"أنا اللي شجعته . . قلت له جرب . . وأنتي طمنتيه . . إديتي له الحضن اللي كان نفسه فيه . . الحب اللي بيدور عليه . . الحنان اللي كان شايفه في أحلامه وبس . . حسيت أنه فعلاً ارتاح جواكي . . عمري ما شفته مبسوط إلا معاكي . . أول مرة شفته بيدعي لبني آدم كان أنتي" .

"لو سبتيني أفهّمك" ، قالتها فرح وبدأت دموعها في النزول فصاحت جميلة "مش مستاهلة صدقيني . أنتي جيتي خدتي منه كل حاجة ، مفيش حد سواء كان يعرفه أو بعيد ماخدش باله ، أنا مش فضولية ومش عايزة أعرف حاجة . بس كل اللي أقدر أقوله إنك خدتي من وسطنا إنسان صحيح كان قافل على نفسه ، لكن على الأقل كان موجود"؛ قالتها وانهمرت دموعها وخرج صوتها متحشرجًا "أكرم مات يا فرح . . قبل ما يموت وصّاني أقول لك إنه مش هيضايقك تاني . . وفؤاد اختفى . . وأنا كمان سايبة البلد كلها وماشية . بعد إذنك" .

أسرعت جميلة تتجه نحو بوابة الطائرة مع النداء الأخير ، بينما ظلت فرح في موضعها . سالت دموعها لتغرق وجهها وتفسد مكياجها البسيط الذي طالما أحبه أكرم ، جال بذهنها حياتهما معًا منذ تعرفت إليه لأول مرة . خطر بذهنها أن تغادر المطار وتبحث عن فؤاد ليدلها على قبره حتى تتحدث إليه وتطلب منه أن يسامحها ، لكنها تعرف أن فؤاد بشخصيته الفظة قد يتسبب في إهانتها في أي مكان .

أسرعت إلى دورة المياه لتزيل آثار البكاء سريعًا ، أخرجت من حقيبتها قلادة صغيرة كان قد أهداها أكرم إليها يوم جلسا على المقهى لتشجيع الأهلي في حادثة بورسعيد المشئومة . سمعت هي الأخرى نداء طائرتها الأخير فأسرعت إلى البوابة المذكورة ، ابتسمت المضيفة في وجهها وهي تطلب منها نطق اسمها فهمست "فرح . . فرح نجيب ياسين" .

***

استمرت حالة الانفلات الأمني لمدة أسبوع أعلن فيها حظر التجول، وانتشرت قوات الجيش في شوارع القاهرة، واعتقل العديد من جنود الأمن المركزي، وبعد انتهاء هذه الأحداث واستقرار الأمن تم رفع حظر التجوال، وصدر قرار بإقالة اللواء أحمد رشدي وزير الداخلية آنذاك، وعزل العديد من القيادات الأمنية، وتم اتخاذ العديد من القرارات لتحسين أحوال الجنود والحد من أعدادهم، ونقل معسكراتهم خارج الكتلة السكنية، كما اتخذت قرارات بتحديد نوعية الجنود الذين يلتحقون بالأمن المركزي مستقبلاً.

26 فبراير 1986– تقارير صحفية

في اليوم التالي وهو يوم 27 فبراير 1986، كانت الأمور قد استقرت في الشارع والقوات سيطرت تمامًا على الموقف، وكنا مجموعة قليلة مع المشير في مقر القيادة رغم أننى لست عسكريًّا، ولكن قربي منه سمح لي بزيارته في ذلك اليوم. لم يكن اجتماعًا ولم يكن شيئًا رسميًّا، ولكن كان لقاء به قدر من الارتياح يحس به القائد الذي أنقذ البلد وهو المشير أبو غزالة. في هذا اللقاء، قال أحد القادة العسكريين القريب جدًّا من المشير أبو غزالة: كفاية كده يا سيادة المشير، خلّصنا منه – يقصد الرئيس مبارك – بقى حتى يستقر البلد. فرد عليه المشير أبو غزالة على الفور، وبكل حزم وبالحرف الواحد: لا يمكن لي أن أفعل ذلك وإن أخطأت وفعلت، فسيُفعل معي فيما بعد.

مذكرات الدكتور كمال الجنزوري

ألقت شيرين صحيفة الجارديان بعيدًا وحاولت الاعتدال في سريرها في مستشفى «الملك جورج» في العاصمة البريطانية وقد نسيت آلام الولادة القيصرية بعد أن قرأت عن الاضطراب الذي شهدته القاهرة، ألقت نظرة على وليدها الذي لم يتعدَ يومه السابع وعقلها يفيض بالقلق حول مستقبل زوجها إذا ما أطاح جنود الأمن المركزي بنظام الرئيس الجديد الذي ارتقى زوجها ليُصبح أحد أعمدته. دار بخلدها صورة الإيطاليين وهم يعلّقون موسوليني وعشيقته في شوارع روما كالخراف، ارتجفت وعادت تنظر إلى الطفل الصغير الذي ينتظر والده القادم من العاصمة المُشتعلة ليختار اسمه.

ارتفعت دقات رقيقة على الباب أعقبها دخول الممرضة النحيلة ذات العينين الزرقاوين مبتسمة «Excuse me madam.. Your husband is her"، كادت تقفز من الدهشة وهي ترى الوزير يدخل الغرفة بابتسامة هادئة وأحد رجاله يتبعه حاملاً باقة من الورود، أشار إليه ليُعطيها للممرضة "Thank you.. I'll call you if we need that" قالها مُشيرًا لرجله بالخروج بدوره، أغلق الباب وعاد يستدير إليها مُبتسمًا "حمدلله على السلامة يا أم شكري"..

"مش بلدي الاسم ده؟!"..

"أنا مش من أسرة محمد علي سموّك.. أنا راجل طالع من تحت الأرض"..

"وده يمنع أنك تختار اسم شيك؟"..

"ومين قال إن الاسم وحش.. دا أنتي حتى بتموتي في شكري سرحان"، ضحكت عاليًا وقد نسيت توترها ثم عادت تستعيده عندما تحرك ليلتقط الصحيفة التي ألقتها "مهوّلين الموضوع أوي ولاد الكلب دول"،

ارتفع حاجباها في دهشة بينما جلس على الكرسي المواجه لها وعيناه تتابعان العناوين. صمتت لحظات ثم احترقت بفضولها الأنثوي "هو إيه اللي حصل في مصر؟"، رفع عينيه إليها مُبتسمًا "أنتي لسّه خارجة من الولادة.. ما تشغليش دماغك"..

"يا أخي ريّحني مرة.. دا أنا مراتك.. ودلوقتي أم ابنك"، أطلق ضحكة عالية جعلت الممرضة تدخل الغرفة لتحذره من إزعاج صوته للمرضى فأشار إليها معتذرًا، أغلقت الباب فرفع أصابعه على شكل مسدس "بنت الكلب دي لو كانت في مصر كنت أعدمتها"، ضحكت برقة ورفعت يديها وكأنها تتوسل إليه فهز رأسه "ماشي يا ستّي"، قالها ونهض وبدأ وكأنه يُلقي محاضرة "كل الموضوع إن فيه ناس مش عايزة تسمع الكلام.. صحيح شغلهم حلو لكن الأهم من الشغل إن اللي موجود يسمع الكلام"..

"كلامك طبعًا"..

"عمرك شفتي كهنة ما بيسمعوش كلام كبيرهم.. دا حتى يبقى عيب"..

"وبعدين؟"..

"اللي راسه تعلى على الريح تتقطع"..

"يعني كل ده مش حقيقي"..

"ما تصدقيش دايمًا موضوع الظروف.. إحنا اللي بنصنع الظروف"؛ صمتت وبدا عليها تفكير عميق فعاد يبتسم "إيه.. مالك؟"، هزت رأسها بلا معنى "مش عارفة ومش فاهمة.. أومّال لو أنا مواطن عادي".

"كانت دماغك ضربت يا حبيبتي"، قالها واقترب من الشرفة التي أشعل بها سيجاره المُفضّل "مش مطلوب من المواطن إنه يفهم.. المطلوب إنه يعيش وخلاص".

"1984"، خرج منها اسم الرواية الشهيرة دون وعي فارتبكت، نظر إليها ثُم عاد ينظر إلى دخانه الكثيف الخارج من الشرفة "حاجة زي كده.. أنا كمان لمّا أقول 2+2= 5 يبقى كل الناس لازم تقول زيي".

نظرت إليه بخوف فأكمل حديثه "مفيش حروب. . المرحوم السادات قالها. . والراجل الجديد مش عايز وجع دماغ". .

"يعني الناس لازم تعيش وهي ساكتة". .

"وإيه الغلط في ده" ارتفع حاجباها في دهشة فابتسم "يا بنت الملوك. . عمرك ما هتفهمي الناس زيي". .

كادت تواصل الحديث فأشار إليها بالصمت. . اقترب من صغيره الوحيد بينما استعادت ذاكرته بدايات عمله عندما التحق بخدمة الوزير السابق. استغرق وقتًا طويلاً حتى ظنّت أنه سيظل هكذا بقية حياته،

"رحت فين"، أفاق على صوت شيرين فعاد إليها بملامحه الجامدة "أنا راجع مصر دلوقتي. . فيه شوية حاجات لازم تخلص"، قالها وتحرك ثم توقف أمام الباب وعاد يغمز لها "أهم من الشغل الاهتمام بالشغل. . مبروك يا أم شكري".

***

أغلق شاشة الكمبيوتر وهو يفرك عينيه في إرهاق، تساءل في نفسه عما إذا كان الرجل الذي استغرق ساعات في قراءة أوراقه حاويًا حتى يستطيع الانغماس في كل هذا "كان عارف هو بيعمل إيه"، قالها لنفسه ونهض ليلتقط الهاتف الداخلي ويطلب رقمًا قصيرًا.

"معاليك فاضي دقيقتين.. قلت لسعادتك إني مش هنام قبل ما أكون خلّصت كل حاجة.. أقل من دقيقة"، أغلق الهاتف وتحرك مُرتديًا سُترته، شدّ من قامته وهو يخرج، صعد إلى الطابق الأعلى، دقيقة وكان يقف أمام مدير مكتب الوزير الذي بادره بابتسامة صارمة "تمام؟".

"ومُنتظر تعليمات سعادتك".

"المرحوم كان قادر يشيل كل حاجة"، قالها بنبرة تحذير وهو يتحرك في الممر الفخم، فأجاب بهدوء متعمدًا التأخير نصف خطوة حتى لا يسبقه "ما تقلقش سيادتك.. أنا ذاكرت كويس". نظر الرجل في ساعته وهما يتوقفان أمام الباب الضخم الذي تُدار منه الأمور، نظر الجديد للباب بانبهار والآخر يستأذن في الدخول بثلاث دقات حذرة وهو يتنحنح، مدّ يده ليفتح الباب ثم عاد يُشير إليه بإصبعه وكأنه تذكّر شيئًا مهمًا.

"بالمُناسبة.. من النهارده هيكون اسمك صفوت".

تمت

أغلق آدم الملف، ونظر لي بعينين مُرهقتين من القراءة "طويلة أوي.. لكن من كُتر ما هي عاجباني ما قدرتش أقفل غير لمّا أخلصها"، وابتسم وهو ينظر للمنضدة المزدحمة بالأكواب الفارغة أمامنا "وأنت استغليت الفرصة وشربت لك بتاع عِشرة شاي، والمُغفّل اللي بينزل الحاجة ما بيشلش الفوارغ"، ضحكت وأنا أشير للمطفأة الثالثة التي امتلأت بأعقاب السجائر "وحرقنا لنا بتاع خرطوشة سجاير".

"طبعًا.. وأنت دافع حاجة"، قالها ساخرًا ونهض وهو يتمطى "أنت عارف أنك لمّا هتنشرها مش بس احتمال تتصادر. ده فيه احتمال أكبر إن أنت كمان تتحبس"؛ فركت كفّي وأنا أبحث عن سيجارة وسط العُلب الفارغة "طب قول لي بذمتك.. كنت أكتبها ولّا أتجنن.. كل اللي أنت قريته ده كان موجود هنا"، وأشرت لرأسي "دلوقتي الكلام ده كله نزل البراح.. إيه.. مش عاجبكم ليه؟".

"لا يا صاحبي.. إحنا بنتكلم بشكل شخصي"، قالها مؤكدًا ما اتفقنا عليه في بداية حديثنا، وتحرّك نحو مكتبه وهو يضع عليه الملف "أنا وأنت عارفين إن فيه حاجات من كل ده حصلت وبتحصل، كل واحد هتلاقي عنده ذكرى من اللي أنت كتبتها، بس أنت فاهم برضه".

"يا أخي خلي الناس تنبسط، وبعدين أنا لا بكتب تاريخ ولا ليا دعوة بحد.. أي شخص حقيقي جه اسمه هنا لأنه في سياق الدراما.. ولّا السياق ده بتاع البوس الهادف بس يا أخي؟"، فتح درج مكتبه وأخرج علبة سجائر جديدة أعطاني إحدى سجائرها "وهو لازم الانبساط عندك يكون فيه فكرة.. يا أخي مشّيها".

"يعني هو الانبساط بتاعي مش جاي على هوى اللي على راسه بطحة.. يا أخي دا حتى كبيرهم قالها.. خليهم يتسلوا.. أدينا بنتسلى".

"اسمع.. أنت عارف مُشكلتك إيه؟".

"قول يا باشا"، امتعض وجهه من الكلمة وكأني رميته بلفظة بذيئة

للغاية "يا حبيبي أنت بتكلم واحد معاه دكتوراه، وفي تخصصك، أنت نسيت إننا أصلاً دفعة واحدة في الجامعة؟ ولّا أنت فاكرني بنزل أجيب كام ديلر من على الناصية.. خليك أرقى في المُعاملة"، قالها وأشاح بيده ثُم تابع "المهم.. أنت مش بس بتفكر.. كمان بتخلي غيرك يفكر معاك.. دا أنت لو بتسلّمه لطريق مُعين واستقطاب وشغل الهري ده كانت بقت سهلة.. لكن لأ.. ده هيفكر وياخد قراره بمعرفته"، ونظر إليّ وغمز بوجهه الوسيم "وأنت بصياعتك مطلّع له أمثلة حقيقية أوي.. ساعتها هيختار سكة بتاعته.. بعد كده مفيش راس تقدر تمسك منها أي حاجة".

"وطبعًا ده مش مطلوب".

"مطلوب بعد سنين.. لمّا حالها ينظبط ويبقى فيه مستوى فكري مُعين".

"وعمر ده ما هيحصل"، قلتها بصيغة توكيد وسألته تقدر تديني سبب؟"

"أنا مش قادر....."، صمتُ وقد أدركت ألا جدوى من النقاش – فهو كعادته لن يُعطي لي سوى ما يُريد – نظرت إلى الساعة "مش ناوي تسيب لي تليفوني بقى وأنا قاعد معاك؟"، ابتسم رفيق الجامعة القديم وهو يجلس على مقعده ويضغط زرًّا بجوار الهاتف الداخلي "دا أنت ما بتعملهاش في قسم شرطة"، وأشار إلى قداحتي التي نسيتها "أنتوا اللي بتسيبوا أشياء كم أهو"، ابتسمت ولكن ملامحه عادت للجدية "فكّر تاني.. صعب تتنشر دلوقتي.. والصداقة اللي بينا مش هتخليني أساعدك لأن ده ماينفعش"، هززت رأسي مُحييًا في نفس الوقت "عارف.. ومقدّر".

عدت إلى المنزل سريعًا هذه المرة، استقبلتني ابنتي الصغيرة بضجيجها المُعتاد. جلست بجواري وأنا أتناول العشاء وأُشاهد الأخبار، اعترضت كعادتها ولكني أخرستها "شوية وهنام وابقي اعملي اللي عايزاه"، صمتت قليلاً ثُم عادت تُشير إلى التلفاز الذي ظهر عليه أحد هؤلاء المهمين الذين لا ندري ماذا يفعلون بالضبط "بابا.. ده باشا"، تجاهلتها ولم أهتم وتذكرت تعليق صديقي على الكلمة، أكملت طعامي فكررت جُملتها ثُم نظرت إليّ

وضحكت "طالما باشا . . يبقى حرامي" .

=تمت خلاص=

القاهرة – 2017